



الجمهورية العربية السورية

وزارة التعليم العالي

جامعة دمشق

كلية الشريعة

قسم علوم القرآن والحديث

دفع الأذى في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

رسالة أُعِدَّت لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن

إعداد الطالبة

آلاء محمد صبحي سرحيل

إشراف الأستاذ الدكتور

نصار نصار

شكر وتقدير

الشكر لله تعالى أولاً أن يسّر لي إنجاز البحث سائلة إياه الإخلاص والقبول.

وإنّ من شكره تعالى شكر المشرف الكريم صاحب الفضل في إتمام البحث:

الأستاذ الدكتور نصّار نصّار -حفظه الله-

الذي تلقّى كثرة أسئلتى ومراجعاتي بصدور رحبٍ وأخلاق نبيلة، وكان لتوجيهاته السديدة وملاحظاته القيّمة أثر كبير في أداء الرّسالة.

والشكر موصول للدكتور حازم محي الدين والدكتور علي أسعد الذين تفصّلا علي من وقتهم وعلمهم من أجل الارتقاء بمستوى الرسالة، وقد توجّأ فضلها بقبول قراءة البحث كاملاً ومناقشته

سائلة المولى تعالى أن أترسّم خطاهم جميعاً وأنهل من مَعين علمهم وخُلُقهم، وأن يجزيهم -
وسائر من ساند وساعد في إنجاز البحث- خير الجزاء.

إنّه خير مسؤول وأكرم مأمول.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده والصَّلَاة والسَّلَام على من لا نبيَّ بعده، أمَّا بعد؛ فإنَّ علم التَّفْسِير الموضوعي -باعتباره علمًا حديث النِّشأة والتَّطوُّر- ما يزال محتاجًا إلى مزيد من التَّأصيل النَّظريِّ الضَّابط لفروعه، ولعلَّ كثرة الدِّراسات التَّطبيقيَّة المعاصرة تُسهم في بلورة مفهومه من خلال تحليل نقاط القُوَّة والضعف فيها، واستبعاد المُكوِّنات التي لا تخدم فكرة التَّفْسِير الموضوعي.

مشكلة البحث

يسعى البحث من خلال الدِّراسة الموضوعيَّة لقضية الأذى ودفعه في القرآن الكريم إلى الإجابة عن السُّؤال الآتي:

كيف وجَّه القرآن الكريم المؤمنين -من خلال بيانه وأساليبه وخطاباته- لمعالجة ظاهرة الأذى الواقعة عليهم من قِبَل غير المؤمنين -المشركين والمنافقين وكفَّار أهل الكتاب-؟

حدود البحث.

ظاهرة الأذى ظاهرة إنسانيَّة قارَّة ومستمرَّة ويمكن دراستها من حيثيَّات كثيرة؛ من حيث منشأ الأذى ونوعه ودرجته وجهته، ومَن يقع عليه الأذى، وكيفيَّة دفعه.

فقد يتأذى الإنسان بسبب ابتلاء لا يد له فيه، أو يتأذى بسبب كسبه، وقد يؤذى من جهة الأهل والقربة أو من جهات بعيدة، وقد يؤذى بسبب اختلاف الدِّين أو من أجل المصالح أو لغير ذلك، وقد يكون الأذى من النَّوع اليسير أو الخطير، وهناك الأذى الجسدي والأذى النَّفسي.. إلى غير ذلك من الاعتبارات.

وبما أنَّ الدِّراسة المحيطة بكلِّ أجزاء الظَّاهرة في القرآن الكريم ضمن بحث جزئيٍّ مُحدَّد بزمن مضيق أمرٌ متعذِّر وبالأحرى غير واقعي^١؛ حيث إنَّ مادَّتها تشغل حيِّزًا كبيرًا في القرآن الكريم، فإنَّ الباحثة اختارت أن تُحدِّد مجالَ دراستها الموضوعية لظاهرة الأذى ومنهج دفعه في القرآن الكريم في إطار العلاقة بين المؤمنين وغير المؤمنين، أي ما كان سببه اختلاف الدين.

١ الواقعية في اختيار مجال البحث ما يمكن إنجازَه على الوجه الأكمل في زمن معلوم.

أهمية البحث.

يُقَدِّم هذا البحث دراسةً تطبيقيةً في مجال التفسير الموضوعي، وتحديدًا ما يتناول قضية محدّدة في كامل القرآن الكريم، وتتخصّص أهمية البحث فيما يأتي:

١- يتّجه البحث إلى المجال النّطبيقي للتفسير الموضوعي المتعلّق بالموضوع القرآني، لعلّه يُقدِّم خطوة على طريق البناء المنهجيّ للتفسير الموضوعي.

٢- يسعى البحث إلى تقديم الإجابة القرآنية عن كيفية التعامل مع ظاهرة الأذى في بعده العقدي.

٣- اختيار الموضوع القرآني مرتبطًا بالواقع مباشرة -في ظلّ ما يعانيه المؤمنون اليوم من إيذاء أعداء دينهم وتطاول الكافرين عليهم باللسان واليد- يجعله أقرب إلى تناول الناس وأوثق صلة بهدف التفسير الموضوعي.

أسباب اختيار البحث

أولاً: جدّة مجال التفسير الموضوعي تجعله ما يزال محتاجًا إلى دراسات علميّة سواء أكانت نظريّة أم تطبيقية لضبطه وتطويره، ولهذا قمّت باختيار البحث ضمن هذا المجال لعلّه يكون شروعًا في تجربة تطبيقية جديدة تُسهم في تطوير منهج التفسير الموضوعي.

ثانيًا: أسئلة المجتمع الكثيرة والمتزايدة حول طريقة التعامل مع ظاهرة الأذى -باعتبارها سنّة إلهيّة- بين الاستسلام والمقاومة، وكثرة استفساراتهم عن المنهج القرآني المُرشّد لذلك، جعل الحاجة ماسة للقيام بدراسة موضوعيّة تتناول الظاهرة في بُعدها العقدي.

ثالثًا: الرّغبة في تحرير دلالات بعض الألفاظ الأخلاقية ذات الصلة بالموضوع كالصبر والعفو والبرّ والمقاومة لما قد يقع من خطأ في تصوّر مفهوماتها ناتج عن اجتزاء النصوص القرآنية واستقطاب ما يناسب الطّبع.

أهداف البحث

١- دراسة دلالات مفردتي الدفع والأذى وما يتصل بهما؛ بغية الوصول إلى مفهوم جامع ومانع تدخل فيه جزئيات البحث جميعها.

٢- البحث في عوامل نشوء ظاهرة الأذى.

٣- التعرّف إلى الأساليب الوقائيّة في دفع إيذاء غير المؤمنين.

٤- عرض الأساليب العلاجيّة في دفع إيذاء غير المؤمنين بعد وقوعه.

منهج البحث

يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي في إحصاء الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالموضوع القرآني، ثمّ المنهج التحليلي التركيبي الذي يقوم على شرح النصوص القرآنيّة -مادّة الموضوع- وتفكيك عناصرها لاستنباط النّسق الكلّي الضّابط لجزئيّات الموضوع في القرآن الكريم.

صعوبات البحث

١- صعوبة تحرير المعنى الخاصّ للألفاظ المترادفة من خلال المعاجم اللغوية.

٢- صعوبة تصنيف المادة الموضوعية، -وهي عقبة يعاني منها معظم الباحثين في التفسير الموضوعي-، وأظنّها تقف على رأس الصعوبات، فقد كلّفتني هذه الصعوبة خسارة الكثير من الوقت والجهد في كتابة مباحث فما دون ثم حذفها لعدم ملاءمتها لنصوص المادّة.

الدراسات السابقة

تمّ العثور على عناوين بعض الرسائل العلمية ذات الصّلة بموضوع البحث، أذكر منها:

- ١- المنهج القرآني في الحذر وتوقي الضرر، دراسة تحليلية لحوارات من القرآن الكريم، إعداد مبارك بن مسلم الشعبني، وهو بحث تكميلي مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، والعنوان يبرز اختلاف الدراسة عن بحث (دفع الأذى) من نواح عدة، منها أن دراسته تحليلية بحتة تستحضر كل الحوارات المذكورة في القصص القرآني، فتحدد محاور كل حوار، ثم تستنبط الدلالات التربوية له، ومنها أنها تتناول جزءاً من البحث وهو المتعلق بالجانب الوقائي، من غير أن يكون مخصوصاً بفئات دينية أو اجتماعية معينة، بل هناك من الحوارات ما كان بين الهدد وسليمان عليه السلام، والنملة مع النمل وهكذا
- ٢- سنة التدافع بين الحق والباطل في القرآن الكريم-دراسة موضوعية، إعداد طالب الصرايرة بإشراف الدكتور نصار نصار، وهي أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن.

٣- سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم-دراسة موضوعية، إعداد: خالد بن موسى الحسني الزهراني، بإشراف الدكتور سليمان الصادق البيرة، وهو رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن في جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين.

ويختلف الباحثان عن موضوع البحث من جهة أن البحث يدرس الدفع باعتباره علاجاً قرآنياً لظاهرة إيذاء غير المؤمنين، بينما يتناول الباحثان موضوع التدافع من حيث هو سنة إلهية ماضية في الدنيا، فيبين الثاني أن مجالاتها تبدأ بأصغر وحدة بشرية متمثلة في مدافعة الإنسان لنوازع نفسه، ويبرز عند الباحثين مفهوم التدافع جلياً في دراسة أبعاد الصراع الكوني الكبير بين أهل الحق وأهل الباطل.

٤- سنة التدافع من منظور إسلامي، معاذ بن محمد عبد الله أبو الفتح بيانوني، وهو بحث منشور في مجلة الإسلام في آسيا، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، يعرف الباحث فيه مفهوم التدافع في صورته الحسنة والسيئة، ويعدد مجالات التدافع التي قد تتحى بدورها المنحى الإيجابي أو السلبي، ويعرض بإيجاز لأبرز آليات التدافع ووسائله، وهو في هذه الجزئية يلتقي مع البحث من حيث الفكرة لكنه يختلف عنه من حيث التصنيف وأسلوب العرض.

٥- لفظة الأذى ومشتقاتها في الاستعمال القرآني دراسة صرفية نحوية دلالية، إعداد أنفال الزيدي، وهو بحث محكم في مجلة كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ويمكن أن يُصنّف البحث على أنه مرحلة من مراحل الدراسة المصطلحية.

٦- مفهوم الأذى وأنواعه في القرآن الكريم بين الماضي والحاضر، إعداد الدكتور أنس عبد العليم عبد الرحمن السعدي، وهو بحث منشور في مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، ويهتم البحث بدراسة معاني الأذى من خلال السياقات القرآنية للمصطلح، ثم إيراد بعض الصور المعاصرة للإيذاء في الدين للتأكيد على استمرارية مظاهر الأذى منذ زمن الرسل إلى يومنا هذا، ليبقى المؤمن متحصناً باعتقاده وسلوكه في مواجهة أعداء الدين.

وهذا يبين اختلافه عن البحث من حيث إنه يدرس الأذى من جهة وصفه وبيان مظاهره، لا من جهة أسلوب دفعه.

إجراءات كتابة البحث

أولاً: بالنسبة إلى الآيات القرآنية ضمن الفقرات والمباحث؛ أشير في بداية الفقرة إلى طريقة ترتيبها، إمّا بحسب تاريخ نزول السور أو بحسب ترتيب المصحف، وقد اخترت من المعاني الواردة

فيها ما ينسجم مع سياق الآيات والسورة، مع الإشارة إلى ورود معانٍ أخرى أحياناً، أمّا فيما يتعلق بعزوها فكنت أعتد ذكره بجانب الآية وذلك بإثبات اسم السورة ورقم الآية بين معقوفتين [].

ثانياً: قمت بتخريج الأحاديث الواردة في الرسالة من مظانها، كتب الصحاح أولاً، ثم سائر الكتب الستة متبوعة بذكر الحكم عليها من قبل العلماء المتقدمين إن وُجد، وعلى أية حال فلم تكن كثيرة الحضور، لأنّ البحث يستهدف استنطاق أبعاد المفهوم من خلال النصّ القرآنيّ فحسب، على أمل أن يُرَفَّد بدراسة مستقلة في الأحاديث النبويّة من قبل المتخصّصين في السُنّة وعلومها.

سادساً: ضمّت الحواشي ترجمة للأعلام المذكورين في المتن بذكر اسمهم وما برعوا فيه، وأبرز مؤلّفاتهم وتاريخ وفياتهم، بالإضافة إلى إثبات تاريخ الوفاة إلى جانب اسم العَلَم في المتن.

سابعاً: كان منهج التوثيق في الحواشي للمصادر والمراجع مقتصرًا على ذكر اسم الكتاب واسم مؤلّفه أو شهرته في المرّة الأولى ثمّ الجزء -إن وجد- ورقم الصفحة، وأكتفي بذكر اسم الكتاب مع الجزء والصفحة في سائر المواضع مالم يَشْتَبِه بغيره.

ثامناً: تمّ الرجوع أولاً إلى أمّهات التّفسير القديمة في توثيق معاني الآيات، ومع هذا يُلاحظ حضور التفسير المعاصرة بكثرة؛ نظراً لخدمتها موضوع البحث من خلال تركيزها على إبراز المنهج الأخلاقي في القرآن الكريم.

تاسعاً: رتبت أسماء الكتب في فهرس المصادر والمراجع ترتيباً ألفبائياً، وأفردت الأبحاث والرسائل العلمية في فقرة مستقلة بالإضافة إلى مواقع الانترنت التي تمت الاستعانة بها.

عاشراً: أعددت فهرساً للأحاديث النبوية وفهرساً للأعلام الواردة في نص البحث، وفهرساً للأبيات الشعرية، وعدلت عن إعداد فهرس للآيات القرآنية لأن المادة القرآنية الموجودة في البحث كثيرة جداً فضلاً عن أنها ترد في كثير من الأحيان مقاطع طويلة، ولهذا تبدو لي فهرستها غير مفيدة مقارنة بحجم الجهد المبذول فيها.

مخطّط البحث التفصيلي

مقدّمة أثبت فيها: أهميّة البحث، وأسباب اختياره، وحدوده، وعرّفْتُ مشكلته، وشرحتُ أهدافه، ومنهجه، وعرضتُ لبعض الصّعوبات التي واجهتني لإتمامه، كما سجّلتُ أسماء عدد من الدّراسات العلميّة السابقة ذات الصلة به.

الفصل الأول: الدراسة المصطلحية؛ وهي تعدُّ حجر الأساس في تصوُّر مفهوم البحث، وفيه تمَّت دراسة المصطلحات الواردة في البحث وما يتَّصل بها، حيث تناول المبحث الأول دلالة مادتي (أذى) و(دفع) المعجميّة والاستعماليّة، وتناول المبحث الثاني دلالة المفردات ذات الصِّلة بمعنى الدفع والأذى.

الفصل الثاني: نشوء ظاهرة الأذى في ضوء دلالة الآيات القرآنية؛ فالشأن في معالجة الظواهر أن تُبدأ بالبحث عن أسبابها، لذا تصدَّى الفصل الثَّاني من الرِّسالة لدراسة منابع ظاهرة الأذى، -والتي تنبثق عنها أسباب الأذى المباشرة- وذلك بإرجاعها إلى ثلاثة أمور، دُرِس كلُّ واحد منها في مبحثٍ مستقلٍّ وهي: سنن الله تعالى في البشر، ودور الشيطان، ودور النَّفس الإنسانيّة.

الفصل الثالث: التدابير الوقائيّة لدفع إيذاء غير المؤمنين، وهو أوّل فصول الدراسة الموضوعية، تناول الأساليب الوقائيّة لدفع إيذاء غير المؤمنين، وهي -بحسب ما توصَّل له الاستقراء-: الإعدادُ النَّفسي والعقدي، وأخذ الحذر، وتحزِّي السِّلَم وبرُّ المسالمين من غير المؤمنين، والحذر من موالاة الأعداء غير المؤمنين، وإعداد الوسائل المادية والحسية.

الفصل الرابع: دفع الأذى بالأساليب النظرية: بدأ الفصل بتمهيد يعرض لمحة عن بيئة النزول دينيًّا واجتماعيًّا؛ من أجل فهم المناسبة بين الأسلوب والظرف التاريخي الموضوع فيه.

ثم اختصَّ الفصل بدراسة الجانب الأوّل من الأساليب العلاجيّة في دفع إيذاء غير المؤمنين، والمتمثِّل بأسلوب المواجهة بالقول، من خلال إقامة الحجة، والإنذار بسوء عاقبة الإيذاء.

الفصل الخامس: دفع الأذى بالأساليب العملية؛ وفيه تمَّت دراسة الجانب الثَّاني من الأساليب العلاجيّة في دفع إيذاء غير المؤمنين، والمتمثِّل بأسلوب المواجهة بالوسائل الماديّة.

الفصل السادس: دفع الأذى بالتجنب؛ تناول دراسة الجانب الثَّالث والأخير من العلاج القرآني لدفع الأذى والمتمثِّل بأسلوب التَّجَنُّب، حيث اهتمَّ المبحث الأوّل منه بدراسة دلالات الألفاظ القرآنيّة المتعلّقة بتجنُّب الأذى -بحسب ما توصَّل له الاستقراء- وهي: التَّرك، والخروج، والدَّهاب، والإعراض، والاعتزال، والفرق، والهجر، والودع، والوذر. أمّا المبحث الثَّاني فقد تناول الأعمال الرافدة لدفع الأذى؛ وهي: الدُّعاء لله تعالى، وترك الطاعة للمؤذي، وطلب النُّصرة، وإحسان المعاملة.

ثم جاءت الخاتمة والنتائج تلخّص البحث وتعرّض أهمّ ما توصّل إليه مع ذكر أبرز التّوصيات التي تراها الباحثة.

وقد بذلت وسعي في إخراج العمل واستكمالهِ وفق المعايير العلمية، فما كان فيه من صواب فمن فضل الله تعالى عليّ وعظيم منّته، وما كان من زلّة فمن نفسي وتقصيري.

هذا ومن جعل الحمد خاتمة النعم جعلها الله فاتحة المزيد

الحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

دراسة المفردات الواردة في البحث وما يتصل بها

يضمُّ الفصل مبحثين:

يركّز المبحث الأول على دراسة مادّتي (أذى) و(دفع) دراسة مصطلحيّة، فيبحث

في دلالاتهما اللغويّة والقرآنيّة.

ويتناول المبحث الثاني مفردات تشترك معهما في الحقل الدلالي؛ فيقارن البحث

بينها ويبحث في دلالاتها ليختار منها ما يدخل في مجال البحث.

المبحث الأول

دلالة مادتي "أذى" و"دفع"

يُدرس في هذا المبحث مواضع ورود المفردتين في مصادر اللغة العربية ثم القرآن الكريم لملاحظة مدى التحول الدلالي الذي طرأ على مجال استعمالها.

المطلب الأول

الدلالة المعجمية للمفردتين

وفيه سنتتّم دراسة معاني المفردتين من خلال معاجم اللغة العربية وكتب التعريفات والتفسير التي لها عناية بالمفهومات.

أولاً: تعريف الدّفع

قال ابن فارس^١ (٣٩٥هـ): "الدّال والفاء والعين أصل واحد مشهور، يدلّ على تحية الشيء"^٢ أي إبعاده^٣. وتتخصّص المعاني المعجمية المتفرّعة عن هذا الأصل في أربعة معانٍ أساسية هي:

الأول: المنع والإزالة، ومنه دَفَعْتُ عنه الأذى، ودَفَعْتُ عن الموضع رحلت^٤.

الثاني: الرّدّ، ومنه دَفَعْتُ القول، رَدَدْتُهُ بِالْحُجَّةِ، ودَفَعْتُ الودیعة إلى صاحبها رَدَدْتُهَا إِلَيْهِ^٥.

الثالث: الانتهاء والإعطاء والتّسليم، ومنه دفع إلى فلان انتهى إليه، ودَفَعْتُ إِلَيْهِ مَالَهُ سَلَّمْتَهُ

١ ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين اللغوي القزويني، كان نحويّاً على طريقة الكوفيين، قرأ عليه البديع الهمداني، وكان مقيماً بهمدان، فحمل منها إلى الري فسكنها، وكان شافعياً، فتحول مالكيّاً، صنف: المجمل في اللغة، وفقه اللغة، وغير ذلك. مات سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بالري (بغية الوعاة: ٣٥٢/١)

٢ مقاييس اللغة، ابن فارس: (دفع)، ٢٨٨/٢.

٣ ينظر: لسان العرب، ابن منظور: (نحا)، مج ٦، ٤٨/٣٧٢. والفرق بين التّحية والإزالة أن الإزالة تكون إلى الجهات الست، أما التّحية فتكون إلى جانب اليمين أو الشمال، أو خلف أو قدام، ولا يقال لما صعد به أو سفل به [الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري: ٤٣]

٤ ينظر: تاج العروس، الزبيدي: (دفع)، ٥٥٣/٢٠.

٥ ينظر: المصباح المنير، الفيومي: (دفع)، ٧٥.

إِيَّاهُ^١.

الرَّابِع: الاندفاع المُضِيّ والسَّير السَّريع، والدَّفْعَة دم يخرج بكثرة، ودَفَعَ ناقته حَمَلَهَا على السَّير، واندفع في الأمر مضى فيه^٢.

وقد عُرِّف الدَّفْع تعريفات عدَّة منها:

- "صَرَفُ الشَّيْء قبل الورود، وذلك لِيَتَمَيَّز عن الرَّفْع الذي هو صرف بعد الورود"^٣، فإن تعدَّى الدَّفْع إلى دلَّ على الانتهاء أو أفاد معنى الإنالة، وإن تعدَّى بعن دلَّ على المنع والحماية^٤.

- وقيل: هو إبعاد الجسم بقوة، وأصله الضَّرْب باليد للإقصاء عن المراد، والدَّيْب عن مصلحة الدافع^٥.

- وقيل: المعنى المحوري للدَّفْع انصبابٌ للأمام بكثافة مع تقطُّع، ثُمَّ اسْتَعْمِلَ في نَقْلٍ ما في الحوزة إلى حوزة أخرى بقوة، وهو الذي يكون بمعنى الإيتاء، كما اسْتَعْمِلَ في الصَّدِّ وردَّ المتقدِّم المهاجم، وذلك عند قولهم دفع العدو أي رَدَّه على أعقابهِ وصَدَّه^٦.

يُخَلَّص من المعاني والتَّعريفات السَّابقة أَنَّ "الدَّفْع خلاف الجلب وال جذب، ويلاحظ فيه الإبعاد بالنِّسبة إلى جانب معين"^٧، وأنَّه يكون قبل وقوع المدفوع، فيكون بمعنى الحماية والوقاية، ويكون أثناء وقوع المدفوع وبعده، ويكون بمعنى الرَّدِّ والكفِّ والصَّرْفِ والصَّدِّ.

ولم أقف في أمِّهات المعاجم على عبارات جامعة مانعة تَحُدُّ معنى الدَّفْع، لأنَّ معناه معروف^٨، لهذا اسْتَعْمِلَت المفردة في المعاجم موضحة لمعاني كلمات أخرى^٩.

١ ينظر: المفردات في غريب القرآن (مفردات الراغب)، الراغب الأصفهاني: ٣١٦، لسان العرب: الموضع نفسه، تاج العروس: الموضع نفسه.

٢ ينظر: تاج العروس: الموضع نفسه.

٣ الكلبيات، الكفوي: ٤٥٠.

٤ ينظر: مفردات الراغب: ١٧٠.

٥ ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٥٠٠/٢.

٦ ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن حسن جبل: ٦٦٣/٢.

٧ التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المصطفوي: ٢٤٧/٣.

٨ ينظر: مادة (دفع) تهذيب اللغة: ٢٢٦/٢، المغرب في ترتيب المغرب، المطرزي: ٢٩١/١.

٩ مثل: الدَّحْر والدَّسْر والرَّكْض والوكز والزَّيْن والدَّع، على اختلاف بينها في القيود والأوصاف.

ثانيًا: تعريف الأذى

قال الخليل^١ (١٧٠هـ): "الأذى كلُّ ما تأذيت به"^٢، وقريب منه قول ابن فارس (٣٩٥هـ): "هو الشَّيءُ تتكرَّهه ولا تقرُّ عليه"^٣، وناقَة أذِيَّةٌ -بالتخفيف- وبغيرِ أَذٍ: لا يَقْرُ في مكان خِلْقَةٍ بلا وجع ولا مرضٍ، والأذية المكروه اليسير، وقيل: "الأذى الشَّرُّ الخفيف فإن زاد فهو ضرر"^٤. وعرفه الرَّاغب^٥ (٤٢٥هـ) بقوله: "ما يَصِلُ إلى الحيوان من الضَّرر، إمَّا في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويًّا كان أو أخرويًّا"^٦، وقريب منه قولهم: "الأذى اسم جامع في معنى الضرر"^٧، وقيل: "هو ما يسوء ولو إساءة ما، ويطلق على الشَّدِيد منه"^٨. والأرجح -كما يظهر في معظم المعاني السابقة- أن تبقى لفظة الأذى على عمومها، بحيث تشمل قليل الشرِّ وكثيره، وسيأتي في المطلب التَّالي ما يؤيِّد هذا القول.

١ الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، أبو عبد الرحمن، صاحب العربية والعروض، أخذ عنه سيبويه والأصمعي والنضر بن شميل، قيل: لم يكن في العربية بعد الصحابة أذكى منه، له كتاب العين والجمل والعروض والشواهد، توفي سنة خمس وسبعين ومائة، وله أربع وسبعون سنة (بغية الوعاة: ١/٥٥٧-٥٦٠)

٢ العين (أذى): ١/٦٣.

٣ مقاييس اللغة: ١/٧٨.

٤ ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ١٢٥٨.

٥ قاله الخطَّابي، ونقله الزُّبيدي في معجمه: تاج العروس، ٣٧/٥٩.

٦ الرَّاغب الأصفهاني: هو أبو القاسم، الحسين بن محمد بن الفضل الأصبهاني أو الأصفهاني، من أذكى المتكلمين، ومن العلماء الحكماء، له تصانيف قيمة، منها: جامع التفسير، والمفردات في غريب القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة، وغيرها. توفي في حدود سنة (٤٠٠هـ) (سير أعلام النبلاء، الذهبي: ١٢٠/١٨، الأعلام: ٢/٢٥٥، مقدمة تحقيق المفردات، صفوان داودي: ٣٨)

٧ مفردات الراغب: ٧١.

٨ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية: ١/٥٥١.

٩ التحرير والتنوير: ٧/٢٠١.

المطلب الثاني

الدلالة الاستعمالية

أولاً: استعمال المفردتين في العصر الجاهلي

يَرِدُ دفع الأذى في الشَّعر الجاهلي غالباً في سياق الحديث عن القبيلة وحمائيتها والدُّود عن عرضها، إذ كان النِّظام في عصر الجاهلية يقوم على أساس العصبية القبلية، التي تعني قوَّة انتماء العربيِّ لقبيلته، فكان المُقْتَدِر على دفع الأذى عن القبيلة مؤهَّلاً للسَّيادة؛ لأنَّ دفاعه دليل على امتلاكه لإمكانات تجعله في موقع القوَّة التي يُحتمى بها، يقول عامر بن الطفيل العامري^١ (١١هـ):

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدٍ عَامِرٍ	وفارسها المشهور في كُلِّ مَوَكِبٍ
فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وَرَاثَةٍ	أَبَى اللَّهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبٍ
وَلَكِنِّي أَحْمِي جِمَاهَا وَأَتَّقِي	أَذَاهَا، وَأَرْمِي مَنْ رَمَاهَا بِمِنْكَبٍ ^٢

ومن جملة الأذى الذي كان يلحق القبائل آنذاك الاعتداء على المال أو العرض أو النِّيل من المكانة والشَّرَف، تقول الشُّموس^٣ -وقد هَتَكَ أحد الملوك الماجنين عرضها- تُحَرِّضُ قومها:

فَمُوتُوا كِرَامًا أَوْ أَمِيتُوا عَدُوَّكُمْ	وَدُبُّوا لِنَارِ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزَلِ
فَلَمَمْتُ خَيْرٌ مِنْ مُقَامٍ عَلَى أَدَى	وَلَمَمْتُ خَيْرٌ مِنْ مُقَامٍ عَلَى الدُّلِّ
فَبُعْدًا وَسُحْقًا لِلَّذِي لَيْسَ دَافِعًا	وَيَحْتَالُ يَمْشِي بَيْنَنَا مَشْيَةَ الْفَحْلِ

إذ كان أقوى ما يثير العربيَّ في الجاهلية شعورُ الهوان وقبولُ الضَّيم، كانوا ينكرونه أشدَّ النُّكير ولا يقبلونه، تهون عليهم نفوسهم في سبيل كرامتهم، وربَّما افتعلوا الحروب لاسترداد عزَّتهم

١ عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب، كان من شعراء الجاهلية وفرسانها، شاعر مشهور وفارس منكور، نال الرئاسة وتقدم على العرب وأطيع في السياسة وقاد الجيوش وقمع العدو، وأدرك الإسلام ولم يوفق للإسلام؛ وكانت وفاته سنة إحدى عشرة للهجرة. (ينظر: الوافي بالوفيات، الصفدي: ٣٣٠/١٦، والأعلام: ٢٥٢/٣)

٢ لباب الآداب، الثعالبي: ١٢٨.

٣ غفيرة بنت عباد، من بني جديس، شاعرة جاهلية، لها شعر في استتارة قومها على الملك الظالم الذي كان يحكمهم، فقاموا عليه وقتلوه. (ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٢٧١/١، والأعلام: ٢٣٩/٤)

وهيبتهم، وحتّى الحليم فيهم الذي يسعى لدفع الحرب قبل وقوعها، كان إذا وقعت لا يتوانى ولا يستسلم، يقول قيس بن الخطيم^١ (نحو ٢ق.هـ):

أَرَيْتُ بِدَفْعِ الْحَرْبِ حَتَّى رَأَيْتُهَا عَلَى الدَّفْعِ لَا تَزْدَادُ غَيْرَ تَقَارِبِ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْحَرْبَ شَبَّ أَوَارُهَا لِبَسْتُ مَعَ الْبُرْدَيْنِ ثَوْبَ الْمُحَارِبِ
وَكُنْتُ أَمْرًا لَا أَبْعَثُ الْحَرْبَ ظَالِمًا فَلَمَّا أَبَوَا أَشْعَلْتُهَا مِنْ كُلِّ جَانِبِ
وِغَالِبًا مَا يَكُونُ أَسْلُوبُ الدَّفْعِ عَنِيقًا وَمِبَالِغًا فِيهِ سِوَاءُ كَانَتْ دَرَجَةُ الْأَذَى يَسِيرَةً أَوْ كَبِيرَةً،

وقصة عمرو بن كلثوم مع عمرو بن هند مشهورة، وفيها أنشأ قصيدته المعلقة التي قال فيها:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
نُسَمَّى ظَالِمِينَ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنَّا سَنَبِدُ ظَالِمِينَا

هذا إن كانت جهة الإيذاء من خارج القبيلة، أمّا حين يقع الأذى بين أفراد القبيلة فإنّ العربيّ يفاخر بجلمه على القريب وتغاضيه عن أذاه أيّا كان حاله، وهذا معدود عندهم في خصال المروءة وممّا يُمليه نظام العصبية القبليّة، يقول شاعر:

وَلَا أَدْعُ ابْنَ الْعَمِّ يَمْشِي عَلَى شَفَا وَإِنْ بَلَغْتَنِي مِنْ أَذَاهِ الْجَنَادِ^٢
وَلَكِنْ أُوَاسِيهِ وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ لِنُزْجَعَهُ يَوْمًا إِلَيَّ الرَّوَاجِعُ
وَحَسْبُكَ مِنْ ذَلِكَ وَسُوءِ صَانِعَةٍ مُعَادَاةُ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ
ومن مظاهر العصبية القبليّة أيضًا أن تدفع القبيلة الأذى عن أيّ فرد منها سواء كان ظالمًا أو مظلومًا، وسواء كان مُحِقًّا أو مُخْطِئًا، ولذا عاتب قريط بن أنيف العنبري^٣ قومه لأنهم خذلوه حين استتصرهم لاسترداد إبله التي نهبت:

لَكِنْ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْرُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا^٤

١ قيس بن الخطيم بن عدي، شاعر الأوس وأحد فرسانها، قدم مكة فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، فآثر أن يفكر واستمهله عامًا، لكن المنية عاجلته قبل انتهاء الحول، ومات على كفره. (ينظر: خزانة الأدب: ٣٥/٧)

٢ الجنادع تستعمل في هوام الأرض، وتستعمل كناية عن ضروب المكاره وأنواع الأذى (شرح ديوان الحماسة، المرزوقي: ٢٩٢)

٣ قريط بن أنيف العنبري التميمي: شاعر جاهلي، في حياته غموض. انفرد "معمر بن المثنى" برواية الخبر المذكور عنه. (ينظر: الأعلام: ١٩٥/٥)

٤ ينظر: خزانة الأدب: ٤٤١/٧.

وذلك بعد أبيات امتدح فيها بني مازن لأنهم هبوا لثصرته دون أن يسألوا ويتبينوا الحق، فقال:

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَجِ إِيَّايَ بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهَلٍ بِنِ شَيْبَانَا
إِذَا لَقَامَ بِنَصْرِي مَعَشَرَ خُشْنٍ عِنْدَ الْحَفِيطَةِ إِنْ دُو لَوْثَةٍ لَنَا
قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبَدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوَحْدَانَا
لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا^١
ولا تقف العصبية حينذاك في حدود الدفاع عن أفراد القبيلة، بل تتجاوزها إلى رعاية جيرانها وأحلافها، فكان الشعراء يفاخرون فيما بينهم حمايتهم للجار وحفظهم لحقه، يقول زهير بن أبي سلمى^٢ (١٣ ق.هـ):

وَدَبِّي عَنْ مَآثِرِ صَالِحَاتٍ بِمَا لِي وَالْعَوَارِمِ مِنْ لِسَانِي
وَكَفِّي عَنْ أَذَى الْجِيرَانِ نَفْسِي وَإِعْلَانِي لِمَنْ يَبْغِي عِلَانِي^٣

وتظهر أهمية حسن الجوار عند العربي في الجاهلية بوضوح حين تكون سبباً في اشتعال حروب ضارية بين العرب كحرب البسوس، يقول جساس بن مرة^٤ (٨٥ ق.هـ):

وَأَرَى لِلْجَارِ حَقًّا كَيْمِينِي مِنْ شِمَالِي
إِنَّ لِلْجَارِ عَلِينَا دَفَعَ ضَامِمٍ بِالْعَوَالِي
مما يعني أنّ حقوق الولاء القبلي -التي تشمل أفراد القبيلة والجيران والأحلاف- تضمّ مستويين من القيم: الأول: الامتناع عن إيذاء القبيلة، والثاني منع الآخرين من إيذاء أفرادها.
ومن أقوال العرب قديماً في دفع الأذى، ادفع الشرّ عنك بعُود أو عمود، فقال بعضهم:

١ شرح ديوان الحماسة، التبريزي: ١٠/١-١١.

٢ زهير بن أبي سلمى، واسم أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني من مزينة، وهو أحد الشعراء الثلاثة الفحول المتقدمين على سائر الشعراء بالاتفاق، قيل: كان أحسنهم شعراً وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير في المعنى في قليل من المنطق وأشدّهم مبالغة في المدح وأكثرهم أمثالاً في شعره. توفي قبل المبعث بسنة، سنة تسع وستمئة ميلادية. (ينظر: خزنة الأدب، البغدادي: ٣٣٢/٢)

٣ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ثعلب: ٢٥٤-٢٥٥.

٤ جساس بن مرة: من أبطال بكر في الجاهلية وفتاكها، وهو قاتل كليب وائل سيد بني تغلب، ومسبب حرب وائل (البسوس) التي دامت أربعين سنة، وهو آخر من قتل فيها، وكانت وفاته نحو ٨٥ ق.هـ، ٥٣٥م (ينظر: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ابن سعيد المغربي: ٦٠٦-٦٠٧، والأعلام، خير الدين الزركلي: ١١٩/٢)

المعنى إذا أتاك سائلك فلا تردّه إلا بعطيّة قليلة أو كثيرة تقطع بها عنك لسانه فلا يذمّك وهو من دفع السيئة بالحسنة، وقال آخرون: بل المقصود ادفع الشرّ بما تقدر عليه على معنى المجاهدة الحسيّة^١.

يتلخّص ممّا سبق أنّ دفع الأذى في الاستعمال العربي جاء بعبارات متقاربة مثل كفّ الأذى، ودفع الضيم واتقاء الأذى، وأنّ الدّفع سيق على معنى الوقاية قبل الوقوع وعلى معنى الإزالة بعد الوقوع. أمّا الأذى فإنّه يتناول كافّة أشكال التّعدي على الحقوق والحُرّمات.

ثانيًا: استعمال المفردتين في القرآن الكريم

لابدّ في معرفة المعاني القرآنيّة المستعملة للمفردتين من خطوتين؛ الأولى: دراسة إحصائيّة وتاريخيّة لموارد المفردتين في القرآن الكريم. والثانية: الكشف عن المعاني السّياقية في كلّ موضع وردت فيه.

أ- إحصاء مواطن ورود المفردتين مع تحديد زمن نزولها

وردت مادة (دفع) في القرآن عشر مرات، جاء ثلاث منها مزيد بالالف (دافع) وذلك فيما يلي:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨/مدنية]

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧-٨/مكية]

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١-٢/مكية]

وجاءت بصيغة الفعل الماضي مرة واحدة اقترنت فيها بالضمير، وذلك في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦/مدنية].

وجاءت بصيغة المصدر مرتين في سياقين متشابهين:

﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١/مدنية]

١ ينظر: مجمع الأمثال، الميداني: ٢٦٧/١.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَلَكَمَتِ صَوْمِعُ وَيَعُ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠/مدنية].

بينما وردت في سائر المواضع الأخرى بفعل الأمر، مفردة في موضعين، ومقتزنة بضمير الجمع في الموضعين الآخرين:

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧/مدنية]

﴿وَابْنُلُوا لِلْيَمْنَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦/مدنية]

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦/مكية]

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤]

* أما مادة (أذى) فقد وردت في القرآن أربعاً وعشرين مرة؛ في اثنين وعشرين موضعاً:

فجاءت تسعاً منها بصيغة المصدر (أذى)، وذلك في المواضع الآتية:

﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦/مدنية]

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعِزُّوا لِنِسَاءٍ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢/مدنية]

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢/مدنية]

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣/مدنية]

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤/مدنية]

﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ أَلَا ذَبَارْتُمْ لَا يُضْرَبُونَ﴾ [آل عمران: ١١١/مدنية]

﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦/مدنية]

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾
[النساء: ١٠٢/مدنية]

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨/مدنية]

وجاءت بصيغة الماضي في ستة مواضع، أربعة منها بصيغة المبني للمجهول:

﴿قَالِ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ [آل عمران: ١٩٥/مدنية]

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَنْهَضْنَاهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٤/مكية]

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩/مكية]

﴿وَلَنْصَبِرَكَ عَلَى مَا أَذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢/مكية]

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠/السورة
مكية والآية مدنية]

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾
[الأحزاب: ٦٩/مدنية]

وجاءت بصيغة فعل الأمر في موطن واحد في سورة النساء:

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ [النساء: ١٦/مدنية]

وجاءت بصيغة الفعل المضارع (يؤذون / /، يؤذي، تؤذوا، يؤذين، تؤذونني) ثماني مرات
في ستة مواضع:

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١/مدنية]

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَبْطِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا
دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعْجِلُ مِنْكُمْ

وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ [الأحزاب: ٥٣/مدنية]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧/مدنية]

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨/مدنية]

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩/مدنية]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥/مكية]

ومما يلاحظ على الإحصاء السابق:

- وردت مادة (دفع) بصيغة المفاعلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]؛ لغرض المبالغة أو للدلالة على تكرار الدَّفْع.

- وردت مادة (دفع) في موضعي البقرة والحج بصيغة المصدر؛ لأنَّ السياق يتحدث عن سنة من سنن الله تعالى العامة في الكون، فجاء بالجملة الاسمية لأنها أدلُّ على الدوام والاستمرار.

- استُعمل الدَّفْع في القرآن المدني سبع مرات ارتبطت بجانب التشريع سواء أكانت ردَّ مال، أو كفَّ أذى. في مقابل تكرُّرها أربع مرَّات في القرآن المكي، مرَّتين في سياق الحديث عن يوم القيامة ومرَّتين في سياق الإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة، أي إنَّها وردت ضمن سياقات منسجمة مع طبيعة كلِّ مرحلة وخصائصها.

- في آيات الأذى إيماءً إلى أنواع الإيذاء التي تحملها الأنبياء والمؤمنون من البُهتان والإهانة والإخراج من الديار والقتل وإثارة الفتن وغيرها^١.

١ المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٤٢/٢.

- كثرة تكرار ورود مادة (أذى) في سورة الأحزاب مؤشّر على بيئة نزول السّورة، إذ اجتمع في ذلك الحين إيذاء المشركين بتحزّبهم ونهوضهم للقضاء على الدّولة الإسلامية، وإيذاء أهل الكتاب بنقضهم العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم، وإيذاء المنافقين بتخلّفهم وبئّهم للفتن، بالإضافة إلى وقوع أخطاء من المؤمنين في حقّ النبي صلى الله عليه وسلم تسوؤه.

- عرضت بعض الآيات المتضمنة لمادة (أذى) موقفين متناقضين تجاه ظاهرة الأذى، الأول: موقف خُلص المؤمنين الذين يستقبلون الأذى بالصّبر ويعالجونه بالتوكّل على الله تعالى والوقوف في وجوه الأعداء. والثاني: موقف ضعاف الإيمان الذين يتذمّرون ويضعفون عن مقاومته وربّما تنازلوا عن مبادئهم.

ب- الدلالات السّياقية للمفردتين

يهدف البحث السّياقي لكلا المفردتين إلى معرفة وجوه استعمال القرآن لهما ومقارنتها مع استعمال العرب، ومعرفة فيما إذا كانت المعاني السّياقية تختلف أو تضيف شيئاً إلى المعاني المعجمية، وسيتمّ ترتيب الآيات في هذه الفقرة بحسب تاريخ النزول ما أمكن.

١- دلالات مفردة الدفع في القرآن الكريم

- دفع العذاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿[الطور: ٧-٨] وقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿[المعارج: ١-٢] أي إنّ العذاب سيقع لا محالة، فلا أحد يستطيع منعه وقوعه أو حماية نفسه من الوقوع فيه، ولا أحد يستطيع رده أو رفعه بعد الوقوع^١.

- دفع السيّئة بالحسنة: وهو قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] والدّف هنا يدلّ على معنى الرّدّ بعد الوقوع، فإذا بادرك أحدهم بإساءة فقابل إساءته بما أمكن من الإحسان، ودكر في المراد من السيّئة والحسنة أقوال عديدة^٢، تعدّ بمثابة أمثلة لما تحتمله المفردتان من المعاني، ويبقى الأولى إبقاؤهما على عمومها.

١ ينظر: بحر العلوم (تفسير السمرقندي)، السمرقندي: ٢٨٣/٣، الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، الثعلبي: ١٢٦/٩، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب: ٧١١٧/١١ و ٧٦٩٨/١٢، مدارك التنزيل وحقائق التّأويل (تفسير النسفي)، النسفي: ١٢٥٧/٤، و ١٢٥٩/٤.

٢ من الأقوال الواردة في معنى الكلمتين: ادفع الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله، ادفع الإساءة بالإغضاء والصفح، ادفع المنكر بالموعظة الحسنة، ادفع سيئتك بالحسنة بعدها، ادفع الفحش بالسّلام.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤] غير أنَّ هذه الآية خُتِمت بذكر الفائدة الحاصلة من الإحسان إلى المسيء أنَّ عداوته تتقلب سلماً، فيسود التآخي والتوادد بين أفراد المجتمع.

وهاتان الآيتان مكيَّتان نزلتا تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقيه وأصحابه من أذى المشركين في مكة، قال ابن عطية^١ (٥٤٢هـ): "الآية أمر بالصَّفح ومكارم الأخلاق وما كان منها، لهذا فهو حكمٌ باقٍ في الأمة أبداً، وما كان فيها من معنى موادة الكفار فممنسوخ بالقتال"^٢.

- دفع العدوِّ والدِّفاع عن الحقِّ وأهله، وذلك في أربعة مواضع: الأول قوله تعالى: ﴿إِن رَّكَبَ اللَّهُ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] جاءت بصيغة المفاعلة ولا يراد بها وقوع الفعل من الجانبين، وإنما سيقَّت بغرض المبالغة أو للدلالة على تكرار الدِّفع، فالمقصود من المدافعة هنا الحفاظ والنصرة أي إنَّ الله "يبالغ في دفع كيد الكافرين وضررهم عن المسلمين، فيمنعه عنهم مرّة بعد مرّة حسبما تجدد من الكافرين قصد الإضرار بالمسلمين"^٣، بشارة من الله تعالى لعباده المؤمنين المستضعفين في مكة أنَّه ناصرهم^٤.

وقد تلت هذه الآية آيات تبين صفة المؤهلين لنيل نصره الله تعالى وحفظه، قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفُتِنَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]

تضمَّنت هذه الآية تحريض المؤمنين على القتال بذكر ما يؤول إليه الحال إذا ترك الجهاد وتقاوس المؤمنون عن كفِّ الظلم ونصرة الدِّين، فإنَّ المشركين وأعداء الدِّين وأهل الباطل سيغلبون ويستولون على أهل الملل ويهدمون متعبداًاتهم، وسياق الآيات وما نزلت لأجله يدلُّ على أنَّ المدفوع قد وقع وهو ظلم مشركي أهل مكة لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإيذاؤهم من أجل فتنهم

١ ابن عطية هو عبد الحق بن غالب بن عبد الملك ابن عطية، أبو محمد الغرناطي القاضي، كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير، بصيراً بلسان العرب، قال أبو حيان: هو أجلُّ من صنَّف في علم التفسير (طبقات المفسرين: ١٧٥-١٧٧).

٢ المحرر الوجيز: ١٥٥/٤.

٣ تفسير أبي السعود: ١٠٨/٦.

٤ ينظر: تفسير الطبري: ٥٧١/١٦، الكشف، الزمخشري: ١٩٨/٤.

عن دينهم حتى اضطروهم للخروج، فخرجوا من ديار الكفر مهاجرين ليستجمعوا قوتهم ويعودوا إلى بلادهم فاتحين، ونزلت هذه الآيات تُعِدُّ المؤمنين بالنصر مشروطاً بتحري أسبابه.

وفي أوائل العهد المدني نزلت سورة البقرة، تفصّل في تشريعات الجهاد وتهيب بالمؤمنين أن يستعدّوا لمواجهة عدوّهم، مؤكّدة حقّهم في المدافعة وردّ العدوان، ثمّ ضربت لهم مثلاً من بني إسرائيل؛ كان قوم منهم نالتهم ذلّة وغلبة عدو، فطلبوا الإذن في الجهاد وأن يؤمّروا به، فلمّا أمّروا جبّن أكثرهم وصبر الأقلّ فنصرهم الله تعالى^١، والمقصود من القصّة ألاّ يُقدّم المأمورون بالقتال من أمة النبي محمّد صلى الله عليه وسلم على المخالفة، وأن يكونوا مستمرّين في القتال مع أعداء الله تعالى^٢.

ثم خُتِمت القصّة ببيان الحكمة المستفادة من الأمر بالقتال في آيات سابقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] فلولا أنّ الله يدفع الفجار والكفار بالمؤمنين الأبرار لفسدت الأرض بغلبة الكفار وقتل الأبرار وتخريب البلاد وتعذيب العباد، ودفع المؤمنين الكفار يكون بالجدال أو الجلاء، أي بالحجّة أو القتال، ولولا ذلك لتسألب الناس وتناهبوا وهلكوا^٣.

وهكذا فإنّ جميع الآيات السابقة استعملت مفردة الدفع في مخاطبة المشركين المعاندين، فبيّنت السور المكّيّة أنّهم لا يملكون إبعاد العذاب عنهم يوم القيامة، ومنذ أن أُذِنَ للمؤمنين بالهجرة فُتِحَ لهم باب مدافعة المشركين بكلّ الوسائل لكيلا تكون غلبة المشركين سبباً في فساد الأرض وضياع الدين.

ثم استعملت مفردة الدفع في مخاطبة المنافقين في العهد المدني إذ كانت نفوسهم قد تطبّعت على التخاذل والهوان، فجاءت آية آل عمران تستنهض همّتهم في الدّفاع عن حرمتهم على الأقلّ إن لم تنهض للقتال في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنقُتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]

١ ينظر: المحرر الوجيز: ٣٣٠/١.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ٥٠٢/٦.

٣ ينظر: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، القرطبي: ٢٥٣/٤، تفسير النسفي: ٢٠٧/١.

المقصود بالآية عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق وأصحابه الذين رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه، حين ساروا إلى المشركين بأحد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا! فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، ولكننا معكم عليهم، ولكن لا نرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتال^١. وقيل معناه "رابطوا على الخيول إن لم تقاتلوا"^٢، وهذا قريب من الأول، ولا محالة أن المُرابط مدافع؛ لأنه لولا مكان المُرابطين في الثغور لجاءها العدو، والمكثّر للسواد مدافع^٣، وقيل: المعنى إن لم تقاتلوا في سبيل الله فقاتلوا حمية دفاعاً عن أنفسكم وحريمكم^٤.

٤ - الدَّفْع بمعنى الإِيعاء^٥: استعمل هذا المعنى في العهد المدني في آية واحدة فقط مرتين ضمن سياق تشريعي حول أموال اليتامى. وذلك قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦] نزلت في ثابت بن رفاعه وعمه، ذلك أن عمَّ ثابت -وثابت يومئذ يتيم في حجره- أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله إنَّ ابنَ أخي يتيم في حجري، فما يحلُّ لي من ماله؟ ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى الآية^٦. فالآية تخاطب أوصياء اليتامى وولاءة أموالهم من أجل أن يُسلموا إلى يتاماهم أموالهم من غير تأخير إذا وجدوا فيهم رشداً بعد أن يختبروا أفهامهم وعقولهم وإصلاحهم أموالهم ومعرفتهم بالتصرف.

يُلاحظ أنَّ الاستعمال القرآني لمفردة الدَّفْع لم يخرج عن إطار المعنى اللُّغوي المحوري الملاحظ فيه عنصر الإبعاد بالنسبة إلى جانب معين، وهذا المعنى موجود في جميع السياقات؛ دفع العذاب ودفع العدو ودفع السيئة ودفع المال إلى أصحابه.

١ تفسير الطبري: ٢٢١/٦.

٢ النكت والعيون (تفسير الماوردي)، الماوردي: ٤٣٥/١.

٣ المحرر الوجيز: ٥٣٩/١.

٤ تفسير القرطبي: ٤٠٥/٥.

٥ لعل هذا المعنى يعود إلى الأسباب الإسلامية كما اصطلاح عليه ابن فارس، فقد ذكر الجوهري -دون من قبله- مجيء الدفع بمعنى الإيتاء والإيعاء ثم تابعه من بعده. (ينظر: المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٧٧٠/١٩)

٦ ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٥٨/١، تفسير الماوردي: ٤٥٤/١، معالم التنزيل (تفسير البغوي)، البغوي: ١٦٥/٢.

٢- دلالات مفردة الأذى في القرآن الكريم

سيتمُّ تصنيف الآيات في هذه الفقرة بحسب مصدر الأذى، فقد أخبر القرآن عن أذى يصيب الإنسان لا يد له أو لغيره فيه، كما أخبر عن أذى يقع على الإنسان من جهة نفسه أو من جهة صديقه أو عدوه.

وسيراعي البحث -تحت هذا التصنيف- ملاحظة المرحلة الزمنية لظهور المفردة وتطوُّر دلالتها.

ومع أنَّ البحث معنيٌّ بدراسة الأذى الواقع من جهة أعداء المؤمنين، لكنَّه سيتناول بالدَّرس سياقات المفردة جميعها ليتبيَّن ما تحتمله المفردة نفسها من أبعاد ودلالات، وما يحيط بها من أوصاف محدَّدة لمفهومها.

- الأذى الاضطراري

جاء له في القرآن ثلاث صور؛ وكلُّها وردت في القرآن المدني في سياق التشريع، وهي أذى القمل^١، وأذى المحيض^٢، وأذى المطر^٣، والأذى في المواضع الثلاث مُضِرٌّ بالإنسان، أو مُوقِع له في المشقَّة والحرج، ومن ثَمَّ اقترنت به تكاليف شرعية موجبة لإزالته تارة أو مبيحة تارة أخرى بحسب درجة الأذى ومدى إضراره بالمكلف.

- إيذاء غير المؤمنين للأنبياء وأتباعهم

تدلُّ السِّياقات القرآنية الموردة لمفردة الأذى أنَّ إيذاء غير المؤمنين لم يكن يقف عند حدٍّ معيَّن، فكانوا يبدؤون بالإهانات القولية ثُمَّ يتجاوزونها إلى الاعتداءات الجسدية، كالرَّجم والضَّرب والإخراج والقتل، وقد كان الوحي يُركِّز -من خلال القصص والمواعظ والتوجيهات- على أهميَّة ضبط النفوس المؤمنة تجاه ما تتعرَّض له من الأذى وخاصَّة إذا كانت حدود الأذى لا تتعدَّى المستوى القولي كالإهانة والتكذيب وإنكار دعوة الأنبياء والتعرُّض لهم ولأتباعهم المؤمنين بالسُّخرية والاستهزاء؛ وذلك تعويذًا لها على الصَّبر والنَّجْد، وصيانة لها من الفتك إبان العهد المكي. وفيما يأتي موارد المفردة في القرآن بحسب ترتيب نزول السور:

١ البقرة: ١٩٦.

٢ البقرة: ٢٢٢.

٣ النساء: ١٠٢.

- ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿[الأعراف: ١٢٩]

أول ما تَرَدُّ المفردة في العهد المكي في سورة الأعراف على لسان قوم موسى عليه السلام الذين اضطهدوا من فرعون وملئه، فأوذوا قبل مجيء موسى بالرسالة استهانة بهم واستضعافاً، ثم أُوذوا بعد اتِّباعهم رسالة موسى عليه السلام بسبب إيمانهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالصبر والاستعانة بالله تعالى، ووعدهم بزوال المضار، مبيناً لهم أن الله تعالى سينجز لهم ذلك الوعد في الوقت الذي قدره له.

وفي معنى الأذى الوارد في الآية أقوال: فليل هو أخذ الجزية. وقيل: ذبح الأبناء، ثم إدراك فرعون يوم طلبهم. وقيل: تكليف فرعون إياهم ما لا يطيقون^١.

فالإيذاء الأول إذن لم يكن بدافع اختلاف الدين، وإنما كان بسبب تسلط فرعون على المستضعفين وظلمه في الحكم. أمّا الإيذاء الثاني فكان بسبب اتِّباع بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وقد أخبر القرآن في الآيات السابقة عن صنوف الأذى التي توعد بها فرعون مؤمني بني إسرائيل: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِبَنَّكُمْ أَصْعَابَكُمْ﴾ ﴿[الأعراف: ١٢٤]﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُسُ قَوْمَهُمْ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْلِبُ أَبْنَاءَهُمْ وَأَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿[الأعراف: ١٢٧]﴾، ولما أزمع فرعون وملؤه على إيذاء بني إسرائيل في أرواحهم أمر موسى عليه السلام أن يسري بهم ليلاً لكي يَسْلَمُوا من بطش فرعون بهم.

- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّي الْمُرْسَلِينَ ﴿[الأنعام: ٣٣-٣٤]﴾.

جاءت سورة الأنعام حافلة بمجادلة المشركين وإقامة الحجج عليهم، ثم التنديد بعنادهم وجحودهم، وفيها اتَّجه الخطاب القرآني إلى النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة تُسَلِّيهِ وتُثَبِّتُهُ، إذ كان يحزنه تكذيب قومه له وتؤثر فيه شدة إعراضهم، فطمأنه القرآن أن تكذيبهم له إنما بسبب

١ ينظر: زاد المسير: ٣/٢٤٥-٢٤٦.

الوحي وليس طعنًا في صدقه، فالقوم - على هذا - مكذبون لجميع الأنبياء والرسل، ولهذا جاءت الآية بعدها ترشده إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل في الصبر على ما أصابهم من أمهم من فنون الأذية، وتعهده ضمناً بمثل ما منحوه من النصر^١.

- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢]

من خصائص القرآن المكي تأكيد مراراً أنَّ شأن المستكبرين عدم الاعتراف بالنبؤات السماوية، إمَّا كافرين بها أو مرتابين في صحتها، وأنه على الرسل ألا يفترخوا عن تبليغ دعوتهم والصبر على ما ينالهم فيها من أذى التَّكذيب.

- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٠]

سورة العنكبوت من أواخر السور المكية، افتتحت بالحديث عن سنة الابتلاء والفتنة، ومجاهدة النفوس قبلها، من أجل تثبيت المؤمنين الذين ما فتئ مشركو مكة يضدُّونهم عن الإسلام، فالإيمان ليس كلمة نقال، وإنما يمتحن الله تعالى المؤمنين بضروب المحن وأنواع المصائب في الأموال والأنفس من قبل الكفار حتَّى يبلو صفة عقيدتهم وجهادهم وصبرهم على الأذى، فيتميز المخلص من غير المخلص والرأسخ في الدين من المضطرب والتمكّن من العابد على حرف^٢.

وقد بلغ إيذاء المشركين للمؤمنين في مكة بأن أذاقوهم أشدَّ أنواع العذاب حتَّى ألجؤوهم إلى الخروج من ديارهم خوفاً على نفوسهم وحرصاً على عقيدتهم، وبقي فريق من ضعاف الإيمان - نزلت فيهم الآية - لم يصبروا على أذى الكافرين وفتنتهم، وجعلوا مشقة احتمالها مع ضعفها وانقطاعها مساوية لشدة عذاب الله الأليم الدائم، فتردّدوا بين الأمرين واختاروا الاحتراز عن التأذي العاجل، وأظهروا المعية للكافرين، حتَّى إذا رأوا النصر للمؤمنين المخلصين ادَّعوا تبعيتهم لهم لمشاركتهم المغنم^٣.

١ ينظر: تفسير أبي السعود: ١٢٧/٣.

٢ ينظر: الكشف: ٥٣٩/٤.

٣ ينظر: تفسير الرازي: ٣٤/٢٥.

- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَدَّ بَارِئُكُمْ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠-١١١]

في العهد المدني ظهرت جهات أخرى معادية للدين الإسلامي، تحيك للمؤمنين المكائد وتترصد لهم الأذى، وهم أهل الكتاب والمنافقون، وتُعدُّ سورة آل عمران من أوائل السُّور المدنيات التي عالجت بعض مظاهر إيذاء أهل الكتاب، بالحجة والبرهان حيناً، والإنذار والموعظة حيناً آخر، ثم التفتت تُثَبِّت المؤمنين على ما هم عليه من الاتِّفاق على الحقِّ والدَّعوة إلى الخير، وتُطْمَئِنُّهُمْ أَنْ لَنْ يَنَالَهُمْ مِنْ جِهَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ضَرَرٌ فِي الْأَبْدَانِ وَلَا فِي الْأَمْوَالِ^١، وأنَّهم منصورون على الكافرين ما استقاموا على دينهم عقيدة وسلوكاً.

وأصل الضَّرَرِ يدلُّ على معنى النَّقْصِ^٢، وأكثر ما يكون في إيلاء الجسم وما يتبعه من الحواس، والأذى أعمُّ؛ لأنَّه إيلاء النَّفْسِ وما يتبعه من الأحوال^٣، فيقع على المكروه اليسير وعلى الضَّرَرِ الكبير، لما يؤول إليه النَّقْصُ من ألم في النَّفْسِ.

- ﴿تَتَّبَلُّوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْمَعْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

تناولت سورة آل عمران في جزء آخر منها أحداث غزوة أحد والدُّروس المستفادة، وخُتم الحديث عن الغزوة بالتأكيد على سنَّة الله تعالى في ابتلاء المؤمنين لتمييز المُخلصين ممَّن سواهم ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ثم ذُكرت الآيات التالية جانباً من مظاهر هذا الابتلاء، من ذلك: تكذيب اليهود لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وتسلُّط المشركين واليهود على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بشتَّى صنوف الأذى القولي كإثارة الشُّبهات حول الدين الإسلامي والطَّعن بالنبي صلى الله عليه وسلم والصدِّ عن سبيل

١ ينظر: المحرر الوجيز: ٤٩٠/١.

٢ ينظر: العين: ١٣/٣.

٣ ينظر: نظم الدرر، البقاعي: ٢٧/٥.

الله وتخطئة من آمن^١.

- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ مَنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَأَلْزَمَ
هَاجِرُوا وَأَخْرِجُوا مَن دِيرِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تُدْخِلَتْهُمْ جَنَّتِ
تَجْرَى مَن تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]

تكررت المفردة في أواخر سورة آل عمران مرّة ثالثة في معرض الثناء على المهاجرين
الصّابرين الذين تحمّلوا في سبيل الدّعوة أشدّ أنواع الأذى ولم يقصدوا في دعائهم وسؤالهم أحداً إلا
الله، فهؤلاء ومن سلك مسلكهم جديرون بإجابة دعائهم ونيلهم أحسن الثواب وأعلى الدّرجات من الله
جلّ جلاله.

وقد بدأ في هذه الآية بالخاصّ وهي الهجرة وكانت تُطلق على الهجرة إلى المدينة، وثنى بما
ينشأ عنه ما هو أعمّ وهو الإخراج من الدّيار، فقد يخرج المؤمن من الدّيار ولا يهاجر إلى المدينة،
وأتى ثالثاً بذكر الأذى وهو أعمّ؛ يتناول كل أذية نالهم من قبل المشركين^٢.

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨]

نزلت سورة الأحزاب في المنافقين وإيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعنهم فيه^٣، وقد
تكرّر ذكر مفردة (الأذى) في السّورة -باشتقاقات مختلفة- سبع مرات، وردت في هذا الموضع
بغرض بيان طريقة التّعامل مع إيذاء المنافقين والكافرين، وذلك قوله تعالى (وَدَعْ أَذَاهُمْ) وهذا الأمر
محتمل لأن يكون المراد منه لا تؤذيهم بضرر أو قتل وخدّ بظواهرهم وحسابهم على الله تعالى،
ويُحتمل أن يكون المراد أعرض عن إيذائهم لك وطعنهم فيه ولا تجازهم عليه حتى تؤمر^٤.

ولمّا كان ترك المؤذي والإعراض عنه أمراً في غاية المشقّة أنبّغ به بذكر الدّواء بأن يتوكّل

١ ينظر: الكشاف: ٦٧١/١.

٢ ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: ١٥٢/٣، تفسير أبي السعود: ١٣٤/٢.

٣ تفسير القرطبي: ٤٨/١٧.

٤ ينظر: الكشاف: ٧٩/٥.

على الله تعالى، والله يكفيه أمرهم وكيدهم^١.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]

الأذى في حق الله تعالى لا يتصور؛ فليس معنى إذايته أنه يضره الأذى -جلّ جلاله-؛ لأنّ الله تعالى لا يضره شيء ولا ينفعه شيء، وإنما جاء التعبير على سبيل المجاز^٢، واختلفوا في المقصود بإيذاء الله تعالى على وجوه^٣: منها الكفر والمعاصي، أو الإلحاد في أسمائه وصفاته، وقيل: هو الأقوال الخاطئة لليهود والنصارى والمشرّكين في ذات الله تعالى. وجاء في الخبر (قال الله عزّ وجلّ: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بيدي الأمر، أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)^٤، وقيل "الآية على حذف مضاف تقديره: يؤذون أولياء الله"^٥.

وأما إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم فحقيقته صحيحة فيه، لكنّه يُحمل على المجاز؛ لئلاّ تُجعل العبارة الواحدة معطية معنى المجاز والحقيقة^٦، وإذاية الرسول صلى الله عليه وسلم هي كل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال^٧؛ فمن إيذائه بالقول: قولهم فيه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ومثل طعنهم عليه في نكاحه صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها. ومن إيذائه بالفعل كسر رباعيته وشجّ وجهه يوم أُحُد، وإلقاء السّلى على ظهره وهو ساجد بمكة^٨. وقيل: يدخل فيه أيضًا ترك سنّته ومخالفة شريعته^٩، وقيل بأنّ المقصود بإيذاء الله ورسوله عصيان أوامرهما^{١٠}. ثمّ توعّد الله تعالى في ختام الآية الذين يؤذونه ورسوله بعقوبة مؤلمة؛ وهي اللّعة في الدنيا والآخرة، والعذاب

١ ينظر: نظم الدرر: ٣٧٤/١٥

٢ أن تكون على حذف مضاف (أولياء)، أو أنه يعبر بإيذائهما عن فعل ما يكرهانه ولا يرضيانه. ينظر: أحكام القرآن، الجصاص: ٢٤٤/٥، الكشف: ٩٦/٥، التسهيل لعلوم التنزيل (تفسير ابن جزّي)، ابن جزّي: ١٩٦/٢، البحر المحيط: ٢٣٩/٧.

٣ ينظر: تفسير الطبري: ١٧٨/١٩، أحكام القرآن، الجصاص: الموضع نفسه، تفسير الماوردي: ٤٢٢/٤، تفسير البغوي: ٣٧٥/٦، الكشف: ٩٧/٥، المحرر الوجيز: ٣٩٨/٤.

٤ أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة حم الجاثية، رقم ٤٨٢٦، ٢٩١/٣، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم ٢٢٤٦، ١٠٦٩/٢.

٥ المحرر الوجيز: ٣٩٨/٤.

٦ ينظر: الكشف: ٩٦/٥.

٧ المحرر الوجيز: ٣٩٨/٤.

٨ ينظر: تفسير مقاتل: ٥٠٦/٣، تفسير الطبري: ١٧٩/١٩، الكشف: ٩٧/٥، تفسير القرطبي: ٢٢٣/١٧.

٩ ينظر: تفسير الثعلبي: ٦٣/٨.

١٠ ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٢٨.

المهين في الآخرة. "واللّٰعَنَ أَشَدَّ المَحْذُورَاتِ؛ لِأَنَّ البُعْدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُرْجَىٰ مَعَهُ خَيْرٌ، بِخِلَافِ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ وَغَيْرِهِ... وَقَوْلُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِشَارَةٌ إِلَى بُعْدٍ لَا رَجَاءَ لِلْقُرْبِ مَعَهُ؛ لِأَنَّ الْمُبْعَدَ فِي الدُّنْيَا يَرْجُو الْقُرْبَةَ فِي الْآخِرَةِ، فَإِذَا أُبْعِدَ فِي الْآخِرَةِ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ"¹. وقيل: اللّٰعْنَةُ فِي الدُّنْيَا الْقَتْلُ، وَفِي الْآخِرَةِ التَّعْذِيبُ بِالنَّارِ².

- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

[الأحزاب: ٥٨]

إذاية المؤمنين والمؤمنات تشمل الأفعال والأقوال القبيحة، وإن كان السِّياق يُرْجِحُ الْأَذَى الْقَوْلِي، وَلِأَنَّ الْبُهْتَانَ هُوَ الزُّورُ، وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْقَوْلِ، وَأَتَّبَعَ بِقَوْلِهِ "إِثْمًا مُّبِينًا" لِيَعْمَ كَافَّةَ أَنْوَاعِ الْأَذَى³. وَكَانَ مُجَاهِدٌ يُوجِّهُ مَعْنَى قَوْلِهِ (يُؤْذُونَ) إِلَى يَقْفُونَ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ: وَالَّذِينَ يَقْفُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَيُعَيِّبُونَهُمْ طَلَبًا لَشَيْنِهِمْ⁴.

وَقَدْ سُبِقَتْ الْآيَةُ بِآيَةِ الْوَعِيدِ عَلَى مَنْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَأُلْحِقَتْ حُرْمَةُ إِذْيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِحُرْمَةِ إِذْيَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ إِظْهَارًا لَشَرَفِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَتَنْوِيهًا بِشَأْنِهِمْ، "وَعُطِفَ الْمُؤْمِنَاتُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ لِلتَّصْرِيحِ بِمَسَاوَاةِ الْحُكْمِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مَعْلُومًا مِنَ الشَّرِيعَةِ، لَوْزَعُ الْمُؤْذِينَ عَنْ أَذَى الْمُؤْمِنَاتِ؛ لِأَنَّهُنَّ جَانِبٌ ضَعِيفٌ بِخِلَافِ الرِّجَالِ، فَقَدْ يَزْعِمُهُمْ عَنْهُمْ انْتِقَاءُ غَضَبِهِمْ وَثَأْرُهُمْ لَأَنْفُسِهِمْ"⁵. وَمِنْهُ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَنْبِرَ، فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ مَنْ قَدْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفِضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُغَيِّرُوهُمْ وَلَا تُتَبَّعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ)⁶.

١ تفسير الرازي: ٢٥/٢٢٩.

٢ ينظر: تفسير الماوردي: ٤/٤٢٣.

٣ ينظر: المحرر الوجيز: ٤/٣٩٨، وتفسير الرازي: ٢٥/٢٣٠-٢٣١.

٤ ينظر: تفسير الطبري: ١٩/١٧٩-١٨٠.

٥ التحرير والتنوير: ٢٢/١٠٥.

٦ أخرجه الترمذي في الجامع الكبير، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، رقم ٢٠٣٢: ٥٥٤/٣. وقال هذا حديث حسن غريب.

وَأُتْلِقَ إِذَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقَيَّدَ إِذَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِقَوْلِهِ "بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا"؛ لِأَنَّ إِذَاءَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِغَيْرِ حَقٍّ أَبَدًا، وَأَمَّا إِذَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْهُ وَمِنْهُ^١.

فَقَوْلُهُ (بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) أَيُّ بِغَيْرِ جُنَايَةٍ وَاسْتِحْقَاقٍ لِلْأَذَى، يَرْمُونَهُمْ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ. وَهَذَا الْقَيِّدُ احْتِرَازٌ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ عَنَفٍ زَائِدٍ، فَمَنْ أَقَامَ الْحَدَّ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ لَمْ يُؤْذِ أَصْلًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إِصْلَاحُ حَالِ الْمَضْرُوبِ^٢.

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي السُّورَةِ إِذَاءَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ، حَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْإِذَاءِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّشَبُّهِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي أَذْيَتِهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^٣.

وَاخْتَلَفُوا فِيمَا أُوذِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَقْوَالٍ^٤، كَمَا اخْتَلَفُوا فِي الْمَرَادِ مِنْ أَذْيَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^٥، وَتَعَوَّدَ جَمِيعُهَا إِلَى مَطَاعِنِ قَوْلِيَّةِ نَسْبِهَا إِلَيْهَا وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهُ مِنْ وَضْعِ مَا قَالُوا. قَالَ الرَّازِيُّ^٦ (٦٠٦هـ): "وَبِالْجُمْلَةِ الْإِذَاءُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ كَافٍ وَهُوَ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤] وَقَوْلُهُمْ ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وَقَوْلُهُمْ ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] وَقَوْلُهُمْ ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا هُمْ ءِلَٰهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. فَبَرَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ أَخْرَجَهُ عَنْ عَهْدَةٍ مَا طَلَبُوا بِإِعْطَائِهِ الْبَعْضَ إِيَّاهُمْ، وَإِظْهَارَهُ عَدَمَ جَوَازِ الْبَعْضِ، وَبِالْجُمْلَةِ قَطَعَ اللَّهُ حُجَّتَهُمْ ثُمَّ ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ^٧.

١ الكشاف: ٩٧/٥.

٢ ينظر: الكشاف: الموضع نفسه، إصلاح الوجوه والنظائر: ٢٨، زاد المسير: ٤٢١/٦، تفسير الرازي: ٢٣٠/٢٥.

٣ تفسير القرطبي: ٢٤٠/١٧.

٤ تفسير الماوردي: ٤٢٦/٤، تفسير القرطبي: الموضع نفسه، البحر المحيط: ٢٤٢/٧.

٥ ينظر: تفسير الطبري ١٩٠/١٩، تفسير الثعلبي: ٦٦-٦٧/٨، تفسير الماوردي: ٤٢٧/٤، الكشاف: ١٠١/٥، زاد المسير: ٤٢٥-٤٢٦، تفسير الرازي: ٢٣٤/٢٥، تفسير القرطبي: ٢٤٠-٢٤١/١٧.

٦ الرازي هو أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين البكري التيمي الطبرستاني الأصل، الرازي، ابن خطيب الري الشافعي: المفسر المتكلم، صاحب التصانيف، من مصنفاته: التفسير الكبير الذي سماه مفاتيح الغيب، وله نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز وغيرهما، توفي يوم الفطر سنة ٦٠٦هـ. (ينظر: طبقات المفسرين: ٢١٣-٢١٤)

٧ تفسير الرازي: الموضع نفسه.

ونظير معنى الأذى في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُونَ لَكُمْ لَكُمْ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] ذهب المفسرون إلى أن الأذى المراد هنا هو عين الأذى الذي أخبر الله تعالى عنه في آية الأحزاب، وزاد بعضهم أنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى قولاً وفعلاً، مثل تكذيبه، وانتقاصه في نفسه، وجحود آيات الله وعصيانه، وعبادتهم البقر، واقتراحاته عليهم ما ليس لهم اقتراحه^١.

- ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]

سورة التوبة من أواخر السور نزولاً، وقد استغرق الحديث عن المنافقين أكثر من نصفها، تفضحهم وتفضح أفاعيلهم في المجتمع المسلم، وتصف أحوالهم النفسية والعملية، وتكشف نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد، ومظاهر إيذائهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين^٢.

ولفظ الأذى في الآية هنا يعم جميع ما كان يفعله المنافقون ويقولونه في جهة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى، وخُصَّ بعد ذلك من قولهم (هو أذن)^٣، والأذن هو الرجل يُصدِّق كلَّ ما يسمع، ويقبل قول كلِّ أحد، فكأنهم تنقَّصوا بقلَّة الحزامة والانخداع. فردَّ الله تعالى ما زعموه، وفسَّر ما قالوه بأنه أذن في الخير والحق، وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك؛ فهو يُصدِّق بالله، ويقبل من المؤمنين الخُلص من المهاجرين والأنصار ما يخبرونه، وهو رحمة لمن أظهر إيمانه من المنافقين؛ فقَبِلَ إيمانهم، ولم يكشف أسرارهم ولم يفضحهم مراعاة لما رأى الله تعالى من مصلحة في الإبقاء عليهم^٤، ثم توعَّد الله تعالى أولئك الذين يعيبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمثالهم من مكذَّبيه، وأهل الباطل بعذاب موجه لهم في نار جهنم^٥.

١ ينظر: تفسير مقاتل: ٣١٥/٤، تفسير الثعلبي: ٣٠٣/٩، الكشاف: ١٠٤/٦، زاد المسير: ٢٥٣/٨، تفسير الرازي:

٣١٣/٢٩، تفسير القرطبي: ٤٣٩/٢٠، البحر المحيط: ٢٥٩/٨.

٢ ينظر: في ظلال القرآن: ١٥٦٧/٣.

٣ المحرر الوجيز: ٥٢/٣.

٤ ينظر: الكشاف: ٦١/٣، المحرر الوجيز: الموضع نفسه.

٥ ينظر: تفسير الطبري: ٥٣٩/١١.

– الأذى بين المؤمنين

بدأ حديث القرآن عن الأذى بين المؤمنين في العهد المدني؛ إذ بدأت الحاجة ماسة -في ظلّ نشوء الدولة الإسلامية في المدينة- إلى تشريعات ومبادئ تنظّم علاقة الأفراد فيما بينهم، خاصّة وقد تهيّأت نفوس المؤمنين لتلقّي التشريعات والتكاليف بعد أن آمنوا على أنفسهم من بطش قريش، فورد الأذى في سياق الحديث عن الإنفاق:

• ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنْهُ وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢]

اختلفت عبارات المفسرين^١ في بيان الفرق بين المن والأذى واختلاف تنوع، حيث إنهم اتفقوا بأنّ المنّ جزء من الأذى؛ لكنّه حصّ بالذّكر للاعتناء به، واتفقوا أنّ الأذى هنا أذى قوليّ لا يعدو أن يكون تطاولاً باللسان. ونظيرها قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٣] وفسر بعضهم الأذى في هذا الموضع بأنّه المنّ باعتبار انفراد ذكره في هذا السياق^٢. ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُ أصدقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]

– ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَحِشَةُ مِنْ إِسْكَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا^(١٥)﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٦]

يتحدّث السّياق في كلتا الآيتين عن حدّ الزانية والزاني، إذ نصّت الآية الأولى على عقوبة الحبس في البيوت، ونصّت الثانية على عقوبة الإيذاء، دون أن تحدّد الآيتان من هم المستهدفون بالعقوبة في كليهما، فاختلفت آراء المفسرين في تفسيرهما^٣، وعرض الرازي (٦٠٦هـ) الوجوه الخمسة التي ذُكرت فيها، كما اختلفوا في تحديد المراد بالأذى هنا^٤؛ فقيل: التّعيير والتّوبيخ على ما أتيا من الفاحشة، وقيل: هو السّبّ والجفاء دون تعيير. وقيل هو النّيل باللسان واليد، وضرب النعال

١ ينظر: تفسير الطبري ٦٥٥/٤، تفسير الثعلبي: ٢٥٩/٢، تفسير الماوردي: ٣٣٧/١، الكشاف: ٤٩٥/١، المحرر الوجيز:

٣٥٦/١، زاد المسير: ٣١٧-٣١٨، تفسير الرازي: ٥٠/٧، تفسير القرطبي: ٣٢٥/٤.

٢ ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٢٨.

٣ ينظر: تفسير الطبري: ٤٩٩/٦، المحرر الوجيز: ٢٢/٢، أحكام القرآن، ابن العربي: ٤٦٤/١.

٤ تفسير الرازي: ٢٤٢/٩.

٥ ينظر: تفسير الطبري: ٥٠٢-٥٠٣، الكشاف: ٤١/٢، المحرر الوجيز: الموضع نفسه، مفردات الراغب: ٧٢.

وما أشبهه. وأجيب بأن الإقتصار على أذى اللسان أولى؛ لأن مدلول النص إنما هو الإيذاء، وذلك حاصل بمجرد الإيذاء باللسان^١. وعقّب الطبري^٢ (٣١٠هـ) بقوله: "وليس في الآية بيان أي ذلك كان أمر به المؤمنون يومئذ، ولا خبر به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم... وجائز أن يكون ذلك أذى باللسان أو اليد، وجائز أن يكون كان أذى بهما. وليس في العلم بأي ذلك كان من أي نفع في دين ولا دنيا، ولا في الجهل به مضرّة، إذ كان الله جلّ ثناؤه قد نسّخ ذلك من مُحكمه بما أوجب من الحكم على عباده فيهما وفي اللاتي قبلهما"^٣.

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِزٍ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرٌ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]

هذه الآية مسوقة لتحذير المؤمنين من الوقوع فيما يسوء النبي صلى الله عليه وسلم عامّة، ولبيان كراهة إطالة المكوث عنده، وحرمة نكاح أزواجه من بعده خاصّة.

فيدخل في العموم النهي عن كلّ ما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال، يسيراً كان أو كبيراً، بما يدل على تعظيمه وإيجاب حرمة حيّاً وميتاً.

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذَنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]

لما تحدّثت الآية السابقة عن تحريم إيذاء المؤمنات، أمر في هذه الآية باتّقاء أسباب الأذى؛ والآية خطاب موجّه للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين يُدْنِينَ

١ تفسير الرازي: ٢٤٣/٩.

٢ الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر، رأس المفسرين على الإطلاق، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، كان حافظاً لكتاب الله، بصيراً بالمعاني، فقيهاً بأحكام القرآن وعالماً بالسنن، بصيراً بأيام الناس وأخبارهم، له تصانيف عظيمة، منها: تفسير القرآن، وهو أجل التفاسير، ومنها تاريخ الأمم وغير ذلك. (ينظر: طبقات المفسرين، الأذنه وي: ٤٨-٥١).

٣ تفسير الطبري: ٥٠٣-٥٠٤/٦.

عليهنّ من جلابيهنّ، واختلف المفسّرون في تحديد المقصود بالجلباب على ألفاظ متقاربة، عمادها أنّه الثوب الذي يستر به البدن^١، كما اختلفوا أيضًا في معنى إدناء الجلاباب على أقوال^٢، وذكرنا أنّ المراد بهذه الآية المنافقون؛ فقد كانت الأمة إذا مرّت تناولها المنافقون بالإذابة، فنهى الله تعالى الحرائر أن يتشبّهن بالإماء لئلاّ يلحقهنّ مثل تلك الإذابة^٣؛ إذ كانوا في الجاهلية تُسدّل المرأة خمارها من ورائها وتكشف ما قدّامها، فأمرنّ بالاستتار^٤، وذهب فريق من المفسرين إلى أنّ هذه الآية متّصلة بما قبلها، وعليه تكون قد نزلت في أهل الفسق والفجور الذين كانوا يتعرّضون للإماء في الطُرقات، وربما تعرضوا للحرّة بحُجّة عدم التميّز بين الحرائر والإماء، فأمر الله تعالى الحرائر أن يتميّنن بزِيٍّ خاصٍّ ليبين الفرق بينهنّ وبين الإماء^٥.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي أجدر وأحرى أن يُعرّفن على الجملة أنهنّ من الحرائر، فلا يؤذَيْن بالقول الفاحش ممّن يتعرّض لهنّ، وليس المراد أن تُعرّف المرأة من هي^٦. قال أبو حيان^٧ (٧٤٥هـ): "والظاهر أنّ قوله "ونساء المؤمنين" يشمل الحرائر والإماء، والفتنة بالإماء أكثر؛ لكثرة تصرفهنّ بخلاف الحرائر، فيحتاج إخراجهنّ من عموم النساء إلى دليل واضح"^٨. وعلى كلّ حال لا تُفيد الآية أنّ اتّخاذ الجلاباب شرع إسلامي جديد، وإنّما كان زياً ممارساً في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، فأمرت النساء بإدنايته كتعليم بزّيٍّ خاصٍّ يُعرّف به المؤمنات ويُفرّق به بين الحرائر والعواهر، ليمتنع بذلك أذى الفسقة والفجّار عنهنّ، وصيغة الآية تشريعية مستمرة الشمول من دون ريب، غير أنّ المتبادر من روحها وظرف نزولها أنّ شمول التشريع فيها قياسي أكثر منه

١ ينظر: تفسير مقاتل: ٥٠٧/٣، تفسير الماوردي: ٤٢٣-٤٢٤، تفسير البغوي: ٣٧٦/٦، الكشاف: ٩٧/٥، أحكام القرآن، ابن العربي: ٦٢٥/٣.

٢ ينظر: تفسير الطبري ١٨١/١٩-١٨٣، تفسير الماوردي: الموضع نفسه، الكشاف: ٩٨/٥، أحكام القرآن، ابن العربي: الموضع نفسه.

٣ ينظر: تفسير الماوردي: ٤٢٤/٤، أحكام القرآن، ابن العربي: ٦٢٦/٣.

٤ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، كتاب التفسير، سورة النور، باب وليضربن بخمرهن على جيوبهن: ٤٩٠/٨.

٥ ينظر: تفسير الطبري: ١٨١/١٩، الكشاف: ٩٨/٥، المحرر الوجيز: ٣٩٩/٤، تفسير الرازي: ٢٣١/٢٥، تفسير القرطبي: ٢٢٩/١٧-٢٣٠، البحر المحيط: ٢٤٠/٧، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي: ٨٨/٢٢.

٦ ينظر: المحرر الوجيز: الموضع نفسه.

٧ أبو حيان: محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي، شيخ النخاة، نشأ بغرناطة وقرأ بها القراءات، اتفق أهل عصره على إمامته، له البحر المحيط في التفسير، وإتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب، توفي سنة خمس وأربعين وسبعمئة بمنزله بالقاهرة (طبقات المفسرين: ٢٧٨-٢٨٠).

٨ البحر المحيط: ٢٤٠/٧.

شكلياً، أي يوجب على المؤمنين زياً أو مظهراً خاصاً يميّزهم عن العواهر ويمنع عنهم أذى الفساق دون التقيّد بنفس الشكل الذي كان جارياً وقت نزول الآية، فأشكال اللباس والمعيشة والحياة عرضة للتبدّل والتطوّر^١.

١ التفسير الحديث، محمد عزة دروزة: ٤١٩/٧.

الخلاصة

أسفرت الدِّراسة المصطلحيَّة عن تطابق المعنى الاستعمالي مع المعنى المعجمي لمفردتي (الدفع) و(الأذى)، واتَّساع مفهوم الدَّفْع لمعنى الاتِّقاء قبل الوقوع والتَّحنية بعد الوقوع بالرَّدِّ أو التَّرك.

كما دلَّت الدِّراسة الاستعمالية على اتَّساع مفهوم الأذى بحيث يشمل مراتب متفاوتة من الإيلام النَّفسي والجسدي تبدأ بالمكروه اليسير وتصل إلى الضَّرر الكبير، والسِّياق التاريخي والنَّصِّي مسؤولان عن تحديد مرتبته.

ومن خلال ما سبق يمكن تعريف مفهوم البحث -بالنَّظر إلى حدوده- بأنَّه إبعادُ المؤمنين لما يقع أو يغلب أن يقع عليهم من مكروهٍ صادرٍ عن غير المؤمنين.

وطلب البُعد عن المكروه يكون بسؤال الله تعالى أولاً، ثمَّ اتِّخاذ الإجراءات التي تُبعده عن المكروه، وهذه الإجراءات إمَّا أن تكون بهدف الاحتراز عنه أو لوقْف استمراره أو للتَّخفيف من آثاره، وله شقان؛ دفع الأذى بمواجهته، ودفع الأذى بتجنُّبه.

وفي ضوء هذا التَّعريف يمكن إخراج بعض السِّياقات القرآنية من موضوع البحث، وهي:

١- الدَّفْع بمعنى تسليم المال لليتامى لأنَّ موضوعه المال وليس الأذى.

٢- دفع العذاب يوم القيامة لارتباطه بعالم الآخرة.

٣- الأذى الاضطراري الذي يشمل أذى المحيض وأذى القمل وأذى المطر لأنَّه لم يقع عن اختيار.

٤- الأذى بين المؤمنين لأنَّ البحث مختصُّ بما كان من جهة غير المؤمنين.

المبحث الثاني

دلالة المفردات ذات الصلة بمعنى الدفع والأذى

سيتم في هذا المطلب استحضار المفردات القرآنية التي تشترك مع كلمتي (الدفع والأذى) في حقل دلالي واحد، وتوضيح دلالاتها اللغوية والقرآنية؛ لبيان وجه صلتها بمصطلحات البحث.

المطلب الأول

المفردات ذات الصلة بمعنى الدفع.

توصل البحث من خلال استقراء الآيات القرآنية إلى إحدى عشرة مفردة تنتمي إلى الحقل الدلالي لكلمة (الدفع)، وهي: الدَّرء والدَّسَر والدَّعَّ والدَّبَّ والرَّدَّ والزَّيْن والصدَّ والصَّرْف والكفَّ والمنع والوقاية.

وفيما يلي دراسة موجزة لكل مفردة:

أولاً: الدَّرء

الدَّرء في اللغة بمعنى الدَّفْع، ودَرَأَ فلانٌ طَلَعَ مفاجأةً، ومن معاني الدَّرء الاعوجاجُ وهو من قياس الدَّفْع؛ لأنه إذا اعوجَّ اندفع، والدَّرءُ التَّشَوُّرُ والاختلافُ، والدَّرءُ الخصومة^١.

وعُزِفَ اصطلاحاً بأنَّه المَيْلُ إلى أحد الجانبين^٢.

وقد وردت مفردة الدَّرء في القرآن خمس مرَّات؛ في سياق درء التُّهْمَة، ودَرء الموت، ودَرء الحَدِّ عن زوجة القاذف، واثنين في سياق درء السيئة بالحسنة.

١ ينظر: مادة (دَرَأ) الصحاح: ٤٨/١-٤٩، مقاييس اللغة: ٢٧٢/٢-٢٧٣، إسفار الفصيح، الهروي: ٤٨٧، لسان العرب:

مج ٢، ١٣٤٧/١٦.

٢ التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي: ١٦٥.

ولم تذكر المعاجم العربية وكتب المعاني فرقاً بين الدَّفْع والدَّرء، لكنَّها ذكرت في الدَّرء عنصر المفاجأة^١، كما ارتبط مفهوم الدَّرء بالخلاف والخصومة.

وبهذا يمكن أن نلاحظ مكن الفرق بينهما، فالدَّفْع يُلاحظ فيه عنصر القوَّة، والدَّرء يلاحظ فيه عنصر السُّرعة، وفي الدَّرء تكون في العلاقة بين الطرفين خصومة، ولا يطرد هذا في الدَّفْع.

ويؤيِّده سياق الآيات التي ورد فيها الدَّرء، فأولو الألباب يقابلون إساءة المسيء بالإحسان إليه، وإيثار الدَّرء على الدَّفْع يلمح فيه امتداح مسارعته في الخيرات ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

وفي الرَّدِّ على المنافقين المتقاعسين عن الجهاد، طُلب إليهم أن يدفعوا عنهم لحظة خروج الروح من الجسد، وهي لحظة مفاجئة سريعة خارجة عن إرادة الإنسان، بالإضافة إلى أنَّ الموت مكروه عادة ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وفي آية الملاعنة، يدلُّ السِّياق على وجود خصومة بين الزوجين، يتمُّ فيها إطلاق سراح المرأة فوراً فيما إذا لاعت بعد وجوب الحدِّ عليها بملاعنة الزوج أو بحضور الشُّهود ﴿وَيَدْرءُهَا الْعَذَابُ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [النور: ٨].

ومعنى قوله "فادَّارَأتُم" في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢] تدافعتم، أي سارع كلُّ طرف لرمي التُّهمة على الآخر، وهذا السلوك لا يدلُّ على وفاق بين الأطراف المتدافعة.

ثانياً: الدَّسْر

أصل الدَّسْرِ الدَّفْع الشديد والطَّعن، دَسَرْتُهُ بالرُّمَح دفعْتُهُ بها دفعاً شديداً، ودَسَرَهُ يدسره طَعْنَهُ، والدَّسْر أيضاً في البُضْع، ودَسَرَتِ السَّفِينَةُ الماء بصدرها عاندته^٢.

١ ينظر: مادة (درى) العين: ١٦/٢، تهذيب اللغة: ١٥٨/١٤، الصحاح: ٤٨/١.

٢ ينظر: (دسر) العين: ٢٤/٢، مقاييس اللغة: ٢٧٨/٢، مفردات الراغب: ٣١٤، لسان العرب: مج ٢، ١٦/١٣٧٢.

والدَّسار حَيْط من ليف تُشَدُّ به ألواح السفينة، ويقال لمسامير السفينة أيضًا الدُّسُر، واستعملت في القرآن مرّة واحدة فقط في هذا المعنى الأخير دون الأول، وذلك في سورة القمر في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ [القمر: ١٣] ممّا يعني خروج المفردة عن نطاق البحث.

ثالثاً: الدَّعُ

الدَّعُ أصل واحد يدلُّ على حركة ودَفْع واضطراب، ودَعَّه يدَعُّه دَفَعَه في جفوة، ودَعَّه دَفَعَه دفعًا عنيفًا^١، والدَّعُ الطَّرْد. ولم تَرِدْ المفردة في القرآن الكريم إلا مرتين: الأولى في سورة الطُّور، قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣] أي يُدْفَعُونَ دفعًا عنيفًا، وقيل: يُزَعَجُونَ إزعاجًا، وقيل: يدْعُهُم زبانيته بالدُّعاء عليهم^٢. والثانية في سورة الماعون ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢] أي يُعْتَفُ به دفعًا وانتهازًا وزجرًا، أو يظلم اليتيم بأن يمنع من ماله طمعًا فيه^٣. وعلى هذا فإن استعمال المفردة في السياقين يدخل في مجال البحث؛ من حيث إنهما يستهدفان بالتثديد والتَّهديد المكذِّبين المستغرقين في أباطيلهم الذين يَغْتَدُّون على ضعاف النَّاس ولا يؤدُّون إليهم حقوقهم. مع ملاحظة أنَّ الدَّفْع الشَّدِيد في الآية الأولى عقوبة لهم من الله تعالى جزاء عادلًا على أسلوبهم الفظ والعنيف في معاملة النَّاس.

رابعاً: الذَّبُّ

الذَّبُّ يطلق على طائر من الحشرات، وذَبَبْتُ عن فلان طَرَدْتُ عنه الذَّبَاب، والمِذْبَةُ ما يُطْرَد به، ثم استُعير الذَّبُّ لمجرَّد الدَّفْع والمنع، لكنّه لم يَرِدْ في القرآن بهذا المعنى المستعار، وإنَّما جاء بمسمّاه الأصلي في سورة الحجّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ١٧٣]^٤.

١ ينظر: مادة (دع) العين: ٢٨/٢، مقاييس اللغة: ٢٥٧/٢، لسان العرب: مج ٢، ١٦/١٣٨١.

٢ ينظر: تفسير الماوردي: ٣٨٠/٥.

٣ ينظر: تهذيب اللغة: الموضع نفسه، تفسير الماوردي: ٣٥١/٦.

٤ ينظر: مادة (ذَب) العين: ٦٥/٢، الصحاح: ١٢٦/١، مفردات الراغب: ٣٢٥، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي: ٥/٣.

خامساً: الرَّدُّ

الرَّدُّ في اللغة الصَّرف والرُّجوع، ورَدَّ عليه الشَّيءَ لم يقبله، ورَدَّ إليه جواباً رجع^١، والرَّدُّ اسمٌ لنوعٍ من التَّسليم، وهو الذي يُعيد ما كان ثابتاً وقد فات، والرَّدَّةُ الرُّجوع في الطَّرِيق الذي جاء منه^٢. وقال الراغب (٤٢٥هـ): الرَّدُّ صَرَفُ الشَّيءِ بذاته أو بحالة من أحواله، والرَّدُّ كالرَّجع^٣، وقيل بأنَّه والدَّفْعُ بمعنى واحد، وهناك من فرَّق بين الرَّدِّ والدَّفْعِ فقال: الدَّفْعُ يكون إلى جهة الأمام والخلف، والرَّدُّ لا يكون إلَّا إلى جهة الخلف^٤، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] فقد كفى الله المؤمنين القتالَ بانسحابِ العدوِّ.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْنَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] يريدون إعادتهم إلى ما كانوا عليه من الشرك.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: ٤٠] فالله تعالى لا معقِبَ لحُكْمِهِ^٥.

ويستنبط من هذا الفرق المذكور أيضاً ملحظ آخر، وهو أن الرَّدَّ متوقَّفٌ في بعض سياقاته القرآنيَّةِ عنصر التَّمَاثُلِ والقِصَاصِ، أما الدَّفْعُ فغير مخصص بذلك، ووارد أن يقع فيه الإفراط والتفريط، والعلوُّ والنُّزول. وممَّا يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحِيَّوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، وقوله: ﴿ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ آيَمِنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا وَلِلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨] وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]

١ ينظر: مادة (رَدَد) الصحاح: ٤٧٣/٢، مقاييس اللغة: ٣٨٦/٢-٣٨٧، لسان العرب: مج ٣، ١٨/١٦٢٢٢.

٢ ينظر: الكلبيات: ٤٧٧.

٣ مفردات الراغب: ٣٤٨.

٤ ينظر: الفروق اللغوية: ٢٥٣.

٥ ومثله: يونس: ١٠٧، هود: ٧٦، الرعد: ١١، الروم: ٤٣.

سادساً: الزُّبْنُ

أصل الزُّبْنِ الدَّفْعُ، يقال ناقة زَبُون؛ تدفع ولدها عن ضرعها برجلها، ورجل ذو زَبُونَةٍ إذا كان مانعاً لجانبه دفوعاً عن نفسه، ومنه الزَّبَانِيَّة عند العرب الشَّرْطُ يَزْبِنُون الناس أي يدفعونهم، وزبانية جهنم الملائكة الموكِّلون بتعذيب أهل النَّار؛ لأنَّهم يدفعونهم إلى النَّار^١.

ولم تَرِدْ في القرآن إلا مرة واحدة في سورة العلق ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿[العلق: ١٧-١٨] ومع أنَّ عملية الدَّفْع هنا مشهد أخرويٌّ إلاَّ أنَّه يرتبط بمفهوم البحث من حيث إنَّه دفع الأذى بواسطة الإنذار، فالآية موجَّهة لمن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومَنَعَهُ من إقامة شعائر دينه، كما يدلُّ عليه سياق السورة.

سابعاً: الصَّدُّ

الصَّدُّ لفظٌ يدلُّ على إعراض وُعدول وصدوف^٢. وقيل: الصَّدُّ صَرَفٌ إلى ناحيةٍ بإعراض وتكرُّه، وقيل هو ميل إلى أحد الجانبين^٣. فإذا ورد لازماً أفاد معنى الامتناع والانصراف عن الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وإذا ورد متعدِّياً أفاد معنى المنع والصرف^٤ ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْطَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

وباستقراء الآيات التي ورد فيها الصَّدُّ نلاحظ أنَّ الصَّدَّ غالباً ما ورد في قضايا ذات بُعد عقدي؛ مثل الصَّدِّ عن سبيل الله والذكر والاستغفار والآيات والهدى والمسجد الحرام، ومفهومه يتقاطع مع مفهوم الدَّفْع من حيث إنَّ الدَّفْع والصَّدَّ يلتقيان في معنى المنع، ويفترقان في أنَّ الصَّدَّ يختصُّ بالمنع من الخير والإعراض عنه، ولم يأت إلا مذبذباً، قد تحصَّل بسبب تزيين الشَّيطان، وحُبِّ الدُّنْيَا، والاستكبار، وصَدَرَ عن أهل الكتاب وبعض أبحارهم ورهبانهم، كما صدر عن المشركين والمنافقين والظَّالمين، ومن المفارقات أنَّ بعض الأقوام المكذِّبة قد وجدوا في دعوة الرُّسل

١ ينظر: مادة (زبن) العين: ١٧٤/٢، الصحاح: ٢١٣٠/٥، مقاييس اللغة: ٤٦/٣، لسان العرب: مج ٣، ١٨٠٨/٢٠، الكليات: ٤٩٣.

٢ ينظر: مادة (صد) مقاييس اللغة: ٢٨٢/٣، لسان العرب: مج ٤، ٢٤٠٩/٢٧.

٣ ينظر: مقاييس اللغة: الموضع نفسه، التوقيف على مهمات التعاريف: ٢١٣.

٤ ينظر: الصحاح: ٤٩٥-٤٩٦، مفردات الراغب: ٤٧٧، بصائر ذوي التمييز: ٣٩٠/٣،

٥ ينظر مثلاً: البقرة: ٢١٧، المائدة: ٢، ٩١، القصص: ٨٧، سبأ: ٣٢، الفتح: ٢٥.

صدًا لهم عن دينهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فالصدُّ إذن على مستويين؛ الأول: العدوان على مريدي الحق، والثاني: الامتناع عن قبول الحق، وإثم الأول أكبر وعقوبته أوجب بحسب النصوص القرآنية، مما يعني أن الصدَّ يُعدُّ مظهرًا من مظاهر الأذى التي يُطلب استبعادها، بشرط ألا يحمل استبعاده على تسويغ مقابلة العدوان بالعدوان إلا ما كان عدلاً ومقاصّة، فلا يسمّى حينها عدوانًا إلا على سبيل المشاكلة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبَرِّ وَالْقَوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

ثامنًا: الصَّرف

الصَّرف رجْعُ الشيء، وردّه من حالة إلى أخرى^١، فالصَّرف أن تصرف إنسانًا على وجه يريده إلى مصرفٍ غير ذلك^٢. ويتبين من هذا التعريف مدى صلة المفردة بمصطلح الدَّفع، ويُطلق الصَّرف مجازًا على الحيلة أو الفدية أو التوبة^٣.

وقد جاء في القرآن الكريم بأكثر من معنى، منها التَّبيين، والدَّفع، والتَّحويل، والميل، والغدول عن الأمر^٤. ويلاحظ في مجموع الآيات التي ورد فيها الصَّرف بمعنى الدَّفع^٥ أن الله تعالى وحده هو المتصرف، الذي بيده الأمر كله، كتصريف العذاب، وتصريف الرياح، وصرف السوء.

تاسعًا: الكَفُّ

أصلُ الكَفِّ المنع والانقباض والتَّجمُّع، وكُفَّةُ الثوب حاشيته؛ لأنها تمنعه أن ينتشر. ومنه الكَفُّ للإنسان؛ لأنها تقبض الأشياء وتجتمع، ولأنه يُكفُّ بها عن سائر البدن^٦، ومنه قول بشر بن أبي خازم^٧:

له كَفَّان كَفُّ كَفُّ صُرِّ وكَفُّ فواضل خُضِلِ نداها

١ ينظر: مادة (صرف) مقاييس اللغة: ٣/٣٤٢، مفردات الراغب: ٤٨٢، لسان العرب، مج ٤، ٢٧/٢٤٣٤، بصائر ذوي التمييز: ٤٠٩/٣.

٢ العين: ٣٩٢/٢.

٣ روح المعاني: ١٨/٢٥٣.

٤ ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٢٧٩.

٥ الأنعام: ١٦، هود: ٨، يوسف: ٢٤، ٣٣، الكهف: ٥٣، النور: ٤٣، الفرقان: ١٩، ٦٥.

٦ ينظر: مادة (كف) مقاييس اللغة: ٥/١٢٩-١٣٠، المغرب في ترتيب المعرب: ٢/٢٢٦، الفروق اللغوية: ٥١٧.

٧ بشر بن أبي خازم: شاعر جاهلي فحل، من الشجعان، من أهل نجد، من بني أسد، توفي قتيلًا في غزوة أغار بها على بني صعصعة بن معاوية، رماه فتى من بني وائلة بسهم فأصابه. (خزانة الأدب: ٤/٤٤١)

إذا ما شَمَرَتْ حربٌ عوانٌ يخافُ النَّاسُ عُرَّتَها كفاها
وكفَّ لازمٌ ومُتَعَدٍّ، يقال كَفَفْتُ الرجلَ عن الشيء فكفَّ، وكفَّ الشيء يكفُّه جمعه، وكفَّ
الرجلَ منعه، وكَفَفْتُهُ أَصَبْتُ كَفَّهُ، وكَفَفْتُهُ أَصَبْتُه بالكفِّ ودَفَعْتُهُ بها، وتُعرف الكفُّ بالدفع على أيِّ
وجه كان بالكفِّ أو غيرها، حتَّى قيل رجل مكفوف لمن قُبِضَ بصره وذهب^١.

وردتْ مادَّة (كفف) في القرآن الكريم في أربعة عشر موضعًا، أربعة منها جاءت بلفظ "كافَّة"،
واثنين قُصد بها طرف اليد، وفيما سوى ذلك جاءت بمعنى الدَّفْع؛ مرَّة في سورة مَكِّيَّة في سياق
التَّهْدِيدِ لِلْكَفَّارِ بإظهار عجزهم عن دفع العذاب عنهم يوم القيامة^٢، وفي سائر المواضع مدنيَّة
بمعنى الإمساك عن القتال^٣، واقتترنت غالبًا بورودها في سياق امتنان الله تعالى على عباده المؤمنين
بمنعه الكافرين من الوصول إليهم.

وقد تنوَّعت عبارات المفسِّرين في تفسير الكفِّ بالدفع، وذكروا مفردات متقاربة المعنى؛
كالمَنْعِ والدَّرْءِ والسَّتْرِ والصَّرْفِ والتَّركِ والإمساك ورَدِّ الضَّرِّ والإعراضِ عن السُّوء^٤.

وبهذا يظهر صلة المفردة في البحث من حيث استعمالها في القرآن في سياق دفع الأذى
الكبير، بل إنَّ بيان ابن عاشور^٥ (١٣٩٣هـ) لمعنى الكفِّ يوضِّح جليًّا صلة هذا اللفظ بمصطلح
البحث حيث قال: الكفُّ مَنْعُ الفاعل من فعل أرادَه أو شَرَعَ فيه، واشتُقَّ من الكفِّ التي هي اليد
لأنَّ أصل المنع أن يكون دفعًا باليد^٦.

عاشراً: المنع

المنع في اللغة الحيلولة، أي أن تحول بين الرِّجل وبين ما يريده، ومنه المنع ضدُّ العطية،
ومنه الحماية، وسائر المعاني المذكورة في المعاجم متفرِّعة عن هذه المعاني، يقال رجلٌ منيعٌ لا

١ ينظر: (كفَّ) العين: ٤/٤٠، تهذيب اللغة: ٩/٤٥٤، مقاييس اللغة: الموضع نفسه، مفردات الراغب: ٧١٣، لسان العرب:
مج ٥، ٣٩٠٢/٤٣-٣٩٠٥.

٢ الأنبياء: ٣٩.

٣ النساء: ٧٧، ٨٤، ٩١، المائدة: ١١، ١١٠، الفتح: ٢٠، ٢٤.

٤ ينظر على سبيل المثال: تفسير الطبري: ٧/٢٣٠، الكشاف: ٤/١٤٦، تفسير القرطبي: ٨/٢٨٢، التحرير والتنوير:
١٣٨/٦.

٥ هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه فيها، وكان أحد أعضاء
المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات مطبوعة، من أشهرها: مقاصد الشريعة الإسلامية، والتحرير والتنوير (في
التفسير)، وموجز البلاغة. (ينظر: الأعلام، للزركلي: ٦/١٧٤)

٦ التحرير والتنوير: ٢٦/١٧٨.

يُخَلِّصُ إِلَيْهِ، وامرأة منيعة أي عفيفة، واسم الله تعالى المانع تدلُّ على المعنيين السابقين بأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، كما أنه يمنع أهل دينه أي يحوطهم وينصرهم^١.

وفي القرآن الكريم شواهد على المعاني السابقة، أسوق بعضاً منها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤] حال وحجب. ومثله ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْهَتِهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] أي تحميهم فلا نصل إليهم. وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ﴾ ٦ ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦-٧] يحجبونه ويبخلون به.

وتدخل المفردة ضمن مفهوم البحث في جانبين: الأول حين تكون مظهراً من مظاهر الإيذاء بحجب الخير عن الناس، وحجز الناس عن إقامة الدين. والثاني: حين تكون دفاعاً ونصرة، بيد أن الأخيرة وردت فيما لم ينفع منعه وحمايته ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١] ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٤٣] ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَنَّ لَهُم مِّنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢].

حادي عشر: الوقاية

يدلُّ أصل الوقاية في اللغة على دفع شيء عن شيء بغيره، وقاه الله وقياً ووقاية صانه وحفظه، ووقيت الشيء أقيه إذا صُنِّتْهُ وسترته عن الأذى، ووقاه ما يكره حماه منه^٢.

وفي الاصطلاح صيانة النفس عما تستحقُّ به العقوبة، وقيل: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضرُّه، وقيل فَرَطُ الصَّيَانَةِ وَشَدَّةُ الاحتراس من المكروه^٣.

١ ينظر: (منع) العين: ١٦٨/٤، مقاييس اللغة: ٢٧٨/٢، لسان العرب: مج ٦، ٤٧/٤٢٧٦-٤٢٧٧، مفردات الراغب: ٧٧٩.

٢ ينظر: (وقى) مقاييس اللغة: ١٣١/٦، المغرب في ترتيب المعرب: ٣٦٣/٢، لسان العرب: مج ٦، ٥٤/٤٩٠١.

٣ مفردات الراغب: ٨٨١، التوقيف على مهمات التعاريف: ٣٣٩، الكليات: ٣٨.

ويؤيِّده من القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَّرُوا﴾ [غافر: ٤٥]، ﴿وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦].

ويتبيَّن من مجموع المعاني السابقة أنَّ مفردة الوقاية تتَّصل بمصطلح البحث من حيث إنَّها خطوة سابقة ومتقدِّمة على الأذى، وإجراء احترازي لمنع حدوثه، فهي دفع للأذى قبل وقوعه.

المطلب الثاني

المفردات ذات الصلة بمعنى الأذى

توصَّلت الباحثة من خلال استقراء الآيات القرآنية إلى سبع مفردات تنتمي إلى الحقل الدلالي لكلمة (الأذى)، وكان أساس اختيار الباحثة لهذه المفردات أحد أمرين إمَّا أن تكون مرادفة لكلمة الأذى بوجه من الوجوه، أو أن تكون اسمًا جامعيًا لأصناف كثيرة من الأذى.

وهذه الكلمات هي: البغي، السُّوء، الشرُّ، الضَّرر، الظُّلم، العدوان، الفساد.

أولاً: البغي

أصل البغي في كلام العرب الطلب، ثمَّ شاع في طلب ما للغير بدون حقِّ فصار بمعنى الظُّلم ومجاوزة الحدِّ معنىً ثانيًا تتفرَّع عنه سائر المعاني المذكورة في المعاجم، فقالوا البغي الحسد^١، والبغي الظُّلم^٢، والبغي الفجور^٣، والبغي الكذب والاختيال والكبر^٤، وقيل: البغي بمعنى المعصية أيضًا^٥.

وترجع سائر المواضع التي وردت فيها مادة (بغى) في القرآن الكريم إلى أحد هذه المعاني السابقة، أو إلى الأصل اللغوي أي مطلق الطلب، أو طلب تجاوز الحدِّ.

١ البقرة: ٩٠.

٢ الأعراف: ٣٣.

٣ مريم: ٢٨.

٤ ينظر: (بغى) تهذيب اللغة: ٢٠٩/٨-٢١٠، مقاييس اللغة: ٢٧١/١، لسان العرب: مج ١، ٣٢١/٤-٣٢٣، التحرير

والتنوير: ٣١٠/٢.

٥ ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٧٥.

وعرّفه الراغب (٤٢٥هـ) بأنّه طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه، فتارة يُعتَبَر في القَدْر الذي هو الكَمِّيَّة، وتارة يُعتَبَر في الوصف الذي هو الكيفيَّة^١.

والبَغْيُ أكثرُه مذموم وهو تجاوز الحقِّ إلى الباطل أو ما يجاوره من الأمور المشتبهات، وقد يقع محمودًا بأن يتجاوز العدل إلى الإحسان، أو الفرض إلى التطوُّع^٢، وقد ميَّز القرآن في سورة الشورى بين ثلاث مراتب، بين العدل الذي هو طلب الحق، والإحسان الذي هو تنازل عن الطلب، والبغي الذي هو طلب بدون حق^٣.

وأما الابتغاء فقد خُصَّ بالاجتهاد في الطَّلب، ويُحمَد أو يُدَمَّ بحسب غاية الطَّلب^٤.

ويتبيّن ممّا سبق وجه صلة هذه المفردة بمصطلح البحث؛ فالمفردة لا تدلُّ على نوع أذى مخصوص بعينه، بل تُعدُّ اسمًا جامعيًا يندرج تحتها عدد من أشكال الأذى المتعلقة بحقوق العباد مثل الظلم والفساد والفجور.

ثانيًا: السُّوء

السُّوء نعت لكلّ شيء رديء^٥، وساءه يسوءه نقيض سرّه، وهو لازم ومتعدّد، وكلّ كلمة قبيحة أو فعلة قبيحة فهي سواء، وأساء الشيء أفسده، والسُّوء الفجور والمنكر، والسَّيِّئَةُ الخطيئة، والسُّوْءُ العورة والفاحشة، ثم نُقِلَتْ إلى كل ما يُستَحيا منه إذا ظهر من قول أو فعل، ودائرة السُّوء الهزيمة والشرُّ والرَّذى والفساد^٦.

وعرّف السُّوء بأنّه اسمٌ جامع لأنواع الأذى والآفات والدَّاء^٧، وقيل: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسان من الأمور الدنيويَّة والأخرويَّة، ومن الأحوال النَّفسيَّة والبدنيَّة والخارجة، من فَوَات مال وجاه، وفَقْدِ حميم^٨.

١ مفردات الراغب: ١٣٦.

٢ ينظر: مفردات الراغب: ١٣٦-١٣٧.

٣ الشورى: ٤١-٤٣.

٤ ينظر: مفردات الراغب، ١٣٦-١٣٧.

٥ العين: ٢/٢٩٠.

٦ ينظر: مادة (سوء) مقاييس اللغة: ١١٣/٣، لسان العرب: مج ٣، ٢٤/٢١٣٨، القاموس المحيط: ٤٣.

٧ ينظر: العين: ٢/٢٩٠، لسان العرب: مج ٣، ٢٤/٢١٤٠.

٨ مفردات الراغب: ٤٤١، التوقيف على مهمات التعاريف: ١٩٩.

وقد استعملت المفردة في القرآن للدلالة على معانٍ متعدّدة عامّة وخاصّة، فمن المعاني العامّة: الشّدة، الذّنْب والمعصية، الشّرّ، المكروه المستقبح، الأذى، الضّرّ، الظلم، المنكر، العذاب والبلاء، ومن المعاني الخاصّة: الزّنا، الشّرك، البرص، العقر، الشّتم والضّرب، الهزيمة والقتل، الدّعاء على الظّالم، الجنون والخبيل^١.

وواضح من مجموع المعاني السابقة تداخل المفردات وتقاطع دلالاتها.

ثالثاً: الشّرّ

أصلُ الشّرّ: نقيض الخير، وتدلُّ مادته اللغويّة على انتشار وتطايّر، والشّرّ بالضّمّ المكروه، والمُشارّة المخاصمة.

وعُرِفَ الشّرّ بأنّه عدم ملاءمة الشّيء الطّبع^٢. وقيل هو السّوء والفساد^٣، وقيل: ما يَرغب عنه الكلُّ^٤.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه أنّ حقيقة الشّرّ والخير أكبر من أن تُدرَك^٥، وذمّ مقابلة الإنسان الشّرّ بالاعتراض واليأس والجزع^٦، وأمّرنا أن نستعيذ به من جميع الشّرور في المعوّذتين، مع بيان الحكمة من ابتلاء النّاس بالشّر ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ونُسِبَ الشّرّ في كتاب الله تعالى لفئات من النّاس، مثل الكفرة والمغضوب عليهم من أهل الكتاب، والمحشورين على وجوههم، والذين يرمون الأبرياء بالباطل، والمُعريضين عن الحقّ، والطّغاة. وسبق اللفظ أيضاً في وصف حال بعض النّاس وجَزَعهم إذا وقع بهم ضُرٌّ ظاهر^٧.

رابعاً: الضّرر

الضّرّ والضّر لغتان بمعنى واحد، ضد النفع، وفرّق بعضهم بينهما فقال: الضّر بالفتح شائع

١ ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٢٥٠-٢٥٢، الكليات: ٥٠٣، التبيان لمعاني مفردة السوء في القرآن، د. فهد بن متعب آل متعب الدوسري، بحث علمي منشور في مجلة تبيان للدراسات القرآنية، العدد السادس عشر، ١٤٣٥هـ.

٢ التعريفات، الجرجاني: ١٣٢، والتوقيف على مهمات التعاريف: ٢٠٣.

٣ العين: ٣٢٠/٢.

٤ مفردات الراغب: ٤٤٨.

٥ البقرة: ٢١٦.

٦ الإسراء: ٨٣، فصلت: ٥١، المعارج: ١٩-٢٠.

٧ ينظر: معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم، عبد الصبور مرزوق: ٧٨٤-٧٨٥.

في كل ضرر، وبالضم خاص بما في النفس كمرض وهزال، وقيل: إذا جمعت بين الضر والنفع فتحت الضاد، وإذا أفردت الضر ضمنت إذا لم تجعله مصدرًا^١، والضرّاء يُقَابَل بالسَّراء والنَّعماء، والاضطرار الاحتياج إلى الشيء^٢.

ومن المعاني اللغوية للمفردة: الهزال، وسوء الحال، والنقصان، والزمانة، والأذية، والقحط والشدة^٣.

قال الزَّاعِب (٤٢٥هـ): "الضرُّ سوءُ الحال، إمَّا في نفسه لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمَّا في بدنه لعدم جارحة ونقص، وإمَّا في حالة ظاهرة من قلَّة مال وجاه... والاضطرارُ: حَمْلُ الإنسان على ما يضرُّه"^٤.

وكلُّ هذه المعاني ترجع للمعنى الأصلي المذكور في كتاب العين بأنَّ الضرر هو "النقصان يدخل في الشيء"^٥.

وثمَّة فرق بين الضرِّ والشرِّ، فالضرُّ قد يكون منطويًا على خير، لكنَّ الشرَّ متمخِّص في الضرر، فعذاب النار مثلاً شرٌّ على الكافرين وضرر لهم، والحدُّ -كحدِّ السرقة مثلاً- قد يضرُّ مُستَحِقَّه ظاهراً، لكنَّه ينطوي على خير له ولغيره، فهو كفَّارة وزجر له عن استمراء الجريمة ورَدْعٌ لغيره أن يرتكبها.

ويدلُّ عليه أيضاً أنَّ الكفر شرٌّ مُطلق ومثله الطُّغيان والإعراض عن الحقِّ، وهي من صفات البشريَّة، بينما الابتلاءات في المال والولد وغيرها من وجوه النِّعمة تسمَّى ضرراً من منظور العبد ورؤيته القاصرة فحسب، فالله هو الضَّارُّ النَّافع؛ وأقداره رحيمة عليمة.

وقد وردت مادة ضرر -بمعنى (ضد النفع)^٦- في القرآن بتصريفات مختلفة سنَّا وسنَّين

١ ينظر: مادة (ضر) العين: ١٣/٣، تهذيب اللغة: ٤٥٦/١١، لسان العرب: مج ٤، ٢٥٧٢-٢٥٧٦، الكليات: ٥٧٨.

٢ ينظر: مفردات الراغب: ٥٠٤، ولسان العرب: الموضع نفسه.

٣ ينظر: العين: ١٣/٣-١٤، مقاييس اللغة: ٣٦٠/٣، المغرب في ترتيب المعرب: ٨/٢، لسان العرب: الموضع نفسه، القاموس المحيط: ٤٢٨-٤٢٩.

٤ مفردات الراغب: ٥٠٣-٥٠٤.

٥ العين: ١٣/٣.

٦ هذا الاحتراز لكيلا أدخل فيه فعل الاضطرار.

مرة^١، بعضها ضمن سياق عقدي، وبعضها في سياق الحديث عن المعاملات بين الناس.

فمن الأول: تقرير أن الله تعالى وحده الذي يملك الضر والنفع^٢، ولا يستطيع أحد أن يلحق الضرر به جلّ وعلا^٣، ولا يكشف الضر أحد سواه^٤، لذا يتعين على الإنسان أن يصبر على الضرر الذي يصيبه بمقتضى إيمانه بالقضاء والقدر وأن يدعو الله وحده لكشفه^٥.

ومن الصنف الثاني: النهي عن إلحاق الضرر بالآخرين أو حتى المشاركة فيه من غير قصد^٦.

وثمة آيات أخرى تبدو أنها بسبيل تقرير ما يقع بين الناس من مضار، لكنها تأخذ منحى عقدياً يدفع الإنسان نحو تجاوز صور الظواهر باتجاه تحليل أبعادها ومناشئها. مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤٢]. فهذه الآيات وإن كانت تتحدث عن إلحاق الضرر بالآخرين لكنها توضح أصلاً مهماً في العقيدة يُعبر عنه الحديث النبوي (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)^٧.

وفيما يخص العلاقة بين الأذى والضرر، سبق في فقرة الدلالة المعجمية تخصيص بعضهم للأذى بأنه الضرر اليسير، وفي عبارات بعض المفسرين أن الأذى اسم جامع في معنى الضرر^٨. واعترض بعضهم على تقييده باليسير أو الخفيف؛ لأن الأذى قد يكون خفيفاً فعلاً مثل أذى المطر وأذى القمل في الرأس، وقد يكون شديداً مثل إيذاء المؤمنين بالقذف، وإيذاء الله بنسبة الولد إليه، وإيذاء الرسول بتكذيب رسالته^٩، ولأن الضرر مُنطو على معنى النقص، فلا يجوز أن يقال إن فلاناً

١ ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ٤١٩.

٢ الأعراف: ١٨٨.

٣ آل عمران: ١٤٤.

٤ الأنعام: ١٧.

٥ البقرة: ١٧٧، يونس: ١٠٦.

٦ البقرة: ٢٣١، ٢٨٢، النساء: ١٢، التوبة: ١٠٧-١٠٨، الطلاق: ٦.

٧ أخرجه الترمذي في الجامع الكبير، أبواب صفة القيامة والرفائق والورع، باب ١٢٤، رقم ٢٥١٦، ٢٨٤/٤.

٨ ينظر: المحرر الوجيز: ٥٥١/١.

٩ ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ٤٤٥/١٠.

أَضَرَ بِاللَّهِ أَوْ الرَّسُولِ، بينما يصحُّ أن يقال لمن بصق في القبلة مثلاً: إِنَّكَ آذَيْتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وفي الحديث القدسي: (يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)^١.

ومن الأمثلة التي تبين العلاقة بين السوء والأذى والضرر: إذا كان السوء هو فقر الرجل، فالضرر ما يترتب على فقره من أذى كالجوع والعري، وإذا عُدَّ المرض من السوء فإنَّ الأذى الذي يُحدثه المرضُ كفقدان البصر هو الضرر^٢.

خامساً: الظلم

والظُّلمُ في كتب اللغة والتعريفات: وَضْعُ الشيء في غير موضعه المختص به، إمَّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدول عن وقته أو مكانه^٣، وقيل هو الجور ومجاوزة الحد^٤.

ويُعرَّفُ شرعاً بأنه مجاوزة الحق بغض النظر عن كبر الذنب أو صغره، فقد قيل لآدم في تعديهِ ظالماً وفي إبليس، وإن كان شتآن ما بين الظُّلمين^٥.

أو هو التَّصَرُّفُ في ملك الغير، والتَّعْدِي عن الحقِّ إلى الباطل^٦.

وقد نَزَّهَ اللهُ تعالى نفسه عن نسبة الظُّلم إليه^٧، وبَسَطَ القرآن صوراً من أنواع الظلم لِيَحْذَرَ الإنسان منها. وتعود هذه الأنواع إلى قسمين رئيسيين:

الأول: ظلم الإنسان لنفسه بالتَّشْرِكِ والمعصية والافتراء على الله تعالى وتكذيب آياته^٨.

والثاني ظلم الإنسان للآخرين بالقتل وأكل أموالهم والتَّعْدِي على حقوقهم والصَّدِّ عن سبيل

الله^٩.

١ سبق تخريجه ص ٢٥.

٢ ينظر: لا وجوه ولا نظائر في كتب الوجوه والنظائر: ١٤٤-١٤٥.

٣ مفردات الراغب: ٥٣٧، وينظر: مادة (ظلم) العين: ٧٨/٣، تهذيب اللغة: ٣٨٢/١٤، لسان العرب: مج ٤، ٢٧٥٦/٣١، التعريفات: ١٤٨، التوقيف على مهمات التعاريف: ٢٣١، الكليات: ٥٩٤.

٤ ينظر: لسان العرب: الموضع نفسه، التعريفات: الموضع نفسه، التوقيف على مهمات التعاريف: الموضع نفسه.

٥ ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف: الموضع نفسه.

٦ ينظر: التعريفات: الموضع نفسه، الكليات، الموضع نفسه.

٧ يونس: ٤٤.

٨ لقمان: ١٣، فاطر: ٣٢، الأنعام: ١٤٤، الأعراف: ٩.

٩ الشورى: ٤٢، المائدة: ٣٨-٣٩، النساء: ١٠، البقرة: ٢٣١، الحجرات: ١١.

وهذا الثاني هو الذي يتقاطع مع مفهوم الأذى الواجب دفعه، والذي سيُتجه البحث للإجابة عنه في حال صدوره من غير المؤمن للمؤمن.

وقد أُلْمَحَ القرآن في بعض الآيات المتعلقة بإيقاع الظلم بالآخرين إلى العلاقة بين القسمين، فالظالم الذي يتعدى ظلمه الناس قد ظلم نفسه أولاً لأنه أورد لها المهلاك، ولأنه نأى بها عن جادة الحق. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْكُوهُمْ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ومثله في مطلع سورة الطلاق بعد أن ساق عدداً من آداب الطلاق وبين أن هذه حدود الله التي يجب أن يحافظ عليها الإنسان، بل إن حدود الله سيقَّت غالباً في إطار التشريعات المتعلقة بالمعاملات بين الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا). فقال رجلٌ: يا رسول الله أنصُرُهُ إذا كان مَظْلُومًا أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصُرُهُ؟ قال (تَحْجِرْهُ أَوْ تَمْنَعْهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ)¹.

فكما أمرنا بنصرة المظلوم ودفع الظلم عنه، كذلك نحن مأمورون بالأخذ على يدي الظالم وإنقاذ نفسه من التهلكة.

سادساً - العدوان

العدوان والاعتداء والتعدي: الظلم البراح، وأصله يدلُّ على تجاوز في الشيء وتقدم لما ينبغي أن يقتصر عليه أو مجاوزة القدر والحق، والعدوى تجاوزُ الداء، والعاديات الخيل المُغيرة².

وقال الراغب (٢٥٤ هـ): العدو: التَّجَاوُزُ ومنافاة الالتئام، فتارة يُعْتَبَرُ بالقلب، فيقال له: العداوة والمُعَاداة، وتارة بالمشي، فيقال له: العدو، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة، فيقال له: العدوان والعدو³.

وعُرفَ أيضاً بأنه تجاوز المقدار المأمور به بالانتهاء إليه والوقوف عنده، وهذا ما يميّزه عن البغي الذي هو طلب تجاوز قدر الاستحقاق تجاوزاً أو لم يتجاوز⁴.

١ أخرجه البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه، رقم ٦٩٥٢، ٢٨٧/٤.

٢ ينظر: مادة (عدو) العين: ١١٣-١١٤، تهذيب اللغة: ١٠٨-١١٨، مقاييس اللغة: ٢٤٩/٤.

٣ مفردات الراغب: ٥٥٣.

٤ ينظر: الكليات: ٥٨٤.

وقيل العدوان سوء الاعتداء في قول أو فعل أو حال^١، أمّا العداوة فهي ما يتمكّن في القلب من قصد الإضرار والانتقام^٢.

وقيل في الفرق بين الظلم والعدوان أنّ الظلم ما كان بغير حقّ بالكلّيّة، كأخذ مال بغير استحقاق لشيء منه، وقتل نفس لا يحلّ قتلها، وأمّا العدوان فهو مجاوزة الحدود وتعدّيها فيما أصله مباح، مثل أن يكون له على أحد حقّ من مال أو دم أو عرض فيستوفي أكثر منه، فهذا هو العدوان، وهو تجاوز ما يجوز أخذه، فيأخذ ما له أخذه وما ليس له أخذه^٣.

وقيل: بينهما علاقة عموم وخصوص، فالعدوان أعمّ لأنّه تسلّط بظلم غالباً أو بحقّ^٤.

وقد استعمل القرآن الاعتداء والعدوان والعداوة والعدو والعادي في سياقات مختلفة^٥ مثل النهي عن الاعتداء^٦، ووجوب مقاومته بالإحسان أو العدل^٧، وسوء عاقبة أهله إن كان بغير حقّ^٨، أمّا معاداة المشركين وأهل الباطل فهي واجبة ومطلوبة، بل ورّد التحذير منهم ومن موالاتهم^٩، وأمّا المضطرّ المقتصد الذي يتجاوز حدود المباح لضرورة فلم يرتّب القرآن على فعله إنثماً أو عقاباً.

وتتلخّص مجموع استعمالات القرآن لهذه المفردة في معنيين أساسيين: الأوّل الظلم، والثاني تجاوز حدود الله وما أمر به إلى غيرها^{١٠}.

١ التوقيف على مهمات التعاريف: ٢٣٨.

٢ التعريفات: ١٥٢، والتوقيف على مهمات التعاريف: الموضع نفسه.

٣ شرح حديث لبيك اللهم لبيك، لابن رجب: ١٠٣. وعلى هذا يمكن تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴿[النساء: ٢٩-٣٠] أنّ من يقتل عدواناً أي زيادة عن حقه في القصاص، وظلماً يقتل بغير وجه حقّ قد استحقّ العذاب.

٤ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٥/٥.

٥ ينظر: معجم الأعلام والموضوعات، عبد الصبور مرزوق: ٩٠٨-٩١١.

٦ البقرة: ١٩٠.

٧ فصلت: ٣٤.

٨ البقرة: ١٧٨.

٩ المتحنة: ١، المنافقون: ٤.

١٠ ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٣١٨-٣١٩.

سابعًا - الفساد

فَسَدَ الشَّيْءُ بَطَلَ وَاضْمَحَلَّ، ويكون بمعنى تَغَيَّرَ^١. والفسادُ: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضادّه الصّلاح، ويستعمل ذلك في النّفس والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة^٢. وقيل الفساد أخذ المال ظلماً بغير حقّ^٣.

وقد يُقال في الشَّيء مع قيام ذاته، ويقال فيه مع انتقاضها، ويقال فيه إذا بطل وزال^٤.

وقد استعملت المفردة في القرآن كثيراً، واقتربت غالباً بكلمة الأرض؛ فنهى القرآن عن الفساد وذمّه، وأوجب دفعه إن وقع، وبيّن جزاءه، كما أورد عدداً من مظاهر الفساد، وصفات المفسدين، وضرب الأمثلة لنماذج من المفسدين في الأرض^٥.

والفساد أعْمُ من الظُّلم لأنّ الظُّلم فيه نقص؛ فإنّ مَنْ سرق مال الغير فقد نقص حقّ الغير، وعليه قالوا: (من أشبه أبه فما ظلم) أي فما نقص حقّ الشبه، أمّا الفساد فيقع على ذلك وعلى الابتداع واللهو واللعب، والفاسد مأخوذ من "فَسَدَ اللَّحْمُ" إذا أَنتَنَ وأمكن الانتفاع به^٦.

ومن دلالات الفساد المذكورة في القرآن: الكفر، المعاصي، والخراب بالظُّلم والجور، والقحط، والهلاك، والبيحر^٧.

١ تاج العروس: ٤٩٦/٨.

٢ مفردات الراغب: ٦٣٦.

٣ تاج العروس، الموضع نفسه.

٤ نزهة الأعين النواظر: ٤٦٩.

٥ المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، بسام رشدي الزين: ٨٩٥-٨٩٧.

٦ الكليات: ٦٩٢.

٧ ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٣٥٧-٣٥٨، ونزهة الأعين النواظر: ٤٧٠-٤٧١.

الخلاصة

- بعد الإحصاء والدراسة تبين أن المفردات ذات الصلة بالدفع، منها ما يُعدّ رديفًا لمفهوم البحث من حيث إنه استبعاد المكروه كالدرء والردّ والكفّ، ومنها ما ورد مظهرًا من مظاهر الأذى كالصدّ والدّع، ومنها ما لم يرد في سياق الأذى ودفعه كالدسر والذّب.

- احتوت سياقات المفردات المتصلة بالأذى جملة من مظاهر الأذى التي سجّلها القرآن لذمّها أو دفعها، ومنها: فتنة المؤمنين عن دينهم، والصدّ عن سبيل الله، وبسط اليد واللّسان بالسوء، والحسد، وظلم الإنسان للآخرين بالقتل وأكل المال بالباطل.

- يلاحظ -بحسب الدلالات النصّية للمفردات- مدى عناية القرآن بتأسيس أركان البناء العقائدي في فهم ظاهرة الأذى، فالله تعالى مدبّر الأمر، بيده الخير، الحسنة والسّيئة منه إيجابًا، يملك الضّرّ والنّفع، ولا يكشف الضّرّ أحد سواه، يزّد الذين كفروا بغيظهم، ويكفّ بأسهم وأيديهم عن المؤمنين، ويصرف السوء والفحشاء عن المخلصين المحسنين، لا يزّد عذابه ولا يُصرف عمّن حاق به، ولا يُدرأ الموت حين بلوغ أجله ولا ينفع الاحتراز عنه بالفرار والقعود والتخاذل عن مقاومة الأذى، بل إنّ مقتضى الإيمان بالقضاء والقدر أن يصبر الإنسان على الأذى ويدعو الله تعالى لكشفه ويتحرّك من أجل إصلاح حاله. وأمثال ذلك كثير.

- أبانت الدّراسة المصطلحيّة عن جملة من القضايا المندرجة تحت مفهوم البحث، والتي من شأنها أن توضّح معالم الموضوع وأبعاده، منها:

١- الاحتراز عن مسبّات الأذى وآثاره، مثل الحذر من العدو، وترك موالاته.

٢- الحثّ على مقاومة الأذى ومدافعتة.

٣- الإنذار بعاقبة الإيذاء.

٤- دفع الأذى بالوسائل الحسيّة.

٥- مشروعية الردّ على الإساءة بمثلها من غير عدوان.

٦- درء السّيئة بالحسنة ودفع السّيئة بالتي هي أحسن.

الفصل الثاني

نشوء ظاهرة الأذى في ضوء دلالة الآيات القرآنية

يرمي هذا الفصل إلى البحث عن جذور ظاهرة الأذى القائمة في كل المجتمعات باطراد منذ خلق آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، وهذا الاطراد مؤشّر على أن امتداد الأذى على مرّ العصور والدُّهور سنّة من سنن الله تعالى في خلقه، قائمة بين عباده لحكم عظيمة، يعود جزء منها إلى سنّة التدافع بين الخير والشرّ والإدالة بينهما، ومنها إلى سنّة الابتلاء.

وبمقتضى هذه السنّة الإلهيّة والمشيئة الربّانية خُلِقَ الإنسان مُزدَوَج الاستعداد؛ أودع الله تعالى فيه القوّة الشّهوانيّة والقوّة الغضبيّة ليجلب ما ينفعه ويدفع عنه ما يضرّه، إذ لولا هذه القوى لما كان إنساناً بل ملكاً^١، ثمّ نصب الله تعالى العقل حاكماً وضابطاً لهاتين القوتين، لكي يفيد الإنسان منها بقدر مصلحته من غير تعدّي على مصالح الآخرين.

غير أنّه تتجاذبه نوازغ الخير التي تنادي بها فطرته، ونوازغ الشرّ التي يُزيّن لها شيطانه بحسب هواه، في سبيل توظيف قوّة الشّهوة والغضب في الحقّ أو الباطل، فتتجلّى حينها إرادة الإنسان التي منحها الله تعالى له ليختار أحد هذين النّجدين، بحسب اجتهاده في تركية نفسه أو تدسيّتها، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ۝٩﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠] ﴿فَطَرَتُ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِلُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الْدِّبْتُ الْقَيْمُ﴾ [الروم: ٣٠] ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝١١٧﴾ ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝١١٨﴾ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأُمَرِّئَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأُْمَرِّئَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]

والشّيطان في سعيه لتحريف الفطرة، يدخل على النّفس من هواها، ويوسوس لها الإفراط فيه، وعليه يُعلم أنّ النفس بحدّ ذاتها لا تُعدّ مصدراً للشرّ -كما قد يُتوهم- لأنّها فطريّة الطّبع، تتفاوت درجاتها علوّاً وانحطاطاً بحسب ما تختاره متبوعاً، فإمّا أن تكون مطمئنّة أو لؤامة أو أمارة بالسّوء.

١ ينظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم: ٣٦٨.

وحيث يُنسبُ إليها فعلُ الشرِّ في مواضع من القرآن فالمراد به اتِّباعُها لخطوات الشَّيطان أو فرطُ انسياقِها وفقِّ هواها كما سيأتي تفصيله في هذا الفصل.

يتبيَّن إذن من المقدِّمة السَّابقة أنَّ قيام ظاهرة الأذى الاجتماعي في الكون تعود إلى أسباب ثلاثة:

- ١- سنن الله تعالى في الاجتماع البشري.
 - ٢- تسلُّط الشيطان على الإنسان.
 - ٣- الاتِّباع المفرط لهوى النَّفس.
- وكلُّ ما ذُكر في القرآن الكريم من أسباب مباشرة لأيِّ واقعة أذى اجتماعي تعود جذورها إلى هذه الأسباب الثلاثة.

وقدَّمْتُ -في الذِّكر- الشَّيطان على النَّفس؛ لأنَّه يُعدُّ منبعًا للشرِّ ابتداءً، وهو يدخل على النَّفس من منفذ شهواتها، أمَّا هوى النَّفس فهو موضوع أساسًا لقيام مصلحة الإنسان، ويُدْمُ فقط عند إسرافه وجنوحه.

المبحث الأول

سنن الله الاجتماعية

قبل الدخول في الحديث عن علاقة السنن بظاهرة الأذى لابد من تمهيد يُعرّف بمفهوم السنن. عُرِفَت السنن الإلهية تعريفات عدّة قديماً وحديثاً، وكلّها متقاربة، مُجمّعة على أنّها فعله جلّ وعلا وتدبيره وحكمته لهذا الوجود وما فيه ومن فيه^١.

واخترت أن أذكر تعريفات بعض المعاصرين باعتبارها استفادت من تعريفات من سبقها وأضافت إليها، وحاولت ضبطها بأخصر عبارة جامعة مانعة. ومن هذه التعريفات:

- النّواميس والقوانين المطّردة التي تحكم نظام الكون بما فيه الإنسان وفق إرادة الله تعالى في خلقه^٢.

- الأنساق القانونيّة التي بنّها الله تعالى في كلّ المفردات الكونيّة لتخضع له سبحانه في إطارٍ وانتظام^٣. وهي نوعان^٤:

الأول: سنن تتعلّق بالجانب المادّي من هذا الكون، ويُعرف بسنن الكون أو الطبيعة أو الآفاق.

الثاني: سنن خاصّة بالإنسان، وتسمّى سنن الاجتماع، أو سنن الأنفس، أو السنن الشرعيّة أو الأمرية، وهي التي نحن بصدد بيان علاقتها بظاهرة الأذى.

فالسنن الاجتماعيّة هي النّواميس المتحكّمة في الإنسان -باعتباره فرداً وجماعة وأمة- وفي فكره وسلوكه وحركته في المجتمع وفاعليته في التاريخ^٥، وباختصار هي الأنظمة الحاكمة للسلوك والعلاقات البشرية.

١ السنن الإلهية الكونية والاجتماعية، رشيد كهوس: ١٧١.

٢ السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، السايي، مجلة رسالة القرآن.

٣ السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، عمر حيدوسي: ١٩٢.

٤ السنن الإلهية، كهوس، ١٧٢. سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، حسن بن صالح الحميد: ٢٤.

٥ السنن الإلهية، كهوس: ١٧٦.

ومن أبرز هذه السنن، سنّة التدافع وما يتعلّق بها من سنن الاختلاف والتّفاضل، وسنن الابتلاء والإدالة.

المطلب الأول

سنة التدافع

والمقصود بسنّة التدافع: القانون الإلهي في توجيه التّفاعل بين القوى المتعددة بحيث يؤثّر كلّ منهما في الآخر ويتأثّر به، إيجاباً أو سلباً، وذلك بصورة مستمرة ومتابعة ناشئة عن اختلاف التّصورات أو الطّباع بدرجات متفاوتة في القوّة، ممّا يسهم في تحقيق التّوازن بينها أولاً، وينتهي بظهور بعضها على بعض آخرًا^١.

إذن فالتّدافع مرتبط في جذوره "بالوجود البشري المتغاير المتنوّع المتضادّ المتصارع على الأرض... إذا ما أريد للحياة الإنسانية أن تتحرّك وتتقدّم وتتجاوز مواقع السّكون والرّكود والفساد"^٢ كما أشارت إليه الآية: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وها هنا نقطة الالتقاء مع نشوء هذه الظاهرة، فالتّدافع بين الناس منشؤه اختلافهم "على صعيد العواطف والأمزجة والأهواء والرّؤية والفهم والتقدير والمعرفة والخبرة والأهداف والغايات واختلاف على صعيد المصالح والمنافع"^٣، وهذا الاختلاف وإن كان يُفرّز في بعض صورته تدافعا تعاونياً يحافظ على التعدديّة ويحقّق التكامل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الرّحرف: ٣٢]، لكنّه لابدّ بالمقابل أيضاً أن يظهر فيه جانب التّصارع والتّصادم وكأفة أشكال التّنافر والتّضادّ بسبب تخالف المصالح وربّما تعارضها ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

١ سنة التدافع من منظور إسلامي، معاذ بن محمد عبد الله أبو الفتح البيانوني: ٥.

٢ التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل: ٢٤٤.

٣ سنة التدافع، محمود يوسف سلامة، شبكة فلسطين للحوار.

الأولى: المدافعة على أشياء الحياة الدنيا ومُتَعِها ومغانمها وشهواتها، وأهدافُ هذا النَّدَافِ مَادِيَّةٌ، ومنه ما هو مباح أو مشروع، ومنه ما هو بغي وظُلْمٌ وفساد. ومن مجالات هذا الجانب: النَّدَافُ الفكري، والعلمي والسِّيَاسي والاقتصادي والإعلامي والصِّناعي والتِّقني والعسكري. وهي سُنَّةُ إِلَهِيَّةٌ ماضية أشار إليها القرآن في مواضع عدَّة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤] ﴿الْهَنَاسُ أَتَكَاثَرُ﴾ [التكاثر: ١] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّهَا فَاسْتَفِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

الثانية: المدافعة بين الحقِّ والباطل، فالحقُّ والباطل مختلفان لا يستويان، وضدَّان لا يجتمعان ولا يصطلحان، والمدافعة بينهما دائمة لا تتوقَّف ما وُجد حقٌّ وباطل^٢، والخصومة بين أولياء الحقِّ وأولياء الباطل مستمرة، وأيُّ تجاهل أو تقاعس عن هذه المدافعة مُوصِلٌ حتماً إلى أسوأ النتائج ألا وهي وقوع الفتنة في الأرض والفساد الكبير^٥.

١ ينظر: سنة التدافع من منظور إسلامي: ٦.

٢ سنة التدافع، محمود سلامة يوسف، شبكة فلسطين للحوار.

٣ المائدة: ١٠٠، فاطر: ١٩.

٤ البقرة: ١٢٠، ٢١٧.

٥ الأنفال: ٧٣.

وجديرٌ بالذِّكر أنَّ بُدُورَ هذا التدافع تعود إلى حينٍ أَعْلَمَ اللهُ تعالى ملائكتَه إقامةَ خليفةٍ في الأرض لإعمارها، وكأنَّ هذا الإعلام يحمل في مضامينه طبيعة هذا المخلوق المُستخلف، والتي تَشِي بإحدى نتائج الاختلاف البشري وتنوُّعه، وما يؤوِّل إليه اختلاطُهم من تنافرٍ وتنازعٍ^١، ثمَّ كان موقفُ إبليس إزاء السُّجود لآدم عليه السلام، ثمَّ إعلانُ تمرُّده على طاعة الله تعالى وعداوتِه الممتدَّة لآدم عليه السلام وذريَّتِه، كان ذلك مؤدَّنًا "بالصِّراع المحتوم بين الخير والشرِّ... وما يُنذر به الاختيار من إمعانٍ في التَّمرد وانحرافٍ إلى الشرِّ والضَّلال"^٢.

والحاصل أنَّ التَّدافع بين طرفين قد يكون ناشئًا عن اختلاف المنهج ويتجلَّى بوضوح في سياق الدِّفاع عن العقيدة أو الدِّين، وقد يكون ناشئًا عن أيِّ تفاعل بشريٍّ ثنائيٍّ؛ نتيجة تباين الرُّؤى واختلاف البيئة وتنوُّع الجهات وتفاوت المراتب وتعارض المصالح^٣.

١ البقرة: ٣٠.

٢ مقال في الإنسان، عائشة عبد الرحمن: ٢٨.

٣ ورد عند تفسير قوله تعالى "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" عبارات لبعض العلماء تؤكد هذا المعنى مثل قولهم: (كل أمر صدر عن اثنين فصاعدًا لم يسلم من الخلاف) (زاد المسير: ٣٤٥/٥) (لفسدتا لقضاء العادة بالخلاف بين المتكافئين) (نظم الدرر: ٧٤/٥).

المطلب الثاني

سنة التداول

التداول حصول الشيء تارة في يد هذا وتارة في يد هذا^١، ودألت الأيام دارت وتحولت من قوم إلى آخرين^٢، والإدالة جعل الشيء متحولاً منتقلاً من حالة أولية إلى أخرى^٣.

"وتبرز هذه السنة من خلال سنة التدافع بين القوى المختلفة؛ لأن فاعلية التدافع بين الناس تؤكد أن القوة والغلبة لا تدوم لطرف دون آخر، بل يبقى التداول قائماً بين القوى المتنوعة... وقد نص الشارع على سنة التداول فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]"^٤.

والمداولة تؤمن ثبات سنة المدافعة واستمرارها؛ ف"لا يمكن أن تُحسم نتيجة الصراع لصالح أمة أو فئة، حتى ولا للفئة المسلمة المؤمنة؛ لأن الباطل لا يكف عن مجابهة الحق والسعي الحثيث للاستيلاء على مواقع جديدة وكسب أنصار وأولياء كل يوم، بل كل لحظة، لا يرضى عن الحق أو يهادنه حتى يستأصل شأفته من الوجود إن استطاع، ولأن أهل الحق لا يثبتون عليه - وإن كانوا لا يتركونه بالكليّة - ولا يأخذونه بجدّ وشمول، وإن كانوا ينتسبون إليه ويخلطون فيه، وإن أخذوه بجدّ وشمول وثبتوا عليه فترة وآتى ثماره التي لا بد أن يؤتيها لم يصبروا عليه وأدركهم الضعف والغرور والتقصير ما يديل دولتهم ويعلي دولة الباطل عليهم"^٥.

ومنه يُعلم وجه النهي عن الاغترار بحال الكفار حين يتقلبون في بلادهم آمنين معتزين ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦] "فإن هذا من إبقاء الأشياء على ظاهرها من غير بحث عن أسبابها وعللها... ومن اكتنه حالهم الاجتماعية علم أن تقلبهم في البلاد وتمتعهم بالأمن والنعمة فيها ليس قائماً على أساس متين... وإنما هو من قبيل حركة الاستمرار لمحرك من

١ التوقيف على مهمات التعاريف: ٩٣.

٢ معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية: ٤٠٩/١.

٣ التحقيق في كلمات القرآن، المصطفوي: ٣٠٣/٣.

٤ سنة التدافع من منظور إسلامي، معاذ بن محمد عبد الله أبو الفتح بيانوني: ٨.

٥ سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم: ٢٣٧.

الباطل سابق لم يكن له معارض، فإذا عارضه ما عليه المؤمنون لا يلبث أن يزول بالنسبة إلى مجموعهم"١.

فإن قيل ما هي الحكمة من تغليب أولياء الباطل، يذيقون بغلبتهم أولياء الحق ألوان الأذى ويسومونهم سوء العذاب؟ وأيُّ حكمة في تكليف الناس مشاقّ المدافعة وتبعاتها؟ والإجابة عن هذا السؤال تنقلنا إلى سنّة إلهيّة أخرى تابعة لما سبقها من سنن وكاشفة عن الحكمة من وضعها:

١ تفسير المنار: ٣١٣/٤.

المطلب الثالث

سنة الابتلاء

ذكرت المعاجم اللغوية أنَّ مادَّة (بلو) تعني الامتحان والاختبار^١، وقيل إنَّما أصل المادة التَّقليب والتَّحويل لتحصيل نتيجة منظورة، أمَّا الامتحان والاختبار والتَّجربة وغيرها فهي معان مجازيَّة، ومن لوازم الأصل وآثاره بحسب الموارد^٢.

ويُلاحظ من خلال التَّعريف أنَّ الابتلاء غاية الإدالة، فما من إنسان إلَّا وهو مبتلى، مؤمنًا كان أو كافرًا أو منافقًا، فهي سنة ماضية قائمة، لا تتفكُّ عن حياة الإنسان، خُلِق وأوجد في هذه الحياة للابتلاء ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، فلا راحة ولا قُعود ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] ولا فوضى ولا إهمال ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، حاله دائرة بين الخير والشرِّ، والحسن والسيِّء ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ﴿وَبَلَوْنَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وغاية هذه الابتلاءات أن تبين ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢]، أي تنقلها من عالم الغيب إلى عالم الشَّهادة ليترتَّب عليها الجزاء^٣.

ولابدَّ في هذا السِّياق من الإشارة إلى نوعين من الابتلاءات^٤:

١ - ابتلاءات لا دُخْل للإنسان في النَّسَبُ بها: إنَّما غايُتها أن تبين للإنسان حقيقة الحياة الدُّنيا، وأنَّها معبر إلى مقرِّ الحياة الآخرة، فلا يركن إليها ولا يتعلَّق بها ولا يُفاجأ بما يواجهه من منغصات، لا يأسى على ما فاتته ولا يبالغ في الفرحه بما يتحقق له من مكاسب. ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣] عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

١ ينظر: مادة (بلو) مقاييس اللغة: ٢٩٢/١، المصباح المنير: ٢٤.

٢ التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٣٦٢/١.

٣ ينظر: سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم: ٣١٣.

٤ ينظر: الإنسان مسير أم مخير، محمد سعيد رمضان البوطي: ١٩٧، ٢٠٠.

٢- عقوبات يتحمل الإنسان مسؤوليتها بإعراضه عن التعاليم الإلهية والشرائع التي ألزم الله عباده بها؛ حماية لهم عن الاضطرابات في حياتهم وعلاقاتهم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]

وقد وصف القرآن في غير موضع موقف الإنسان حيال تعرضه للابتلاء بالخير والشر، وتتلخص مواقفه في ثلاث حالات^١:

الأولى: موقفه من عموم الابتلاء دون تخصيص موضع كلٍ منهما يكون فرحاً حال النعمة يائساً حال النعمة، فهو ناكر للجميل في حالي النعمة وممسٍ الشر، فيلفته القرآن إلى آيات القدرة الإلهية، ويدعوه للاستبصار في ملكوت الله تعالى ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣] ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٌ﴾ [فصلت: ٥١].

الثانية: موقفه حين تعقب إحدى الحالين الأخرى، فيتعدى فرحه وبطره إلى جراءة على الله تعالى في نكران نعمته وجحودها تارة، تصل في بعض مراحلها إلى الشرك، ويكون الردّ القرآني تلوياً بوقوع العقوبة على هذا الكفر والنكران ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُفٌ عَائِيَانَا قُلِ اللَّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١] ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفُّورٌ﴾ [هود: ٩] ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣-٣٤] ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسَى مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

الثالثة: موقفه عند تخلصه من الشدائد، أنه يكون منكسراً انكساراً شديداً حال الشدة، ثم يعقبه كفراً بالنعمة ونسياناً لها، فتصرح الآيات بذكر عقابه حيناً، وتصرح بتهديده به حيناً آخر ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ

١ ينظر: إن وإذا ولما في سياقات الابتلاء بالخير والشر في القرآن الكريم، رباب جمال: ٣٩٥-٣٩٦

مَعَاكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٦﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَازَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٧﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٣٨] ﴿١٣٩﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ [يونس: ١٣٩-١٤٠] ﴿١٤١﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿١٤٢﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٤٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٤٤﴾ [النحل: ٥٥].

والملاحظ عند تأمل هذه الآيات أن مجيء الضّر بعد الرّحمة لم يرد إلا مرة واحدة، وباقي الآيات كانت في مجيء الرّحمة بعد الضّر، وهو مؤكّد للسنة الإلهية أن رحمة الله تعالى تسبق غضبه، وأنه تعالى إنما يبتلي بمسّ الضّر قليلاً ليختبر إيمان عباده ثم يُنعم عليهم برحمته^١.

وحصّصت بعض التفسيرات مفهوم الإنسان في الآيات السابقة بأنه الكافر، ومن قال بعموم الجنس أرجع هذه الصفات إلى الجبلة والطبيعة البشرية^٢، ولكنّ نظائر مفردة الإنسان في القرآن الكريم، بالإضافة إلى تجليات الواقع لا يُسعفان في تعميم هذا المعنى، ولعلّ الأولى أن يقال إنّه الإنسان الذي لم تتمكّن معرفة الله تعالى في قلبه، ولم يترقّ سلوكه وفق هدي شريعة الإسلام.

ويدلّ على هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] ويُعزّز هذا المعنى أيضاً نهي القرآن عن اكتساب هذه الصفات، والإرشاد إلى تقويمها وتحويلها إلى صفات إيجابية بالتعلّم والنمو والتّغيير نحو الأحسن، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢] ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١] ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا أَلْفُومُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي المحصلة شاءت إرادة الله تعالى أن يبتلي عباده أفراداً وجماعات وأمماً بحسب طاقاتهم، وعلى اختلاف عقائدهم واستعداداتهم ومكوناتهم الروحية والعقلية والعاطفية، ليميز الخبيث من الطيّب، والمفسد من المصلح، والمسيء من المحسن، فالابتلاء يصفّل المعادن النفيسة ويمحق

١ إن وإذا ولما في سياقات الابتلاء بالخير والشر في القرآن: ٤٧٨

٢ ينظر: تفسير مقاتل: ٥٤٧/٢، المحرر الوجيز: ١٥٣/٣، ٤٨٠/٣، تفسير الرازي: ٣٢١/١٧، ٣٢٢، تفسير القرطبي: ٧٨/١١، التسهيل: ٤٩٥/١، البحر المحيط: ٧٣/٦.

المعادن الخسيسة، ولولا الابتلاء "لم تظهر فضيلة الصبر والعفو وكظم الغيظ، ولا حلاوة النصر والظفر، فإن الأشياء يظهر حسنها بأضدادها"^١.

ومن مظاهر الابتلاء: أن يبتلي الله تعالى المؤمن بالشدائد لتمحيصه وتنقيته من الادعاءات والشوائب ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُزَكَّوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، ويبتلي الكافر لإقامة الحجة عليه ومحقق شروره ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١] ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ويجعل في اجتماع الناس بعضهم ببعض فتنة، وفي ارتقاع بعضهم على بعض فتنة ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وفي تسلط الكافرين فتنة؛ لتنقية الصف المؤمن من أدياء الإيمان ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠-١١] ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْصَرَفْنَاهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، فالؤمنون الصادقون يواجهون الأذى بثبات وصبر ويجاهدون في دفعه ما أمكن، وحالهم يقول: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، ويعاين الابتلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض فتخور قواهم وتتحل عراهم، يرتدون على أدبارهم، وينكصون على أعقابهم، يقولون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

هكذا هي حياة البشر مليئة بالابتلاء، مشوبة بالكدر، لا يكاد يسلم إنسان من أذى يصيبه يوماً من قريب له أو بعيد، بقصد أو بغير قصد، لتزكو نفسه بمشاعر الصبر وتقوى بالمجاهدة، من غير يأس ولا استسلام كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ﴿فَلَا يَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَسْمُوا أَتَعْلَمُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَبَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٢٥) ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ الْوَدُنُ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّسُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥-٣٦]

١ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم: ٤٣٨.

ولذلك كان لابد من تدريب الهمم، وترويض القوى النفسية والملكات العقلية كذلك لتلقي
الابتلاء بنفوس مطمئنة راضية، تُحيل البليّة عطية، والمحنة منحة، كي يرث الإنسان جنّة الله
العالية عن استحقاق بعد أن يكابد ويعاني في دنياه المكاره ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]
﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

المبحث الثاني

دور الشيطان في إيقاع الأذى

بدأت عداوة الشيطان للإنسان منذ أمر الله تعالى الملائكة -وهو معهم لا منهم على الأرجح- بالسُّجود لآدم، فتملكه الحسد، وحمل راية الغواية للإنسان، ليقعده عن صراط الله المستقيم ويستميل نفسه إلى الفجور، يزينه لها ويحببها فيه حتى تألفه وتقرّفه.

بيد أن الذي يستقرئ آيات القرآن الكريم يلحظ أن القرآن ينسب الأمر بالسُّوء للنفس تارة، مثل قوله تعالى: ﴿رَمَّا أَبْرَئُ نَفْسِي مِنَ النَّفْسِ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠] ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨] ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦]، وينسبه تارة أخرى إلى الشيطان مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠] ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] ﴿وَجَدْتُهُمْ وَاقِفَةً يُسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، فكيف يُوفق بين الأمرين؟

الجواب: أن نسبته إلى الشيطان نسبةً إلى الموسوس به، ونسبته إلى النفس نسبةً إلى المستجيب المنفذ له، يأمر الشيطان أمر وسوسة، والنفس تأمر به أمر تنفيذ، ولذلك حمل القرآن المسؤولية للنفس، قال الله تعالى مخبراً عن الشيطان وما يقول لأوليائه يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].^١

وبناء على هذا سيتم في هذا المبحث بيان دور الشيطان في استمالة النفس إلى الفجور عبر باب الشهوات والأهواء.

١ التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، محمد عز الدين توفيق: ٨٧-٨٨.

المطلب الأول

التعريف بالشيطان

أولاً: الجذر والاشتقاق اللغوي

اختلف أهل اللغة في الأصل اللغوي لكلمة الشَّيْطَان، فمنهم من ذهب إلى أنها (فيعال) من (شَطَنَ) بمعنى البُعد أو الحبل الطويل شديد القتل، والنون أصلية، ومنهم من قال بأنها (فعلان) من (شاط يشيط) إذا هلك واحترق، والنون زائدة^١.

والأكثر على أنها تعود إلى الجذر اللغوي الأول، أي إِنَّ النُّون فيه أصلية، مستدلّين بقول أمية بن أبي الصلت^٢ (٥ هـ) يذكر سليمان النبي:

أَيُّمَا شَاطِئٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السِّجْنِ وَالْأَغْلَالِ

أراد أيُّمَا شيطان، فقد بناه هنا على فاعل وجعل النون فيه أصلية، وقولهم في الجمع شياطين دليل آخر كذلك^٣. ومن مصاديق الشَّطْن: قولهم بنَّرْ شَطُون أي بعيدة القعر ملتوية عرجاء، وحرب شَطُون عسرة شديدة، ورمح شَطُون طويل أعرج.

يتلخَّص ممَّا سبق أنَّه لابدُّ من استحضار عنصرين أساسيين لتصور مفهوم الشَّطْن، هما البعد والعوج؛ وهذا يتحقق في الشيطان المعروف من حيث إِنَّ خفاءه بُعْدٌ، وتمرُّده اعوجاج، وهذا التمرُّد هو أساس كلّ أعماله ووظائفه ممَّا أُسْنِدَ إليه في القرآن الكريم^٤.

١ ينظر: (شطن) تهذيب اللغة: ٣١١/١ - ٣١٢، مقاييس اللغة: ١٨٣/٣ - ١٨٤، مفردات الراغب: ٤٥٤، لسان العرب: ٢٢٦٤.

٢ أمية بن أبي الصلت الثَّقَفِي، الشاعر المشهور، اتفقت العرب على أنه أشعر ثَقِيف، صدَّقه النبي صلى الله عليه وسلم في بعض شعره، وقال (كاد أن يسلم)، كان في الجاهلية ممن يقرأ الكتب، ويتعبد بذكر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقد حرم على نفسه الخمر، وتجنب الأوثان، وطمع في النبوة، وأدرك النبي ولم يسلم حسداً (ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني: ٤٤١/١).

٣ ينظر: تهذيب اللغة، الموضع نفسه، مقاييس اللغة: ١٨٥/٣، لسان العرب: ٢٢٦٥، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل: ٢٣٥٠/٤.

٤ ينظر: التحقيق في كلمات القرآن: ٧٣/٦، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: الموضع نفسه.

ثانيًا: المعنى الشرعي

قال ابن فارس (٣٩٥هـ): "الشَّيْطَانُ هو كُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْذُّوَابِ"^١، وبما أنَّ العنوان مخصوص بالمعنى الشرعي، وليس في القرآن نسبة الشَّيْطَانَةِ للدواب، فالأولى أن يُكتفى بتخصيص الجنِّ والإنس من عموم المفهوم. وقيل: الشَّيْطَانُ الشَّدِيدُ البعد عن محل الخير^٢، وقال الكفوي^٣ (١٠٩٤هـ): "كُلُّ شَيْطَانٍ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ فَالمراد إبليسُ وجنوده إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] فَإِنَّ المراد المجاهرون بالكفر أو كبار المنافقين... والشَّيْطَانُ هو الْمُحْرِقُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْعَصِيُّ الْآبِي الْمَمْتَلئُ شَرًّا وَمَكْرًا، أَوِ الْمَتَمَادِي فِي الطُّغْيَانِ الْمَمْتَدُّ إِلَى الْعَصْيَانِ"^٤. وقيل: مخلوق خبيث لا يُرى يُغري بالفساد والشر^٥.

ثالثًا: العلاقة بين إبليس والشَّيْطَانِ

ورد ذكر إبليس في القرآن الكريم مطردًا في سياق قصَّة الأمر بالسُّجود لآدم إلا في موضعين، الأول قوله تعالى: ﴿فَكَبَّكُوا فِيهَا هُم وَالْغَاوُونَ ۖ﴾^{١٤} وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿ [الشعراء: ٩٤-٩٥]، والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، أمَّا لفظ (شيطان) فقد وردت مادته في القرآن ثماني وثمانين مرة، قُصِدَ بها حينًا تحديدُ شيطان معين، كما في الشَّيْطَانِ الذي وسوس لآدم وحواء، وأُريد بها في مواضع أخرى المفهوم المُطلق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠].

والسؤال الذي يُثار هنا: ما وجه الارتباط بين إبليس والشَّيْطَانِ، وهل في القرآن ما يدلُّ على أنَّ الشَّيْطَانِ الذي وسوس لآدم في الجنَّة هو عينه إبليس الذي استتكف عن الامتثال لأمر الله تعالى بالسُّجود لآدم؟

١ مقاييس اللغة: ١٨٤/٣، وينظر: المصباح المنير: ١١٩، مفردات الراغب: ٤٥٤، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة: ١٧/٢.

٢ التوقيف على مهمات التعريف: ٢١٠.

٣ الكفوي هو أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، كان من قضاة الأحناف، صاحب كتاب الكليات، عاش وولي القضاء بتركيا، توفي سنة أربع وتسعين وألف للهجرة. (الأعلام: ٣٨/٢)

٤ الكليات: ٥٤٠.

٥ معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ١٧/٢.

إنَّ الرجوع إلى كتب المفسرين والنَّظَر في اختلافهم حول حقيقة إبليس وحضوره في قصة آدم مبحثٌ طويل ليس محله هنا، وإنَّ في القرآن العظيم غنيَّةً للسَّائل عن الجدل، وبما أنَّ القرآن يُفسِّر بعضه بعضًا فقد صيغت القصَّة في بعض السِّياقات بما يزيل اللَّبس عن السِّياقات الأخرى، وفيما يلي بيان ذلك:

كان إبليس من الجنِّ، بل أصلُ الجنِّ، كما أنَّ آدم عليه السلام أصلُ الإنس ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، ولذا ذُكر علماً مع آدم عليه السلام، باعتباره مخلوقاً يرى ويسمع ويحاور ويجادل ويمتنع عن الأمر الإلهي ويطلب الإمهال ليوم القيامة وغيره، لكنَّه بعد أن طُرد من رحمة الله تعالى ظهر بصفته في سياق الآيات التي تحدَّثت عنه أو عن ذريَّته وجنوده وأعدائه، وصار يُرمز إليه بلفظ الشَّيطان باعتبار عمَلِه ووظيفته المتمثِّلة بالوسوسة والإغواء والتَّزيين لبني آدم، ويُلاحَظ في قصَّة آدم عليه السلام كيف بدأت مع إبليس وخُتمت بالشَّيطان: ففي سورة الأعراف ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] ثم تحوَّل ﴿فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَكَمَارَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وابتدأت القصَّة في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ثم قال ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

ولم يُذكر الشَّيطان في موضعي (الحجر وص)؛ لأنَّ آياتيهما اقتصرَت على قصَّة السجود، ولم تُتَّبَع بقصَّة الأكل من الشَّجرة.

فإن قيل: ما الدَّليل على أنَّ الشَّيطان في قصَّة الأكل من الشَّجرة هو إبليس في قصَّة الأمر بالسجود؟

والجواب مبنوٌّ في نصوص الآيات القرآنية التي ساقَت القصَّة -أولاً-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [البقرة: ٣٦] ﴿فَقُلْنَا يَنْدِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا

مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ﴿طه: ١١٦-١١٧﴾. ﴿فَازِلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]
﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وفي نصوص الآيات التي قرّرت حدود سلطان الشيطان على الإنسان المحصورة في الوسوسة والتغدير والموعدة الكاذبة والإغواء وما شابه ذلك -ثانياً-: قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ثم قال تعالى مخاطباً إبليس: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخِيلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤] وعلى لسان الشيطان في النار ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وتحدّث القرآن في موضع آخر عن إبليس: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ الْآخِرَةَ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿سبأ: ٢٠-٢١﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَكَلَّكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿الحجر: ٣٩-٤٢﴾ ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿الأعراف: ١٧﴾.

وعن ذريته: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]

والهدف من سرد جميع ما سبق بناء تصوّر واضح عن حقيقة أصل الشيطان واختلافه عن الملائكة الكرام، لمعرفة كيف بدأت قصّة غوايته للإنسان.

وقد تبين أنّ الشيطان -بحسب عُرف الشرع- اسمُ جنسٍ يعُمُّ إبليس وذريّته وجنوده، وهو الجانُّ المتمرّدُ المخلوقُ من النار. وأنّ إبليس قد شمله الأمرُ بالسُّجودِ لِآدَمَ مع الملائكة -سواء كان ضمن الأمر العام أو توجّه الأمر إليه خصوصاً- لأنّه كان حاضراً بينهم ومعهم، لا لأنّه منهم

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾^(٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَبْنَؤُا إِبْلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ [الحجر: ٣٠-٣٣] وفي موضع آخر: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]. وصار إبليس بعصيانته لله تعالى فيما أمره شيطاناً مريداً، وبناء عليه ينصرف إطلاق كلمة الشيطان إلى الجنِّ أتباع إبليس، ثمَّ إلى الإنسان - إذا سلك مسلك إبليس - بقرينة^١.

١ ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٧٣/٦.

المطلب الثاني

علاقة الشيطان بالإنسان

سبق القول أنَّ عداوة الشيطان لآدم وذريته بدأت بعدما صدر أمر الله تعالى بالسُّجود لآدم، وتُبيِّنُ مجموع الآيات التي ذكرت القصة منشأ العداوة، وأنها انبعثت بدافع الإباء والاستكبار والعُجب والاحتقار^١، وقد جرَّه كبريائه إلى هُبوِّه من الجنَّة وطرده من منازل الملائكة^٢، لكنَّه بدَّل أن يؤوب ويتوب أضاف إلى كبره حقداً، فاستحقَّ لعنة الله عليه إلى يوم القيامة، حينها طلب إبليس إمهاله إلى البعث؛ لئلاً يكون وحيد العاقبة السيئة، وتوعَّد ذرية آدم عليه السلام بالإغواء لتكون نهايتهم كنهائته، فهذه هي غاية الشيطان الكبرى إذن أن يُضِلَّ النَّاسَ ويصدِّهم عن سبيل الله ويُوقِعَهم في الكفر والمُحرِّمات فيفسد عليهم أمر دنياهم وآخرتهم^٣.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١] تعبيرٌ بلاغيٌّ دقيق، يبيِّنُ منهج الشيطان في التدرُّج نحو السيئة خطوة خطوة، فهو يدخل على نفس الإنسان ممَّا تهواه وتميل إليه، ويبدأ من المباح يتوسَّع فيه ويتوسَّع، حتى يوصله إلى الشُّبهات فيهوِّنُ أمرها له، ويستدرجُه شيئاً فشيئاً حتى يوقعه في الحرام.

وبتوضيح أدقَّ، فإنَّ الشيطان لا يصطدم مع الإنسان، مبادئه ومعتقداته وعاداته بطريقة مباشرة، لأنَّها ستكون -بلا شك- سجلاً خاسراً، فلو أنَّه زَيَّن للكريم أن يبخل بماله لطرده عنه هذا الوسواس بلا تردُّد، لأنَّ الكريم قد هذَّب دافع الحرص، لكنَّ الشيطان يدخل عليه من منافذ أخرى، وينكي دوافع كامنة تُنقص من قيمة كرمه، مثل التَّبذير والإسراف في النفقة ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، أو الإنفاق رياءً ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]، وبالمقابل لا يأتي إلى المقصد ليسوِّل له التَّبذير، وإنما يُحسِّن له جانب الحرص، فيدعوه إلى التَّقنير ثمَّ إلى البخل وربَّما يجرُّه إلى الطَّمع إن وجد في نفسه ميلاً لذلك، ومقصوده في كلا الحالتين إخراج الرَّجُلَيْنِ عن الصراط المستقيم.

١ البقرة: ٣٤، الأعراف: ١٢، الحجر: ٣١، الإسراء: ٦١، طه: ١١٦، ص: ٧٤.

٢ الأعراف: ١٣، الحجر: ٣٤، ص: ٧٧.

٣ النساء: ٦٠، المائدة: ٩١، الحجر: ٣٩، النور: ٢١، ص: ٧٨-٧٩، ٨٢، فاطر: ٦.

يقول ابن القيم^١ (٧٥١هـ): "فإنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الآدميَّ، واختاره من بين سائر البرية، وجعل قلبه محلَّ كنوزه من الإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والحياء والتعظيم والمراقبة، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأفضله وهو النظرُ إلى وجهه والفورُ برضوانه ومجاورته في جنَّته، وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه، فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه، فتميل نفسه معه؛ لأنه يدخل عليها بما تحب، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد، ثلاثة مُسلَّطون آمرون، فيبعثون الجوارح في قضاء وطَّريهم، والجوارح آلة منقادة، فلا يمكنها إلا الانبعاث، فهذا شأن هذه الثلاثة وشأن الجوارح، فلا تزال الجوارح في طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا"^٢.

١ ابن القيم: شمس الدين، محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، من كبار فقهاء الحنابلة، عالم محقق مفسر، لازم ابن تيمية، من كتبه: تفسير المعوذتين، وتفسير الفاتحة، والتبيان في أقسام القرآن، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمئة. (طبقات المفسرين: ٢٨٤، معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر: ٥٠٣/٢)

٢ ينظر: الوابل الصيب: ٣١-٣٢.

المطلب الثالث

أساليب الشيطان وصلتها بالتسبب بالأذى

قد مرَّ سابقًا أنَّ الشَّيْطَانَ تَبَعَ لِلنَّفْسِ من حيث الاستمالة للشَّهَوَاتِ^١، والنَّفْسُ تَبَعَ لِلشَّيْطَانِ من حيث الأمرُ بالسُّوءِ^٢، وقد خَبِرَ الشَّيْطَانُ ضَعْفَ ابْنِ آدَمَ أمام حاجاته وشهوته، فتعهَّد أن يحشد له من أساليب الإغواء ما يكفل وقوعه في أسر المعاصي ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، فقد دلَّت هذه الآية على قوَّة عزم الشَّيْطَانِ وطول دأبه وبذله كلَّ ما يملك من أساليب ووسائل وخطوات وغايات، بهدف تشويه فطرة الإنسان والانحراف بها عن جادة الحق.

وأخبر القرآن عن ثلاثة أساليب للشَّيْطَانِ في إلقاء الغواية إلى قلب الإنسان هي^٣:

- الوسوسة (الدُّخُولُ إِلَى الصَّدْرِ ساحة القلب وإلقاء الباطل فيه) ﴿فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّبِعُكُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

- والإيحاء (على طريق الرَّمز والإشارة والتَّعْرِيض والكتابة) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ومنه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]

- والخطاب الصريح (القول المباشر بالألفاظ الصريحة) وهذه الوسيلة تكاد تكون منعدمة في حالة إغواء شياطين الجن للإنس وبالعكس، إلا أن يتمثَّل الشَّيْطَانُ على هيئة بشريَّة مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ

١ الأعراف: ١٧٥، ق: ٢٧.

٢ إبراهيم: ٢٢.

٣ ينظر: الشيطان خطواته وغاياته، وائل عمر علي بشير: ١٠٨-١٢٠.

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿[الأنفال: ٤٨]﴾، والأعمُّ الأغلب في هذه الوسيلة إغواء الجنِّ للجنِّ وإغواء الإنس للإنس.

وضمن الوسوسة، وهي الأسلوب الأول والشائع، ينهض الشَّيْطَانُ بجميع مهامه التَّضليلية، من تزيين وتسويل، وإنساء، وتمنية وإملاء، وتخويف من الفقر والموت، ونزغ ومس. وترتبط هذه الأساليب بخطوات يستدرج بها الشَّيْطَانُ الإنسانَ ليقع أخيراً في حباله، والنَّاظر في هذه الخطوات يلحظ خطورة مفسدها من حيثُ التَّقْرِيط بإحدى كَلَيَّاتِ الشَّرِيعَةِ ومقاصدها، في تطبيقاتها المرتبطة بالتفاعل الاجتماعي. فمن أوامره في جانب الدين: التحاكم إلى الطاغوت^١، والقول على الله بغير علم^٢، والسَّحر^٣، والتَّوَلَّى يومَ الرَّحْفِ^٤، أو الإرجاف وتثبيط الهمم^٥، واستهزاء الكفَّار بالمسلمين ودينهم^٦.

ومن خطواته في جانب النَّفْسِ بمفهومها الواسع الذي يشمل العقل والعاطفة والضمير والجسد: القتل بغير حق^٧، تغيير خلق الله^٨، تعطيل العقل وتقليد الآباء^٩، تحسين الباطل وتسويغه حتى يرى المرء سوء صنيعه حسناً^{١٠}، شرب الخمر المفضي للمنازعة^{١١}، التشويش على الذاكرة^{١٢}.

ومن خطواته في جانب العِرض: الزَّنا والقذف وكشف العورات وكلُّ ما يدعو إلى إشاعة الفاحشة^{١٣}، بثُّ العداوة ونشر الفساد بين الإخوة والأرحام^{١٤}، الخوض في الباطل: ويشمل الكذب

١ النساء: ٦٠.

٢ البقرة: ١٦٨-١٦٩.

٣ البقرة: ١٠٢.

٤ آل عمران: ١٥٥.

٥ آل عمران: ١٧٥، الأنفال: ٤٨.

٦ الأنعام: ٦٨.

٧ القصص: ١٥.

٨ النساء: ١١٩.

٩ لقمان: ٢١.

١٠ الأنعام: ١١٢، الأعراف: ٣٠، النحل: ٦٣، الزخرف: ٣٧.

١١ المائدة: ٩٠-٩١.

١٢ الأنعام: ٦٨، يوسف: ٤٢.

١٣ الأعراف: ٢٧، الإسراء: ٦٤، النور: ١٩-٢١.

١٤ يوسف: ٥، ١٠٠، محمد: ٢٢-٢٥.

والبهتان والإفك وقالة السوء والتناجي بالإثم والعدوان والجدال العقيم^١.

وفي جانب المال: كسب المال الحرام^٢، البخل وإمساك اليد خوف الفقر^٣، الإساءة في الإنفاق، إمّا بالإنفاق من الرديء أو الإنفاق مراعاة، أو في غير طاعة الله تعالى، أو الإسراف والتبذير في النفقة^٤.

١ البقرة: ٢٠٤-٢٠٨، الأنعام: ١٢١، الإسراء: ٥٣، الشعراء: ٢٢١-٢٢٣، المجادلة: ٩-١٠، ١٤-١٩.

٢ الإسراء: ٦٤.

٣ البقرة: ٢٦٨، ق: ٢٧.

٤ البقرة: ٢٦٧-٢٦٨، النساء: ٣٨، المائدة: ٩٠-٩١، الأنعام: ١٤١-١٤٢، الإسراء: ٢٦-٢٧.

المبحث الثالث

هوى النفس

كثيراً ما يُظنُّ أنَّ النَّفس الإنسانية هي معقل السوء ورأس الآفات والدّاعية للإثم، وفي هذا خلط بين النفس وإفراط هواها، فالنفس فطرية، أصلها السلامة، إذا اتّبعَت الهداية اهتدت وارتقت، وإذا انقادت لهواها تاهت وهوت.

والنفس في القرآن الكريم مكرمة محرمة، لا يحلُّ الاعتداء عليها، ولا تُكَلَّف فوق طاقتها، أمرها إلى الله تعالى، هو سؤاها وإليه مصيرها ومأواها، وهو أعلم بها، رقيبٌ عليها حفيظٌ لها، يمحّصها بالابتلاء ويجعلها نواة الارتقاء، قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دساها.

الأصل أنّها في أوّل أحوالها سويّة، مُزدوّجة الاستعداد، مُلهمة طريق الفجور وطريق التقوى، ميّالة للطيبات نافرة من الخبائث، ثمّ إن أذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سمّيت أمارة بالسوء ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨] ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، أو هي لؤامة تتقلب بين الهوى والهدى، لكنّ ضميرها حيّ يقظ ﴿وَأَخْرُونا عَنْ أَزْوَاجِهِمْ مَا ظَلَمُوا﴾ [التوبة: ١٠٢]، أو مطمئنة قد سلكت طريق العبودية بمعناها الشّامل العميق^١، فتحقّق لها نعيم الدّنيا المتمثّل بالحياة الطّيبة ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] -وعكسها المعيشة الضّنك ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]-، ونعيم الآخرة المتمثّل برضوان الله تعالى والخلود في جنّته ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

١ العبودية بمعناها الشّامل العميق هي اصطباغ حياة الإنسان بكل جوانبها الروحية والمعنوية والمادية، وبكل مستوياتها الفردية والجماعية والمجتمعية بروح الخضوع الواعي المبصر والمحّب لأوامر الله ومنهجه الذي أودعه بين دفتي القرآن الكريم. (مفهوم التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، حازم محي الدين، بحث غير منشور: ١١).

المطلب الأول

تعريف الهوى

أولاً: المعنى اللغوي للهوى

الهاء والواو والياء أصل صحيح يدل على خُلُوٍّ وسقوط، والهَوِيُّ ذهابٌ في انحدار، وقيل السَّريع إلى أسفل^١، وهوى يهوي هَوِيًّا وهَوِيًّا سقط من عُلُوٍّ إلى أسفل^٢، يقال هوى من الجبل وهوى في البئر. وأهوى إلى سيفه تناوله بيده، وأهوى إلى الشيء بيده مَدَّها ليأخذه إذا كان عن قرب، فإذا كان عن بُعد قيل هوى، وأهويت بالشيء أومأت إليه^٣.

ويُقال أيضًا: هَوَتْ يدي للشيء وأهوت امتدَّت وارتفعت، وقالوا في ذلك أَنَّ الهَوِيَّ بفتح الهاء إلى أسفل، وبضمِّها إلى فوق، هوى الرجل هَوِيًّا إذا هبط، وهوى هَوِيًّا إذا صعد، وقيل العكس^٤.

والهواء كلُّ فُرْجَةٍ بين شيئين، وهو الخواء أو الخلاء، ورجلٌ هَوَاءٌ إذا كان جبانًا، كأنَّه لا قلب له.

والهوى مصدر هَوِيَه إذا أَحَبَّه واشتَهاه، ثم سَمِيَ به المشتَهَى سواء كان محمودًا أو مذمومًا، ثمَّ غلب استعماله على الميل المذموم عند الإطلاق^٥، وقال اللُّغَوِيُّونَ الهوى محبَّة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه^٦.

فالأصل في المعنى اللغوي إذن تمايلٌ إلى سفلى، ومن مصاديقه ميل النَّفس إلى الشَّهوات والأمور المادية، وما ورد بمعنى الصُّعود أو الارتفاع فهو يرجع حقيقة إلى معنى التَّمايل إلى سطح الجبل أو الأرض، وليس فيه ارتفاع، وإنَّما ارتفاع بالنسبة إلى المهواة^٧.

١ ينظر: مادة (هوى) تهذيب اللغة: ٤٨٨/٦، مقاييس اللغة: ١٥/٦ - ١٦.

٢ تهذيب اللغة: الموضع نفسه، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده: ٤٥٠/٤.

٣ المصباح المنير: ٢٤٦.

٤ لسان العرب: ٤٧٢٧.

٥ المغرب: ٣٩٢/٢، المصباح المنير: الموضع نفسه.

٦ لسان العرب: ٤٧٢٨.

٧ التحقيق في كلمات القرآن: ٣٢٨/١١ - ٣٢٩.

ثانيًا: المعنى الشرعي لمركب (هوى النفس)

تعددت التعريفات للهوى، والمؤدَّى واحد من حيث ارتباط الهوى بما تحبُّه النفس وتميل إليه من لذات عاجلة، ومن هذه التعريفات:

- ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات^١.
 - لفظٌ يجمع حظوظ النفس في الدنيا، ومن معانيه ميل الناس إلى المألوفات^٢.
 - ميل الطبع إلى ما يلائمه لضرورة بقائه^٣.
- ولم يُفرِّق معظم المفسرين بين الهوى والشهوة، لكنَّ الماوردي^٤ (٤٥٠هـ) تحرَّى فرقًا بينهما، فقال: "فأما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول، واتفاقهما في الدلالة والمدلول، فهو أنَّ الهوى مختصُّ بالآراء والاعتقادات، والشهوة مختصة بنيل اللذة، فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي أخصُّ، والهوى أصلٌ هو أعمُّ"^٥.

وقال الزاغب (٤٢٥هـ): "إن قيل ما الفرق بين الشهوة والهوى، قيل الشهوة ضربان، محمودة ومذمومة، فالمحمودة من فعل الله سبحانه، وهي قوَّة جعلت في الإنسان لتتبع بها النفس لنيل ما يُظنُّ أنَّ فيه صلاح البدن، والمذمومة من فعل البشر وهي استجابة النفس لما فيه لذاتها البدنية، والهوى هي هذه الشهوة الغالبة إذا استتبعَت الفكرة، وذلك أنَّ الفكرة بين العقل والشهوة، فالعقل فوقها

١ ينظر: تفسير الماتريدي: ٦٢٠/٨، مفردات الراغب: ٨٤٩، التعريفات: ٢٧٨، المحرر الوجيز: ٤٣٥/٥.

٢ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي: ٣٤/١، ٢٢٧/٤.

٣ ذم الهوى، ابن الجوزي: ٣٥.

٤ ينظر: تفسير الماتريدي: ٢٩٧/٦، تفسير الرازي: ١٧٦/١٣، تفسير القرطبي: ١٦٨/١٦، تفسير النسفي: ٣٠٣/٣، نظم الدرر: ٩٣/٤.

٥ الماوردي: علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي البصري الشافعي، ولي القضاء ببلاد كثيرة، له الكثير من المصنفات في الفقه والتفسير والأصول والأدب، كان حافظاً لمذهبه الفقهي عظيم القدر متقدِّماً عند السلطان، من تصانيفه: الحاوي في الفقه، والنكت والعيون في التفسير، والأحكام السلطانية، وأدب الدنيا والدين، توفي سنة خمسين وأربعمئة عن ست وثمانين. (ينظر: طبقات المفسرين: ١١٩-١٢٠)

٦ أدب الدنيا والدين، الماوردي: ٣١.

والهوى تحتها، فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن، وإذا انضعت ومالت نحو الهوى والشهوة صارت وضيعة وولدت المقابح... ولهذا قد يُسمَّى الهوى إرادة^١.

وخلاصة كلام الراغب (٤٢٥هـ) أَنَّ الشَّهْوَةَ قُوَّةٌ غَرِيزِيَّةٌ أودعها الله تعالى لبقاء الإنسان، والهوى استجابة النَّفْسِ لتأثير هذه القُوَّةِ، ولذا يُعَبَّرُ عنها بالإرادة أحياناً، فكأنَّ الهوى من نتائج الشهوة، -بعكس ما قرَّره الماوردي (٤٥٠هـ)- من حيث إنَّه الميل إلى الشَّهْوَةِ.

والواقع أنَّه لا مشاحة في الاصطلاح، وليس من أثرٍ عمليٍّ على تباين المسمَّيات، ولا ضير في تعاورهما، والمُهمُّ "أنَّ الهوى مستجلبٌ للإنسان ما يفيد، كما أنَّ الغضب دافعٌ عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذمُّ الهوى على الإطلاق، وإنما يُذَمُّ المفرط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار"^٢.

ومن مظاهر الإفراط في الهوى: المبالغة في تلبية الشَّهَوَاتِ الغريزية إلى درجة تُشغله عن الخير، وتحجبه عن طاعة الله تعالى، إلى أن تحطَّ به إلى درك البهيمية، ومنها إشباع الشَّهَوَاتِ بوسائل محرَّمة لما يترتَّب عليها من فساد وضرر؛ كشهوة الطَّعامِ المغصوب وشهوة العلاقات المحرَّمة، ومنها أن يشتهي ما لا تقتضيه الفطرة مثل شهوة الظُّلم وإهانة الناس^٣. ولما كان الغالب من موافق الهوى أنَّه لا يقف منه على حدِّ المنتفع، أطلق ذمُّ الهوى والشَّهَوَاتِ؛ لعموم غلبة الضَّرر، لأنَّه يَبْعُدُ أن يُفْهَمَ المقصود من وَضْعِ الهوى في النفس، وإذا فُهِمَ تعذَّر وجودُ العمل به ونُدِرَ^٤. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه (٦٨هـ) أنَّه قال: "ما ذكر الله هوى إلا ذمَّه"^٥.

١ الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني: ٤٦.

٢ ذمُّ الهوى: ٣٥.

٣ ينظر: التحرير والتنوير: ٩٢/١٨.

٤ ذمُّ الهوى: ٣٥.

٥ المحرر الوجيز: ٨٦/٥.

المطلب الثاني

صور الهوى المباحة والمحرمة في ضوء القرآن الكريم

طبع الله النفس البشريّة على حبّ ما يحقّق لذّتها، والميل إلى ما يكون سبباً في استجلاب مصلحتها، ولهذه الميول الفطرية دورٌ في حفظ الحياة وامتدادها، لذا أقرّها الإسلام، ودعا إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووَضَعَهَا في مكانها لا تتعدّاه، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى^١.

وقد عدّ القرآن في آية آل عمران معظم هذه الرغائب: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] فالآية تُقرّر -إذن- أنّ الميل إلى هذه المظاهر الدنيوية ممّا طبع الله الناس عليه، ثمّ خُتِمت الآية بما يشوّق الإنسان إلى نعيم الآخرة؛ بهدف تطوير هذه الطّبيعة إلى ما هو خير وأبقى، وتهذيباً لها حتّى لا تطغى على الإنسان فتجعله يستغرق فيها استغراقاً يُنسيه واجباته نحو الله والنّاس^٢.

أولاً: حبّ الذات أو حبّ الحياة

أوجب الله على الإنسان أن يَمُدّ نفسه بوسائل الإبقاء على حياته، كما أوجب عليه أن يدفع عن نفسه الهلاك، وحرم قتل النفس بغير حقّ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، لكنّ هذا الحرص على النفس يغدو مُهلكاً لصاحبها إن ضنّ الإنسان بروحه في سبيل الله، وامتنع عن مدافعة الباطل كما قال تعالى -في ضوء ما ورد في سبب النزول^٣- ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى

١ في ظلال القرآن، سيد قطب: ٣٧٤/١.

٢ التفسير الحديث: ١٢٨/٧.

٣ عن أسلم أبى عمران، قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقوا ظهورهم بجائط المدينة، فحمل رجل على العدو فقال: الناس: مه مه، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الانصار لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام، قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية. (أخرجه أبو داود في السنن، كتاب

التَّهْلُكَةِ ﴿البقرة: ١٩٥﴾، وعاب القرآن أقواماً آثروا حياتهم الدنيا على حساب دينهم وآخرتهم ﴿التوتر إلى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَةُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَةَ لَوْ لَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ ﴿النساء: ٧٧-٧٨﴾، وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ لَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ ﴿طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ [محمد: ٢٠-٢١].

ثانياً: حب المال وما يلحق به

الطَّبَاعُ مجبولة على حبِّ المال؛ ميالة إلى اقتناء أعراض الدنيا؛ لما يتحصَّلُ بذلك من منافع تعود على الفرد والمجتمع، لكنَّ هذا الحبَّ قد يزيد في بعض القلوب حتَّى يصير محبوباً لذاته لا للتوصُّل به إلى المقاصد، فيندمُّ صاحبه عندئذٍ، وربَّما يكون سبباً في هلاكه إن ترتَّب عليه نسيان ذكر الله، أو منع الخير أو سلبُ الغير لتحقيق مصالح شخصية: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيَنَتِ الْيَمَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣١-٣٣] ﴿لَا بَلَّ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧٧﴾ وَلَا تَخْضَعُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٧٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمَّا ﴿٧٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٨٠﴾﴾ [الفجر: ١٧-٢٠]

ثالثاً: حب الأهل والعشيرة

وما يتبع ذلك من علاقات تألفها النفس وترغب في القرب منها وعدم مفارقتها، فقد جعل الله تعالى في الوالدين شعوراً وجدانياً بأنَّ الولد قطعة منهما، ليكون ذلك مدعاة إلى المحافظة على الولد الذي هو الجيل المستقبل، وبقائه بقاء النوع، والطفل كذلك يشعر أنَّ أباه أعظمُ النَّاسِ وأحفظهم بالإجلال والاحترام، والأخ صينو أخيه، والزَّوج سكن، والعشيرة تعاون واعتزاز ونصرة، وقد أقرَّ الإسلام وشيجة الدَّم والنَّسب والقرباة والزَّواج، وحضَّ عليها شرط ألا تشغل المرء عن طاعة الله

الجهاد، باب في قوله عز وجل ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، رقم ٢٥١٢: ٢٨٥، والترمذي في كتاب الجامع، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم ٢٩٧٢: ٨٢/٥ وقال: حديث حسن صحيح غريب (١ تفسير المنار: ٢٧٢/١٠-٢٧٦، التحرير والتنوير: ١٠/١٥٢).

تعالى والاستجابة لداعي الخير، وألا ينحاز إليها في الباطل أو ينقاد إلى عاداته وموروثاته على حساب الحقيقة^١.

والخلاصة أنَّ الهوى إنَّما يباح اتِّباعه في المظاهر السابقة إذا وضعه الإنسان في الحلال، بل إنَّه لِيُحْمَدَ وَيَزَكَّوْا إِنْ وَجَّهَهُ قَبْلَ شَرِّهِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَالِلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ)^٢.

وقد قُبِدَتْ الآية ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠] بالهوى المؤذي والمكروه وغير المرضي والمحرم^٣؛ إذ لا يصحُّ نهيها عن مطلق هواها؛ لأنَّه تكليف بما لا يُطاق.

١ الفتح: ١١، التغابن: ١٤-١٥.

٢ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٦: ٤٤٨.

٣ ينظر: تفسير الطبري: ٩٨/٢٤، زاد المسير: ٢٤/٩، تفسير النسفي: ٥٩٩/٣.

المطلب الثالث

أثر اتباع الهوى في حصول الأذى

لم يفصل القرآن في تعداد الآثار المترتبة على اتباع الهوى، واكتفى بالإشارة إلى مفاتيح جامعة تحمل في مضامينها مختلف صنوف الأذى، وهذه المفاتيح تُعدُّ منافذ الشيطان في غواية الإنسان ضعيف الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰ اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلْ إِنَّكَ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِلنَّاسِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]

وقد تمَّ استنباط الآثار بعد استقراء كامل لكلمة الهوى في القرآن الكريم بصيغتي الأفراد والجمع، وتبين أنَّ هذه الآثار حلقات مترابطة تجرُّ إحداها الأخرى.

أولاً: غياب حاكمية الله من النفوس

فالذي أَدْمَنَ اتِّبَاعَ أهوائه وتلبية شهواته لن تنفك عنه، ولا تقوى عزمته على تركها ومخالفتها، ولا يصبر على اتباع شرع الله، ويكلُّ العقل عن تبصيره بسوء العاقبة، فيصير هواه بمنزلة المعبود له ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [٢٣] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣] ففي اتباع الهوى تعطيل للعقل وزيف عن الهدى. وكلُّ مَنْ اتَّخَذَ معبوده هواه لم يرض بغيره مشرعاً ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وعليه يخلص هذا الأثر إلى ما يتبعه:

ثانياً: عدم الإذعان للحق

غالبًا ما يكون الإعراض والاستكبار عن سماع الحق وقبوله استخفافاً وسخرية ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ إِنَّهُمَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، أو لمخالفته العادة المألوفة، ومفارقته دين الآباء والأسلاف ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحَّرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [٧٧] قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي

الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ [يونس: ٧٧-٧٨] ﴿أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ الْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨١﴾ [المؤمنون: ٦٨-٧١]، أو بسبب التعصب الديني ﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٨٢﴾ فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَلْبَعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴿[الشورى: ١٤-١٥]﴾.

ويتضح من تأمل الآيات السابقة أنَّ المستكبر لا يقف عند حدود الإعراض عن الحق حتى يقرنه بما يدفع عنه صوت الحق ويخمد إرضاء لهواه، بأن يتسلط على الحق بالأذى متفاوت الدرجات بدءاً من التكذيب والإنكار بالقول مروراً بالإقصاء والنفي وانتهاءً ببسط اليد للقتل.

ثالثاً: التكذيب

وينضوي تحت هذا الأثر كافة أشكال الأذى القولي، كالاتهامات الباطلة والسُّخرية والاستهزاء والسباب ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القمر: ٢-٣]، ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ [المائدة: ٧٠]، ﴿وَلَا تَنْبَغِ أَهْوَاءُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ ... فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤٨-٥٠].

رابعاً: الإيذاء الحسي

ويتدرج في مستوياته من المكروه اليسير إلى الضرر الكبير المنتهي بالقتل، وإنه لمن المفارقات أن نجد أهل الأهواء يتبنون أفكارهم المضللة وكأنها منهجاً خليقاً بالاتباع، يلبسونها لباس الملة، ويزين لهم الشيطان حسناتها ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، حتى يرون غيرها سبلاً منحرفة مصيرها النفي والإقصاء على أقل التقديرات، والفتك بالروح في ذروة الإذابات ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرِيْبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [١٣-١٤] ﴿مُحَمَّدٌ﴾ [محمد: ١٣-١٤] ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ

وَأَيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ... ﴿١﴾ إِنَّ يَتَقَفُّوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ [المتحنة: ١-٢].

واضطهاد المستكبرين من الكافرين لأهل الإيمان ظاهرة قديمة في الأقوام السابقة منذ عهد إبراهيم عليه السلام ثم قوم نوح وعاد وشمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم موسى من ملأ فرعون ومن بني إسرائيل، وأقوام أخرى لا يعلمهم إلا الله تعالى، ثم كان الاضطهاد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين، ويستمر استهداف المؤمنين الصادقين بالاضطهاد وأقصى أنواع الإيذاء إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة، فهي سنة التدافع بين الحق والباطل^١.

إن استكبار أهل الأهواء المقتربين بمظاهر الاعتداء القولي والعملي لهو في حقيقته تجسيد لواقعة ظلم تستلزم دفعا لها ونصرة لأطرافها، لكيلا يعود وبالها على جنس الإنسان فردا وجماعة وأمة، ومن ثم يُعدُّ الظلم أثرا من آثار اتباع الهوى.

خامسا: الظلم

نهى القرآن عن اتباع الهوى في آيات عديدة، متنوعة الخطاب، موجّهة لكافة المؤمنين، من قادتها إلى عامتها، وخصّ مجالس القضاء والشهادة بالتأكيد على العدل؛ لأنها محل تحري العدالة وإنصاف الحقوق؛ فإذا كان للقرابة مثلاً حقّ المودة والإحسان، فإنّ كمال الإيمان والإحسان مقتضى أن يكون الولاء أولاً وآخرًا للحقّ والدين، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، ولذا حمل القرآن على كلّ ما يدخل تحت الحميّة الجاهليّة التي ترتبط بالهوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥] وأكد ضرورة استقامة قادة الأمة وإقامة الحقّ على يديها ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿وَأِنْ أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿يٰۤدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]

١ البقرة: ٨٧، آل عمران: ١٨٦، الأعراف: ٨٨، الأنفال: ٣٠، إبراهيم: ١٣، مريم: ٤٦، الشعراء: ١١٦، ١٦٧، النمل: ٥٦، القصص: ٢١.

وقد ضَرَبَ القرآنُ مَثَلَ السُّوءِ فِي فرعون قوم موسى الذي حَصَدَ بفرعونِيَّتِهِ الممقوتَةَ جُلَّ آثارِ
الهوى الفاسد ﴿وَقَالَ فرعونُ بَتَأْيِيهَا أَلَمَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ عَيرِ فَأَوَقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ
فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَهَانَا لِيَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: ٤٠]

الفصل الثالث

التدابير الوقائية لدفع إيذاء غير المؤمنين

أولت الشريعة الإسلامية نفس الإنسان أهميّة كبيرة، حفظًا وتكريماً، فحرّمت قتل الإنسان بغير حقّ، وعصمت دمه وعرضه من الانتهاك، وسنّت تشريعات عديدة تكفل رعاية حقّه.

ولقد ساوى القرآن بين إيذاء الإنسان في عقيدته وإيذائه في نفسه، ودافع عن نفس الإنسان بقدر ما دافع عن عقيدته، وإذا كانت الآيات المكيّة تقرّض على المؤمنين ضبط النفس إزاء تطاول المشركين عليهم فهذا راجع إلى ظروف البيئة التي يعايشونها، وليس بسبب وهنٍ في قواهم أو ضعفٍ في بُنياتهم الجسديّة، وخطرُ المواجهة يومئذٍ ليس متحقّقاً فحسب، بل هو غير مُثمر أيضاً، لأنّ إقامة الدين تقف بالتوازي مع حياة الإنسان، والدّين إنّما يقوم برجاله، فلا مصلحة وراء إهلاك النفوس بغير عُدةٍ وإعداد، وعلى هذا يمكن القول بأنّ المرحلة المدنيّة لا تُعدّ ناسخة للمرحلة المكيّة حال إسقاط التنزيل على الواقع المعاصر، وإنّما يتوقّف تقدير الموقف الحكيم للمسلم بحسب تشابه بيئته مع البيئة المكيّة أو المدنيّة، فللمسالمة ظروف، وللمواجهة الحاسمة ظروف^١.

وإنّ المستقرى لآيات القرآن سيلحظ بوضوح تكامل المنهج القرآني في دعوته إلى دفع الأذى عن الإنسان قبل وقوعه، ومنع الاستمرار فيه إن وقع، ثم معالجة آثاره بعد وقوعه.

وسيُخصّص هذا المبحث للحديث عن المحور الأول: وهو دفع الأذى قبل وقوعه احترازاً.

١ المقصود بالمواجهة هنا ردُّ الاعتداء بالوسائل الحسيّة، وليس مقاومة الأذى فهي مطلوبة في جميع الأحوال، لأنّ المسالمة لا تعني إظهار الاستسلام والعجز، ولا تعني المداينة والمساومة على المبادئ للحصول على بعض الامتيازات الشكليّة، وقد حسم القرآن منذ أوائل تنزلاته مسألة التقارب العقائدي الذي يتطلب تقديم التنازلات من الطرفين.

المبحث الأول

الإعداد النفسي

يُوجِّه القرآن الإنسانَ المؤمنَ أن ينطلق في تعامله مع ظاهرة الأذى من داخله، لأنَّ القاعدة القرآنية في أيِّ تغييرٍ ينشده الإنسان - وخاصة ما كان استبعادًا لمكروه - أن يبدأ بتغيير نفسه، ويربطها بما يقرّره القرآن من حقائق عقديّة تزيد إيمانًا بحكمة الله تعالى، فتزكو في نفسه معاني الصبر والتوكّل على الله تعالى، وتستجمع طاقاتها نحو العمل وفق أوامر الله وشرعه.

وهكذا تبرز أهمُّ مقوّمات العُدّة النفسيّة حيال ظاهرة الأذى، وهي: الإيمان بالقضاء والقدر، والصّبر، والتوكّل على الله تعالى، والتزام شرائعه.

أولاً: ترسيخ مفهوم السنن الإلهية

إنَّ القرآن في دعوته إلى التحذير من وقوع الأذى، والحدِّ منه نقاديًا أو تلافياً، لا يعني نفي ما تقرّر في فصل سابق عن سنن الله تعالى بأنَّ الأذى بين الناس واقع لا محالة. وهذه المسألة لها ارتباط وثيق بقضيّة عقديّة عن وقوع الشرِّ وفق قضاء الله تعالى وقدره، وأمره الإنسانَ بدفعها، لأنَّ ذلك ممّا يقتضيه التكليف ليؤهل الإنسان للمثوبة والأجر، وقد تكرّرت في القرآن آيات كثيرة تُرسّخ هذه العقيدة في نفس المؤمن ليتلقّى قضاء الله بصبرٍ وثبات ويأخذ بالأسباب التي من شأنها أن ترفع الأذى عنه.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]

فهذه الآية تدلُّ على أنَّ مكابدة المشاقِّ وتحمل الأذى في سبيل الحقِّ سنّة لا تتبدّل، وهي المرتقى إلى الجنّة، وهي الممّحّصة لدعوى الإيمان الخالص، وفي الآية "إعلان للمؤمنين بما سوف يقع عليهم من الشدّة، ودعوة لهم إلى توطئ النفس على الصبر والتحمل، وتنبيه على أنَّ هذا كان شأن مَنْ قبلهم من المؤمنين وأنبيائهم، وبشرى بنصر الله في النهاية، وتقرير بأنَّ هذا النصر لن يُنال إلا بالصّبر والنّضحية"^١.

١ التفسير الحديث: ٣٧٦/٦.

ولئن كانت هذه الآية تركّز على تحفيز الجانب العقدي والأخلاقي استعدادًا لمواجهة الأذى، فإنّه ثمة آيات أخرى تُضيف إلى النصر عوامل أخرى لا يكتمل بدونها مثل الدُعاء لله تعالى والتوكّل عليه واستفراغ الوسع في نصرته دينه بكل الوسائل الماديّة والمعنويّة المتاحة والمناسبة^١.

إنّ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وإن كانت تدعو الناس إلى الرضا بقضاء الله تعالى، وفهم ظاهرة الأذى على أنّها ظاهرة مستكنّة ثابتة مستمرة -ناتجة عن ابتلاء الله للنّاس بنوازع الأثرة والاستبداد وحبّ الذات بالإضافة إلى تفاوتهم في الإمكانيات والغايات- فهي لا تستلزم الرضا بالمقضي، أي بما يقع من شرور من النّاس وفيما بينهم، فإنّ الله قدّر الخير والشرّ، والإيمان والكفر، لكنّه أخبر أنّه لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحبّ المعتدين منهم والظّالمين والمفسدين والمسرّفين والخابثين والكافرين، ولا يحبّ من كان خوّاناً أثيمًا ومختلاً فخوراً، ولهذا فإنّ ما يصيب النّاس من المكاره الناتجة عن اختياراتهم إنّما استجروها بأعمالهم فوقعت عليهم آثارها، وأمّا ما يقع على الإنسان من السّوء بغير اكتسابه فإنّه يُعدّ مكروهاً بالنسبة إليه من حيث عدم ملاءمته لما يُسعدّه ويشتهيه، لكنّه -بحسب النصّ القرآني- حسنٌ في نفسه، وحسنه غير منظور. وفي ضوء ما تقدّم نفهم الآيات الآتية:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِذَا هُلُوًّا الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٨-٧٩]

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]

١ البقرة: ٢٥٠، آل عمران: ١٦٠، محمد: ٧.

ثانيًا: الصبر والتقوى

الصَّبْرُ في اللغة "الحَبْسُ"^١، ومعناه في القرآن الكريم: حَبْسُ النَّفْسِ عن الاضطراب والجزع بالسُّكُونِ والطَّمَأْنِينَةِ، والتَّثَبُّتُ في قبال ما هو غير ملائم له، وتظهر فضيلته عندما يجد الإنسان نفسه في ظروف معارضة فيتملكه قدرة نفسية كافية على المقاومة والمثابرة وسط كل الصعوبات دفاعًا عن قضيته^٢.

والصَّبْرُ معنى عامٌّ، ينتظم الكثير من الفضائل، تختلفُ أسماؤها باختلاف موقعه، فيكون ضدَّ الجزع، وضدَّ الجُبْنِ، وضدَّ الضَّجَرِ، وضدَّ العجلة، ويكونُ بمعنى الانتظار^٣.

ومن الآيات التي وضعت الصَّبْرَ والتقوى في موقع الغدة النفسية للإنسان المؤمن قبال ظاهرة الأذى، بل جعلتهما من صواب التدبير الذي لا شكَّ في ظهور الرشد فيه قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال الرازي (٦٠٦هـ): "بَيَّنَّ أَنَّ الكفار سيؤذونهم... بكل طريق يمكنهم من الإيذاء بالنفس والإيذاء بالمال، والغرض من هذا الإعلام أن يوطنوا أنفسهم على الصَّبْرِ وترك الجزع"^٤.

وثمة آية في السُّورة نفسها ذات دلالة محورية على معنى الصبر، يحال إليها لمعرفة أبعاد مفهومه، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْنَا مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] هذه الآية تُفسِّر الصَّبْرَ بلُغة صورته السلبية، فهو ليس الوهن ولا الضعف ولا الاستكانة، أمَّا الوهن فهو يدلُّ على خَوَرِ العزيمة، والضعف يدلُّ على فشلِ القوَّة البدنية، والاستكانة تدلُّ على استسلامٍ وذِلَّةٍ وخضوعٍ، وإذا كان الصبر يتنافى مع هذه الحالات الثلاث، عُلِمَ أَنَّهُ فضيلة تتطوي على مقاومة الأذى بالقوَّة الحسيَّة والمعنويَّة، وهي التي تستوجب محبة الله تعالى بحسب الآية.

١ مقاييس اللغة: مادة (صبر)، ٣/٣٢٩.

٢ ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٦/٢٢١، والمفاهيم الأخلاقية-الدينية في القرآن، توشيهيكو إيزوتسو: ١٩١-١٩٤.

٣ ينظر: مفردات الراغب: ٤٧٤، معجم ألفاظ القرآن: ٢/٤٦.

٤ تفسير الرازي: ٩/١٣١.

أما التقوى فهو من (وقى)¹، ويعني بمفهومه المطلق بحسب الشرع حفظ النفس عما يؤثم؛ وذلك بفعل المأمور وترك المحذور، ويعني بمفهومه المتصل بالبحث -باعتباره ممثلاً للعدّة الإيمانية إزاء ظاهرة الأذى- أنّه احترازٌ عمّا لا ينبغي، والتزامٌ بمنهج الدين الذي يوجّه المسلم لدراسة كلّ خطوات حركته الدعويّة، وكلّ ظروف المرحلة التي يعايشها، وكلّ مفردات القضية التي يتبنّاها².

قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي الذين يَتَّقُونَ الاعتداء قبل وقوعه، ولا ينتظرونه حتّى يقع، ويتَّقُونَ الاعتداء في دفعه بعد وقوعه³.

ومن مصاديق التقوى، وتحقيق التزام ما أمر الله أن يقف الإنسان المؤمن عند حدود المُهمّة التي أوكّلها الله إليه من التبليغ والإنذار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دون التسلّط على رقاب الناس وإكراههم على الهداية، ودون أن يُعيقه إعراض الناس عنها، أو يُثبّطه زهدهم في اتّباعها، وقد تكرر هذا المعنى كثيراً في خطاب القرآن للنبيّ صلى الله عليه وسلّم، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٨-١٠٩]⁴.

وسيأتي في مبحث لاحق كيف ندّد القرآن بمطالبات المشركين التّعجيزية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والتي علّقوا عليها اتّباعهم له، فتوّلت الآيات مؤكّدة أنّ مُهمّة الرسول بيان أسباب الهداية والتذكير بها، أمّا الهداية نفسها فلا يملكها أحد إلا الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]⁵.

١ تقدّم معنى هذه المادة وصلتها بمفهوم البحث في فصل سابق. يراجع ص: ٤٧.

٢ ينظر: مفردات الراغب: ٨٨١، تفسير الرازي: ١٣٣/٩، معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ٨٤٠/٢، من وحي القرآن، حسين فضل الله: ٤٣٧/٦.

٣ ينظر: تفسير السمرقندي: ١٨٩/١، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة: ٣٤٨٧/٧.

٤ ينظر أيضاً: البقرة: ١١٩، المائدة: ٦٧، النحل: ٨٢، الإسراء: ١٠٥-١٠٧،

٥ ينظر أيضاً: آل عمران: ١٧٦، يونس: ٩٩، هود: ١٢، ق: ٤٥، الغاشية: ٢٢.

ثالثاً: التوكل

التوكل على الله تعالى عنصر أساس من عناصر الاستعداد النفسي لظاهرة الأذى، وهو الثقة المطلقة بالله والاعتماد عليه، والتسليم بأنَّ الحول والقوة له وحده، وأنه ليس بوسع أحد من البشر مهما بلغت منزلته أن يدفع عن الإنسان قدراً يسوقه الله إليه إلا بإذنه تعالى، فالتوكل في عُرف الشرع "هو صدق اعتماد القلب على الله تعالى في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضُر ولا ينفع سواه"^١. والتوكل هو عمل القلوب، لأنه اعتقاد جازم بأنَّ الله تعالى هو الفعَّال الحقيقي، ويُترجم اللسان هذا الاعتقاد بإظهار الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى، كأن يقول: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربُّ العرش العظيم أو حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، كما تترجمه الجوارح باتخاذ الأسباب والسعي للعمل كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي في إمضاء أمرك على الأصلح والأرشد مع رجاء السداد فيه من الله تعالى^٢، ودلَّت الآية على أنَّ التوكل هو "مراعاة الإنسان للأسباب الظاهرة دون أن يعوِّل بقلبه عليها"^٣.

وقد كان الأنبياء أسوة حسنة في صدق التوكل على الله تعالى بقالهم وحالهم، مثابرين على تبليغ الدعوة، وصابرين على ما أصابهم في سبيل الله، ثقةً بوعد الله وتأبيده ونصره، غير أبهين بتأمر أقوامهم عليهم وما يدبرونه لهم من مكائد. من ذلك ما أخبر الله عن نوح عليه السلام: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وعن هود أيضاً ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [٥٠] ... إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون ﴿٥٤﴾ من دوني فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴿٥٥﴾ إني توكلت على الله ربي وربكم ...

١ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي: ١٢٦٦/٣.

٢ ينظر: تفسير أبي السعود: ١٠٥/٢.

٣ تفسير الرازي: ٤١٠/٩.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٥٠﴾ [هود: ٥٠-٥٧]

وكان يعقوب عليه السلام مثلاً حسناً للمتوكلين على الله تعالى فيما نزل بهم من ضرٍ، إذ كان لا يفتقر عن الالتجاء إلى الله تعالى مع المجاهدة في رفعه ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]

وتُعَدُّ الاستعاذة صورةً من صور الاعتماد على الله والاستنصار به، وتختص بحسب السياقات القرآنية - بطلب كَفِّ الشَّرِّ، والاستعاذة ليست مجرد قول الإنسان (أعوذ بالله) أو ما شابهها، وإنما لا بدَّ فيها من صدق الالتجاء إلى الله تعالى والتوجُّه إليه^١، وقد عرض القرآن نماذج عملية من أنبياء تعرَّضوا للمحنة فتوسَّلوا إلى الله تعالى في كشفها بالاستعاذة. مثل: إخباره عن مريم عليها السلام ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٦-١٨] وعن موسى عليه السلام ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠] كما وجَّه القرآن النبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّتَهُ للاعتصام بالله وحده من الشرور كلها ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢] ومن شياطين الإنس والجنِّ وخاصة ما يكيدونه في خفاء ﴿وَمَا يَزْعُمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٤-٥] ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦] وحذَّر من الاستعاذة بغير الله، مثلما يفعل بعض الناس في كل عصر من اللجوء إلى السَّحرة والمشعوذين وأشباههم لقضاء حوائجهم مما يدخل في الشرك الأكبر ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] "والرَّهَقُ في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم"^٢، أي إنَّه لما التجأ بعض الإنس إلى الجنِّ رغبة أو رهبة زادوهم ضلالاً وإثماً وظلماً، فمن يركن إلى غير الله يؤذيه ولا ينفعه؛ لأنَّ الله هو مُطْلَق مَنْ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ في قاطبة الأمور، وهو أحسن وكيل لمن

١ ينظر: التحقيق في كلمات القرآن: ٣١٥/٨ - ٣١٧.

٢ تفسير الثعلبي: ٥١/١٠.

يتوكل عليه، والكافي في مقام الوكالة؛ لأنه الحي الذي لا يموت، العالمُ بجزئيات الأمور، والقادر على ما يريد ويختار ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

وهكذا يظهر فيما تقدّم تسلسل المنهج القرآني في تهيئة الإنسان المؤمن لتلقي قضاء الله فيما يكرهه بالرّضا والتّسليم: بدءًا من توعيته بفقهِ سنّة الابتلاء بالأذى، ثمّ توجيهه إلى الغدّة الناجعة حيال كينونة الظاهرة في حياته، المتمثّلة بالصّبر -الذي ينطوي على عنصري المقاومة والثبات- والتّقوى -بما تتضمّنه من الوقوف عند حدود ما أمر الله-، وما يستلزم تبعًا لذلك من التجاء إلى الله تعالى وتسليم له بالكلّيّة.

وسيلاحظ فيما بعد حضور هذه اللّازمة الثلاثيّة (التوكل والتّقوى والصبر) في معظم سياقات الأذى لا تتفكّ عنه سواء اختار الإنسان دفع الأذى بالمواجهة أو بالتجنّب.

المبحث الثاني

أخذ الحذر

الحَذَرُ مصدرٌ بمعنى التيقُّظ والتحَرُّز، والحاذر المتأهبُّ المُستَعِدُّ للمفاجأة، والحَذَرُ المتيقُّظ، والاسم منه الحَذَرُ، وليس في التركيب تعبيرٌ عن الفزع والخيفة إلا بقدر أنَّ هذه تُسَبِّبُ الحذر^١.

وردَ هذا المصطلح القرآني إحدى وعشرين مرَّةً في تسع عشرة آية من كتاب الله تعالى، ليس في واحد منها بصيغة الماضي، وذلك أنَّ أخذ الحذر إنَّما يكون في الحاضر والمستقبل احترازًا من أمر متوقَّع حصوله، إذ لا ينفع الحذر بعد وقوع الحدث وفواته. كما أنَّ الحذر كان مطلوبًا في السُّور المدنيَّة بنسبة أكبر من وروده في السُّور المكِّيَّة، فقد ظهر للمسلمين في المدينة أعداء جدد بالإضافة إلى أعدائهم السَّابِقين، فكان المكر والكيد للإسلام والمسلمين في المدينة أضعاف ما كان عليه في مكَّة بسبب ظهور الإسلام وتنامي قوَّة المسلمين، ولذلك جاء في القرآن المدني التحذير من فتنة اليهود ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، والتحذير من المنافقين ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، والتحذير من الأعداء عامَّة ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، بل إنَّ الإنسان -مطلق الإنسان- محاطٌ بالفتن في أغلب أحواله حتى في بيته مع زوجته وأمواله وأولاده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَنَصَّفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]،^٢ والملفت في هذه الآيات السابقة أن اختصَّت كل واحدة منها ببيان خاص، فبيَّنت الأولى ما يُحَذَرُ منه، والثَّالثة ما يستدعيه الحذر، والثَّانية والرَّابعة حذَّرت ممَّن لا يُتَوَقَّع الحذر منه عادة لغفلة أو غلبة عاطفة.

وإذا كان ورود المصطلح بحدِّ ذاته غالبًا في الآيات المدنيَّة فإنَّ مضامين الآيات المكِّيَّة حافلة بمبدأ الأخذ بالحذر، ولعلَّ أبرزها منع المؤمنين من مقاتلة المشركين المعتدين عليهم، والحذر هنا "لا يعني الخوف الذي يشلُّ القدرة ويدفع إلى الهزيمة، وإنَّما يوحي بالدِّراسة الدَّقيقة الموضوعيَّة للواقع للتعرُّف على أفضل الوسائل للمواجهة بطريقة حكيمة"^٣.

١ ينظر: مادة (حذر) مقاييس اللغة: ٣٧/٢، تهذيب اللغة: ٤٦٢/٤، المحكم والمحيط الأعظم: ٢٨٦/٣، المصباح المنير: ٤٩، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن: ٣٩٤/١.

٢ ينظر: الحذر في السياق القرآني-تفسير موضوعي لمصطلح قرآني، عبد السلام حمدان اللوح، بحث منشور ضمن كتاب يشترك في تأليفه مع باحث آخر: مباحث في التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقًا: ١٠١-١٤٩.

٣ من وحي القرآن: ٣٤٩/٧.

ولذلك تَضَمَّنَت الآيات المُثَبِّتة لمصطلح الحذر توجيه النَّاس إلى المسار العملي لهذا المبدأ، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَعِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] وقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] فأخذ الحذر والاحتباس لا يكون بالقعود في الدَّيار، بل بالاستعداد واتباع الأساليب المناسبة بحسب حال العدو، وتدلُّ آية (المنافقون) ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] أنَّ الحذر لا بدَّ أن يكون أولاً من الصَّنَف الأقرب مخالطة والأكثر مجالسة والأشدَّ عداوة وخطراً؛ لأنَّه يُظْهِرُ خلاف ما يُضْمِرُ فيُعْتَرِّ بظاهره غالباً. ومنه جاء الأمر بالحذر أيضاً من فتنة الرَّجُل والأولاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحٍ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وإذا كان في الآيات السابقة ما يدعو إلى أخذ الحذر من المشركين والمنافقين من خلال الإقدام والنفرة، فإنَّ هذه الآية -وهي تعالج مشكلة أسرية- تدعو إلى توقِّي العداوة بحُسن الصِّلَة، والعداوة في هذا الموضع قد تكون دنيويَّة بإضممار الشَّرِّ وتجاوز الحدِّ في المعاملة وشدة الخصومة أو العقوق، وقد تكون أخرويَّة بالمنع من الطاعة والتَّثْبِيط عن فعل الخير، والإنسان مأمور بأخذ الحذر في الحالين لتوقِّي هذه الإساءات وأخذ الحيطة قبل وقوعها، وقد جاءت (مِن) لإفادة التبعية؛ لكيلا يُعَمِّم الإنسان وجود هذه العداوة على كل مَنْ حوله، ولا يتعامل معهم على افتراض سوء الظَّنِّ ابتداءً. ثم أرشد القرآن في ختام الآية إلى الموقف الحكيم إزاء اِطِّلاع الإنسان على عداوةٍ من أسرته بما يحفظ وشائج النَّسب وأواصر القرابة، ودون الحيد عن موقف الحقِّ ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي "إن تعفوا بترك المعاقبة وتصفحوا بالإعراض وترك التَّوبيخ عليها وتغفروا بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها فإنَّ الله يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضَّل عليكم"¹.

١ تفسير البضاوي: ٢١٩/٥.

المبحث الثالث

السِّلم مع الآخرين

السِّلم بكسر السين وفتحها يُستعمل كلُّ واحد منها فيما يستعمل فيه الآخر، فالسِّلم والسِّلم الصُّلح، من المسالمة وهي ترك الحرب، وما يقابل الخصومة، والسِّلم الاستسلام^١.

الثُّمَس هذا المبدأ القرآني من مجموع الآيات القرآنيّة التي تدعو إلى مقابلة الميول السِّلميّة من غير المسلمين بمثلها بدءًا من حدّها الأدنى المتمثِّل بعدم التعرُّض لهم، وارتقاءً إلى أسمى مراتب القيم الدينيّة والأخلاقيّة المتمثِّلة بالبرِّ، وهي آيات مدنيّة، لكيلا يُتوهَّم أنّها مكّيّة قبل تشريع القتال، فالمرحلة المدنيّة كانت أظهرَ في تبَيّ منهج المسالمة؛ لأنَّ المسلمين كانوا في مَنعة واقتدار على مقابلة الإساءة بمثلها وأزيد، وما شُرِع القتال إلا لردِّ اعتداء البادئين به، وكفِّ أذى الصادِّين عن سبيل الله ودينه، وردِّع مَنْ ينكث عهده أو يتآمر ضدَّ الإسلام والمسلمين، وما عدا ذلك فحالة السلم والمودة والبرِّ بين الإسلام وبين الناس جميعهم هي الحالة الثابتة الأصيلّة، إذ تقوم مبادؤه على التعارف بين بني الإنسان لا التناذب بينهم، وعلى إحلال السلام العزيز وإنصاف الناس من جميع أصناف الملل والأديان، وإنكار حروب التخريب والاستيلاء على الأقوات ومصادر الثروات^٢.

ومن أبرز الآيات التي تُجسِّد هذا المبدأ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الذِّبْءُ آمِنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] تردَّدت أقوال المفسرين في تفسير السِّلْم هنا بين الاستسلام لأمر الله أو المسالمة والمصالحة^٣، وليس في المعنيين تنافر، فالآية تفيد الأمر بالدُّخول في كلّ صور الإسلام؛ لأنه دين السِّلامة من كلّ مَخافة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴿[المائدة: ١٦] فالإسلام يدعو أولاً إلى السِّلَام الناشئ من استقامة الفطرة على منهج الله، وإلى البعد عن شياطين الإنس والجن الذين يكيّدون لمصادرة خطوات السِّلَام ثانياً، ومن ثَمَّ يدعو في آيات أخرى إلى إفشاء المسالمة وقبولها ممَّن ألقاها ومقابلتها بالأحسن وغيرها ممَّا يكفل إقرار الأمان

١ ينظر: مادة (سلم) إصلاح المنطق: ٥٩، لسان العرب: مج ٣، ٢٣/٢٧٧-٢٠٨٤، المصباح المنير: ١٠٩، التحرير والتنوير: ٢٧٦/٢، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٢٢٨/٥، معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ٥٨٦/١.

٢ ينظر: زهرة التفاسير: ٦٥٢/٢.

٣ ينظر: تفسير الطبري: ٥٩٥/٣، تفسير الرازي: ٣٥١/٥، البحر المحيط: ١٣٠/٢، تفسير المنار: ٢٥٦/٢، التحرير والتنوير: ٢٧٦/٢.

والاطمئنان في الأرض دون هوان، وتبدو أهَمِيَّةُ هذا القيد الأخير من خلال تأكيد القرآن المستمرَّ على أنَّ الرُّكون إلى السِّلْم لا يعني حصولَ السَّلام دائماً، وقد يكون القتال مقدِّماً عليه وخيراً منه إذا كان من شأنه أن يكفل الحرِّيَّة للمسلمين ودعاتهم لتبليغ دعوة الإسلام ودَرْءِ الشُّبُه عن عقيدته، فالعبرة أن يتمكن المسلمون من إقامة شعائر دينهم ونَشْرِهِ بين الناس لتحريرهم من رواسب الشرك والوثنيَّة، ولذلك رفض القرآن أن يُبادروا بطلب الصُّلح؛ لأنَّه مَظَنَّةٌ وَهْنٍ وَخُنُوع. قال تعالى: ﴿فَلَا تَهَيُّوْا وُدَّعُوْا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا أَعْلَوْنَ وَاللّٰهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَهْمًا كُمْ﴾ [محمد: ٣٥] استنبط كثير من المفسرين من هذه الآية أنَّ الدُّعاء إلى السِّلْم المنهي عنه هو طلب المسالمة من العدوِّ المحارب في حال قدرة المسلمين وخوف العدوِّ منهم، أمَّا إذا كان في الكفَّار قوَّة وكثرة بالنسبة إلى المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة فله أن يفعل ذلك^١، بينما رجَّح بعض المفسرين أنَّ قوله ﴿وَأَنْتُمْ لَا أَعْلَوْنَ﴾ جملة حالية، أي والحال أنَّكم المصطفون الغالبون بقوَّة عقيدتكم^٢.

ولكنَّ اختصاص المؤمنين الصابرين بعلوِّ المنزلة لا ينبغي أن يدفعهم إلى التعالي وتجاوز ما شرَّعه الله من حدود القتال وشروطه وغاياته، ولقد حدث مرة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم سوء تفاهم بين قائد سرِّيَّة وبعض العرب الذين أظهرُوا الإسلام أو المسالمة، فظنَّ القائد أنَّ ذلك خدعة، وقتل بعضهم وأخذ ماشيتهم، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشدَّ الغضب ولم يلبث أن أوحى الله تعالى بآية تعاتب المسلمين على عدم قبول ظواهر الناس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن ءَلَقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤]^٣.

وهذا المبدأ القرآني في إقرار السلام وثيق الصلة بما قبله، من حيث إنَّ أخذَ الحذر لا يسوِّغ بِدَارَ المعاداة، كما أنَّ المسالمة ولين الجانب لا تعني الغفلة ولا تمنع أخذَ الحذر، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١] جاءت هذه الآية بعد آية نذِ العهد ممَّن تظهر عليهم بوادر الخيانة مع ضرورة إعلامهم بذلك، لأنَّ الغاية النبيلة لا تبرِّر الوسيلة الدنيئة، والغدرُ مرفوض مهما بلغت شدَّة المواجهة ذروتها، لكنَّ الإعلام بنذِ العهد

١ ينظر: تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي)، أبو منصور الماتريدي: ٢٥٢/٥، أحكام القرآن، ابن العربي: ٤٢٧/٢، تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٧، التحرير والتنوير: ١٣١/٢٦.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ٦١/٢٨، البحر المحيط: ٦٧/٣، الدر المصون: ٧٠٧/٩، تفسير أبي السعود: ١٠٢/٨.

٣ ينظر: تفسير الرازي: ١٨٩/١١ - ١٩٠، التفسير الحديث: ٢١٠/٨.

إجراء احترازي مشروع لتفادي وقوع العدوان، ثم يأتي بعده التوجيه الإلهي للمؤمنين بترك الحرب على غير المؤمنين إن هم طلبوا تركها، وإرساء السّلام القوي الذي لا تشوبه شائبة خنوع وذل، مصحوباً بالاعتماد على الله في كفّ ما قد يحيكونه من مكر تحت مظلة دعوتهم إلى المسالمة^١، وفي التعبير بالجنوح عن الميل إشارة إلى ما يلابس هذا الميل من غير المؤمنين من تبعيّة وخضوع.

وفي خطوة متقدمة تأتي آية النساء مُصرّحة بأنّ الكفّ عن القتال من قبل غير المسلمين - وإن لم يعاهدوا- مُستحقّ لعدم التعرّض لهم بسوء ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَاءُ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]

هذه الآية تستثني من سابقتها -ممن يشملهم حكم الأخذ والقتل من المنافقين- فريقين: أحدهما من تركّ المحاربين ولحقّ بالمعاهدين، والآخر من أتى المؤمنين وكفّ عن قتال الفريقين^٢، فهؤلاء لم يلزمهم الإسلام أن يكونوا معه أو عليه، فقد كان حسبه ألا يكونوا عليه، وفيه تعليم للمسلمين أن يأخذوا الخير الذي يُعرض فلا يرفضوه، ويجتنبوا الشرّ الذي يأخذ طريقه بعيداً عنهم فلا يناوشوه، طالما أن ليس في هذا كله تقريط في شيء من دينهم ولا تميع لشيء من عقيدتهم ولا رضى بالدنيّة في طلب المسالمة الرخيصة^٣.

ثم يتابع السياق ينبّه المسلمين مجدّداً إلى استحضار مبدأ أخذ الحذر ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٩١] إذا فتمّة من سيستغل موقفهم السلمي ويخادعهم في إظهار المودة ليأمن على نفسه، وسوف يُصانع الودّ لقومه ليأمن غائلتهم، فهو يدور مع مصلحته الشخصية وحظّ نفسه، "فهؤلاء لا يصحّ الاطمئنان بدعواهم الحياد وبتظاهرههم بالمودة إلا إذا أقاموا الدليل على ذلك فعلاً باعتزال المسلمين

١ ينظر: تفسير الطبري: ٢٥١/١١، تفسير النسفي: ٦٥٤/١.

٢ ينظر: تفسير أبي السعود: ٢١٤/٢.

٣ في ظلال القرآن: ٧٣٤/٢.

٤ ينظر: التحرير والتنوير: ١٥٤/٥.

وإعلان المسالمة لهم بصراحة وكفّ أيديهم عنهم بصدق وإخلاص، فإذا لم يفعلوا هذا فحكمهم حكم قومهم [المحاربين]، وللمسلمين أن يقاتلوهم ويقتلوهم أنى وجدوهم".^١

وفي سورة الممتحنة أيضاً ما يُعزّز هذا التوجّه السلمي ويُرقّيه بما "يجعل أفق المسلمين واسعاً وصدرهم رحباً، ويبثّ فيهم أمل السّلام والخير والاستبشار، ويجتثّ منهم العداء والحقد الشديدين"^٢: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿الممتحنة: ٨-٩﴾ وسياق السورة يدلُّ أن الآية تأتي استدراكاً لترفع اللبس، وتضع الولاء المنهي عنه في أول السورة في سياقه وهو في حالة الكفار المقاتلين أي إنّها حالة ظرفيّة استثنائية، أمّا الذين لا يقاتلون المسلمين فالأصل أن البرّ شرعٌ دائم، والعلاقة معهم بُعدها أخلاقي ثابت، والتعبير بنفي النّهي لا يعني مجرّد السّماح؛ ففضيلة البرّ مأمور بها على العموم، وقد اقترنت في الآية نفسها بالقسط وهو مأمور به وليس مسموحاً به فقط.^٣ يقول الماتريدي (٣٣٣هـ): "لا يحتمل أن يكون النهي في الإقسط؛ لأنّ الإقسط هو العدل وليس ينهى عن العدل إلى من كان ولياً أو عدوّاً، ألا ترى إلى قوله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فقد أخبر أنّه لا يحلّ لهم ترك العدل لمكان العداوة، وإذا كان كذلك ثبت المراد من هذا النّهي وغيره وهو قوله ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾".^٤ ويؤيّدّه أيضاً ما ورد في سبب نزولها من وفود أمّ أسماء عليها في مدّة عهد قريش -أي في الفترة ما بين الحديبية والفتح- فاستأذنت أسماء النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها بصِلتها.^٥

١ التفسير الحديث: ٢٠١/٨.

٢ التفسير الحديث: ٢٧٦/٩.

٣ مفهوم البر والمنظومة الأخلاقية القرآنية: البنية والسياق، عبد الرحمن حلي: ١٢٨، وينظر: (برر) العين: ١٢٩/١، مقاييس اللغة: ١٧٧/١، مفردات الراغب: ١١٤، إصلاح الوجوه والنظائر: ٦٧-٦٨، الكليات: ٢٣١.

٤ الماتريدي: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، من كبار العلماء، كان يقال له إمام الهدى، له تصانيف مهمة في العقيدة، منها: التوحيد، والمقالات، وبيان أوهام المعتزلة، وقيل عن كتابه في التفسير (تأويلات أهل السنة): لا يوازيه فيه كتاب، بل لا يدانيه شيء من تصانيف من سبقه في ذلك الفن، مات سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة (الجواهر المضية في طبقات الحنفية، عبد القادر القرشي الحنفي: ١٣٠/٢).

٥ تفسير الماتريدي: ٦١٤/٩.

٦ ينظر: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك، رقم ٥٩٧٨: ٨٨/٤.

يتبين ممّا سبق أنّ هذه القاعدة تُعدّ من أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدّين ونظّرتها إلى الحياة الإنسانية، وهي أساس شريعته الدّوليّة، من حيث إنّها دعوة إلى أخوّة عالميّة على أساس البرّ والعدل^١.

وممّا يدخل في هذا المبدأ بطريق الأولى ما قرّرت آيات كثيرة من فتح الإسلام الباب لغير المسلمين للتّراجع عن موقفهم العدائي وقبول ذلك منهم مهما كانت عقيدتهم ومهما كانت درجة عدوانهم، بشرط أن يُرافق هذه التوبة ما يدلّ على صدقها وإخلاصها، وأن تُتبع بتلافي ما تسبّب قبلها من أضرار تتعلّق بحقوق الناس خاصة، قال تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١-١٩٣]، ومقصد الإسلام من هذا الموقف الأخلاقي العظيم الحدّ من الاستمرار في الإساءة، والتشجيع على السّير في سبيل الصّلاح والإصلاح والخير والحق.

١ ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٥٤٤-٣٥٤٥.

المبحث الرابع

عدم موالاة الأعداء من غير المؤمنين

موضوع الولاء والبراء في الإسلام له أصوله العقديّة وفروعه الفقهيّة الواسعة ممّا لا مجال لبسطه هنا، والآيات التي تتناول موضوع الموالاة تحتاج إلى بحث استقرائي تحليلي موضوعي مستقل، وقد استخلص ابن عاشور (١٣٩٣هـ) الأحوال التي تعتري مسألة الموالاة وما يترتب عليها من أحكام تفاوتت بين الإباحة والكرهية والتحريم والكفر. لكنّ الذي يتعلق بموضوع هذا المبحث إنّما هو مجموعة الآيات التي تنهى عن موالاة صنف مخصوص من غير المؤمنين، ممّن يكون في موالاتهم إضرار بالإسلام والمسلمين لاعتبارات مذكورة في بعض السيّاقات القرآنيّة.

ويرجع أصل المادّة (وَلِيٍّ) إلى وقوع شيء وراء شيء مع وجود رابطة بينهما، ويُستعار ذلك للقرب من حيث المكان والنسبة والدين والصداقة والنصرة والاعتقاد^١، والموالاة والتولّي المتابعة والاتباع مع الرضا، والولاية النصرة والمحبة، وهو من الألفاظ المشتركة، فيكون إقبالاً ويكون انصرافاً، ويكون بمعنى الإعراض وبمعنى الاتّباع. فهو إمّا أن يدلّ على واقع في محلّ قبالة الشيء أو في جهة الإدبار منه^٢.

وَرَدَ مصطلح (الولي) مع مشتقاته في ثمانية وثلاثين ومئتين موضعاً من القرآن الكريم، واقترن في تسعة عشر موضعاً منها بـ (النّصير)، وفي ثلاثة مواضع بـ (شفيع)، وفي موضع بـ (واق)، وفي موضع بـ (حميم)؛ وهذا يدلّ على ما فيه من معنى القرب والنصر والصداقة. وكثيراً ما تردّ هذه المواضع في سياقين: سياق متعلق بالحديث عن الله أو الآلهة المزعومة وتأتي حينئذ في ثلاثة معان هي: الهادي والمرشد^٣، وواضع القوانين والتشريعات^٤، والنّاصر والمخلص في الدنيا والآخرة، ومن ثمّ كان مصطلح "أولياء المشركين" مُعَبِّراً عن عقائدهم في الجاهليّة، إذ كانوا يعتقدون فيما يتّخذونه وليّاً أنّه مستحقّ للعبادة مع الله، أو يجعلونه ندّاً لله أو مساعداً له أو شريكاً له في إدارة

١ ينظر: مادة (ولي) مفردات الراغب: ٨٨٥، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٢٢٥/١٣.

٢ ينظر: مادة (ولي) تهذيب اللغة: ٤٥١/١٥ - ٤٥٢، معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ٨٥١/٢ - ٨٥٢، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٢٢٦/١٣ - ٢٢٧.

٣ الإسراء: ٩٧

٤ الأعراف: ٣

الكون، ومن ثَمَّ فَإِنَّهُ فِي الْعُرْفِ الْإِسْلَامِيِّ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا مِنْ حَيٍّ أَوْ جَامِدٍ وَلِيًّا يَأْخُذُ الْمَعَانِي
الثلاثة السابقة فقد اتَّخَذَهُ إِلَهًا وَأَشْرَكَهُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^١.

وَيَرِدُ السِّيَاقُ الثَّانِي مَعَ الْعِبَادِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ الْكَافِرِ. وَلَكِي نَتَصَوَّرَ عَنْ قَرَبٍ دَلَالَةَ الْمَفْهُومِ
لَا بُدَّ أَوَّلًا مِنْ مَعْرِفَةِ اسْتِعْمَالِهِ فِي إِطَارِهِ التَّارِيخِيِّ؛ إِذْ كَانَ مِنْ أَعْرَافِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ
بِالْعَصَبِيَّةِ أَنْ يَتَعَاقَدَ فَرْدٌ مَعَ فَرْدٍ أَوْ قَبِيلَةٍ ضَعِيفَةٍ مَعَ أُخْرَى قَوِيَّةٍ فِي سَبِيلِ الْحَصُولِ عَلَى حِمَايَتِهَا
وَدِفَاعِهَا عَنْهَا، وَيَتَوَجَّبُ عَلَيْهَا مِقَابِلُ ذَلِكَ أَداءَ مَا شَرِطَ عَلَيْهَا مِنْ شُرُوطٍ عِنْدَ طَلِبِهَا الْوَلَاءَ، وَعَلَى
أَفْرَادِ الْحَلْفِ أَنْ يَنْصُرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَعَلَى قِبَائِلِ الْحَلْفِ أَنْ يَتَآزَرُوا فِي النُّوْأَبِ، فَالْحَلْفُ إِذَنْ هُوَ
الْمُعَاوَدَةُ وَالْمُعَاهَدَةُ عَلَى التَّعَاوُضِ وَالتَّسَاعُدِ وَالِاتِّفَاقِ، وَتَكُونُ الْهَيْمَنَةُ فِي الْأَحْلَافِ الْمُعَقَّدَةِ -بَيْنَ
قِبَائِلٍ غَيْرِ مُتَكَافِئَةٍ- لِلْقِبَائِلِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَجَأَتْ إِلَيْهَا الْقِبَائِلُ الضَّعِيفَةُ لِعَقْدِ حَلْفٍ مَعَهَا، وَلِذَا تُعَدُّ
هَذِهِ النَّاحِيَةُ مِنَ النُّوَاحِي الضَّعِيفَةِ فِي التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِيهَا أَنْ يَبْحَثَ الضَّعِيفُ عَنْ
حَلِيفٍ لِيَقْوِيَ بِهِ نَفْسَهُ وَيُنْسَبَ عِنْدُنَا إِلَى مَوْلَاهُ الَّذِي قَبْلَ وِلَايَتِهِ، فَيُقَالُ لَهُ مَوْلَى حَلْفٍ وَيَتَرْتَبُ لِهَذَا
الْحَلِيفِ حَقُوقٌ وَوَاجِبَاتٌ كَالْإِرْثِ وَالْدِّيَّةِ وَالْمَطَالَبَةِ بِالْقَصَاصِ^٢، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ،
وَالْوَلَاءُ لُحْمَةٌ كُلْحَمَةُ النَّسَبِ.

وَكَانَتْ مَعْظَمُ الْقِبَائِلِ دَاخِلَةً فِي هَذِهِ الْأَحْلَافِ إِلَّا عَدَدًا قَلِيلًا مِنَ الْقِبَائِلِ الْقَوِيَّةِ كَثِيرَةُ الْعِدَدِ،
كَانَتْ تَتَفَاخَرُ بِنَفْسِهَا لِعَدَمِ اعْتِمَادِهَا عَلَى حَلِيفٍ، وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِإِبْطَالِ أَحْلَافِ الْجَاهِلِيَّةِ؛
لَمَّا تَتَطَوَّى عَلَيْهِ مَوَالِئُهَا مِنْ خُضُوعٍ وَاسْتِسْلَامٍ وَتَبَعِيَّةٍ، وَلَمَّا تَوَقَّعَهُ مِنْ أَضْرَارٍ فِي الْمَجْتَمَعِ بِسَبَبِ
التَّكْتَلَاتِ وَالتَّحْزُبَاتِ الَّتِي تَوْدِي إِلَى الْقِتَالِ -إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا عَلَى الْخَيْرِ وَنَصْرَةِ الْحَقِّ- وَاسْتَبْدَلَ
بِهِ التَّآلَفَ بَيْنَ قُلُوبِ أَهْلِ يَثْرِبَ، وَالتَّآخِي بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لِيَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ كِتْلَةٌ
وَاحِدَةٌ^٣.

وَقَدْ دَأَبَ الْيَهُودُ -فِي عَهْدِ الْوَحْيِ الْمَدْنِيِّ- عَلَى إِثَارَةِ الْفِتَنِ بَيْنَ قِبَائِلِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ
مُسْتَفِيدِينَ مِمَّا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رِجَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْحَلْفِ وَالْجَوَارِ لِلْإِحْتِمَاءِ بِهِمْ، وَلِلْإِتِّقَاءِ بِهِمْ
مِمَّا قَدْ يَلْحَقُهُمْ مِنْ أذى بِسَبَبِ الْفِتْنَةِ، فَنَهَى الْإِسْلَامُ عَنْ تَوَلِّيِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَجَعَلَهُمْ فِي ذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

١ الولي والولاية في القرآن، هارون أوعموش، مجلة كلية الإلهيات، جامعة نجم الدين أربكان، العدد ٤٠، ٢٠١٥م: ٤٢

٢ ينظر: التفسير الحديث: ٣٥٣/٧، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي: ٣٦٧/٧.

٣ ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٣٧٣/٧.

في ضوء ما تقدّم يمكن أن تُفهم سياقات النهي عن الولاء والموالاتة للكافرين من المشركين وأهل الكتاب.

الموضع الأول: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٣) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا مَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٢﴾ [هود: ١١٢-١١٣] الرُّكُون من الرُّكن، وأصله القوّة، وهو يأوي إلى ركن شديد أي إلى عزٍّ ومنعة^١، ونزلت الآية في مكّة -حين كان المسلمون واقعين تحت حكم المشركين يتسلّطون عليهم بالأذى- تنهاهم عن الاعتماد على المشركين والاستناد إليهم، ومدار النهي الظُّلم، أي ظلم المشركين للمؤمنين حينئذ، وحاصل الآيتين نهى المؤمنين أن يظلموا غيرهم أو يتعاملوا مع الظالمين بما يُشعر استحسان ظلمهم، فهذا أدنى درجات ترك الموالاتة، والرُّكُون غير النَّقِيّة؛ لأنّ الأول يعني السكون إلى الشيء رغبة فيه^٢، ففيه ملحظ الصحبة والمودّة بخلاف النقيّة فإنّها معاملة في الظاهر مع نفور داخلي.

قال ابن عاشور (١٣٩٣هـ): هذه الآية أصل في سد ذرائع الفساد المحقّقة أو المظنونة^٣.

الموضع الثاني: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٣] تُعدّ سورة الأنفال من أوائل السور المدنية، وظاهر الآيتين إثبات الموالاتة بين أفراد كل طائفة، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، والكافرون بعضهم أولياء بعض^٤، لكنّ مفهوم الآية نهى المؤمنين عن موالاتة الكفار؛ لأنّهم إن لم يكونوا يدًا واحدة على الكافرين سيطمع فيهم أعداؤهم ويتمكّنون منهم^٥.

١ ينظر: مقاييس اللغة: مادة (ركن)، ٤٣٠/٢.

٢ ينظر: أحكام القرآن، ابن العربي: ٢٦/٣، نظم الدرر: ٣٩٣/٩، تفسير أبي السعود: ٢٤٥/٤.

٣ التحرير والتنوير: الموضع نفسه.

٤ في آية المائدة (٥١): إثبات الموالاتة بين أهل الكتاب، وفي آية التوبة (٦٧) إثبات الموالاتة بين المنافقين.

٥ ينظر: تفسير النسفي: ٦٥٩/١.

ومن أوائل الآيات التي صرّحت بالنهي عن تولّي الكافرين قوله تعالى في آل عمران: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]

فبعد أن بيّن الله في آيات سابقة بغى اليهود وإعراضهم، نهى المؤمنين في هذه الآية عن اتّخاذهم -وسائر المخالفين في الدّين أمثالهم- أولياء من دون المؤمنين، أي في المعونة والنّصرة، وقوله ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقييد للنّهي بحسب الظاهر، فتكون الآية في النّهي عن ولاية المؤمن للكافر بما ينافي ولايته للمؤمن، وذلك عندما يكون في تولّي الكافرين إضرار بالمؤمنين، مثل أن يظاهروهم على المسلمين أو يدلّهم على عوراتهم أو يعينهم على مسلم بفعل^١، لكنّ الرازي (٦٠٦هـ) لم يعتدّ بهذا القيد، ورجّح إطلاق النّهي عن موالاة الكافرين بدلالة الآيات الأخرى التي تنهى عن الموالاة^٢. وفي الآية استثناء منقطع، تُرخص للمسلمين حال خوفهم من كافر عدوّ أن يُظهروا المودّة له صورة وظاهراً من غير أن يكون هناك ميل قلبي إليه؛ وذلك صوناً للنفس ودرءاً للمفاسد؛ لأنّ دفع الضرر عن النفس واجب قدر الإمكان، بشرط ألا يرجع ضرر هذه الرخصة إلى الغير كأن يؤمر بالقتل، وبشرط أن تكون المدارة فيما لا يهدم حقاً ولا يبني باطلاً، ولا ينتهي إلى حد النّفاق^٣.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة النساء ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧٨) الَّذِي يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩]

جاء التعبير هنا بأسلوب الاستفهام الإنكاري الدالّ على التوبيخ والتّقريع للمنافقين ﴿أَيْبَنُغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ﴾ أي القوّة والمنعة، وهذا يؤكد ما سبق التمهيد به من أنّ الولاية يقصد بها غالباً ولاية الحلف والنّصرة، فقد كان المنافقون متمسّكين بالحلف مع اليهود، وكذلك مع المشركين، ليس لأجل المماثلة في الدّين والعقيدة، بل اتّخذوهم ليعتزّوا بهم على المؤمنين، مما يومي بأنّ المنافقين شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز بأعداء المؤمنين. ولعلّ بعض المؤمنين قد حافظوا على حلفهم مع اليهود تبعاً لأقاربهم من المنافقين أو تمسّكاً بالعصبية فاقتضت الحكمة تحذيرهم، وتببيههم إلى أنّ الموالاة في

١ ينظر: تفسير الطبري: ٣١٥/٥، التحرير والتنوير: ٢١٦/٣.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ١٩٣/٨.

٣ ينظر: تفسير الطبري: ٣١٥-٣١٦، الكشاف: ٥٤٥/١، تفسير الرازي: ١٩٣/٨ - ١٩٤، تفسير المنار: ٢٨١/٣.

النصرة من سمات التفاف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَدُونَ أَنْ
تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] ثم اتسعت دائرة النهي لتشمل النهي عن محبتهم لما
قد تؤذي إليه من الانجرار في موالاتهم: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ
وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ
حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] والموادة والمحاداة لفظان متقابلان، وفي الآية أسلوب
تخييل وتمثيل للمتخاصمين المتنازعين، أي إنه من الممتنع المحال أن تجد قوماً يجتمع في قلبهم
حُبُّ الله ورسوله وحُبُّ عدوِّهما؛ لأنهما حزبان متضادان، حزب الله وحزب الشيطان^١. وأصل
المحاداة من الحدِّ وهو المنع أو طرف الشيء، فكان كلَّ طرف في حدِّ مخالفٍ لحدِّ الآخر، أو أنَّ
المحاداة من مفاعلة من لفظ الحديد؛ أي منازعة شديدة شبيهة بالخصومة بالحديد^٢. والمتبادر أن
الموادة هي دون التولي والتناصر والتحالف الذي نهت عنه الآيات الأخرى، ويتضح بحسب دلالة
الآية وسياق السورة أنَّ النهي عن الموادة إنما هو في حقِّ الكفار الأعداء من المشركين وأهل
الكتاب، المحاربين لله ورسوله الصادِّين عن سبيله المجاهدين بالعداوة والبغضاء الذين أخبر الله
عنهم في السورة أنفسهم بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم^٣.

ونظير آية المجادلة قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ بِالْمَوَدَّةِ
وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْنَعَالِ مَرْضَاتِي
تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١] ففيها^٤
بيان علَّة النهي عن موالات المعادين لله وحزبه وموالاتهم، وتفصيل لمظاهر مُحادَّتهم المجملة في
الآية السابقة، والتي تُوجب قطع أسباب الصِّلة والتحالف معهم مهما بلغت درجة قرابتهم ﴿لَنْ
تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ [المتحنة: ٣] لما يترتب على موالاتهم من ضرر بالمسلمين وإضعاف

١ ينظر: الكشاف: ٧١/٦، في ظلال القرآن: ٣٥١٤-٣٥١٥.

٢ ينظر: مادة (حدد) مقاييس اللغة: ٤-٣/٢، مفردات الراغب: ٢٢١-٢٢٢، تفسير الرازي: ٤٩٩/٢٩، التحرير والتنوير: ٢٣/٢٨.

٣ ينظر: محاسن التأويل (تفسير القاسمي): محمد جمال الدين القاسمي: ٥٧٣٠/١٦، التفسير الحديث: ١٤١/٧.

٤ اتفق المفسرون ورواة الصحاح أن الآية نزلت في كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى حلفائه المشركين بمكة يطلعهم على ما أخفاه النبي من المسير إليها. (التحرير والتنوير: ١٣٢/٢٨)

لموقفهم. ثم تتابع السورة نفسها بيانَ مَنْ يشملهم حكمُ النَّهي عن الموالاة، وأنها في المحاربين الذين اعتدوا على المسلمين أو ساعدوا على ذلك ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن قَوْلُهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المتحنة: ٩] وجاءت الآية بالوعيد لمن تجاوز حدود الولاية التي شرَّعها الله تعالى، بأن وضعها الإنسان في غير موضعها؛ فهو حينئذ آثم ومتعدٍّ على حقِّ الله وحقوق المسلمين^١.

وخُتِمتِ السورة بالتأكيد على وجوب ترك الموالاة لأعداء الدِّين عامَّة، واليهود والمنافقين خاصَّة: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [المتحنة: ١٣]

ثم إنَّه بعد فتح مكة ظَهَرَ قوم من ضعاف الإيمان، ومعظمهم من الطُّلقاء، كرهوا قتال قرابتهم من المشركين -الذين أعلن الله براءته منهم مطلع سورة التوبة-، وتمنَّوا إيمانهم، فبيَّن الله لهم أنَّ فضل الإيمان لا يكتمل إلا بترك ولاية الكافرين وإيثار حبِّ الله ورسوله والجهاد في سبيله على حبِّ الوالد والولد والأخ والزوج والعشيرة والسكن ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿ [التوبة: ٢٣-٢٤] فالآية لا تتجه بالنهي إلى موالاة طائفة منهم، وإنما هي نهي لكلِّ فردٍ من المؤمنين عن موالاة فردٍ من المشركين.

أمَّا أهل الكتاب فقد اهتمَّت سورة المائدة بالحديث عنهم وعن بيان حقيقتهم والتشهير بهم وكشف كيدهم، وأتبعَت هذا التفصيل بالنهي عن موالاتهم ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] مؤكِّدة أنَّ الولاء لغير الجماعة المسلمة معناه التخلي عن الجماعة المسلمة والارتداد عن دين الله ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] وفي السِّياق نفسه أبرزت السورة صوراً من مواقف أهل الكتاب -وخاصَّة

١ ينظر: التحرير والتنوير: ١٥٤/٢٨.

اليهود- المعادية للمسلمين ، والمفسرة لعلّة النهي عن موالاتهم؛ بغرض تنفير المؤمنين من التمسك بمن كانوا يوالونه، ومن هذه المواقف والصور: قوله تعالى ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي يتحالفون فيما بينهم على المؤمنين، ومنها أنهم ﴿اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٧]، ﴿وَرَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْعُدُونِ وَأَكَلِهِمُ السُّحْتُ﴾ [المائدة: ٦٢] ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤] ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٨٠] ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢]

بناء على ما سبق فإن التشريعات الوقائية المتعلقة بالنهي عن موالة الكافرين تتلخص في أربعة أشياء^١:

الأول: مظاهرتهم ضدّ المؤمنين بالنفس والمال وغير ذلك.

الثاني: إخبارهم بأسرار المسلمين وإيقافهم على عوراتهم، وقد وردت في القرآن كلمتان في النهي عن إيقاف الكفار على أسرار المسلمين خاصة، إحداها البطانة^٢، والثانية الوليجة^٣. وهذا يدلّ على وجوب اجتناب المسلم تطوير العلاقات بينه وبين الكفار ولو كانوا مسالمين، إذ قد يؤدي هذا الأمر إلى إطلاعهم على أسرار المسلمين.

الثالث: توليتهم أمر المسلمين ولا سيما ما يتعلّق بالحكم والسلطة والتنفيذ إذ يتضمّن معنى الولاية والتولي.

الرابع: حبّهم وحبّ دينهم، وهو جوهر الأشياء السابقة وأساسها؛ لأنّ الحبّ من مقتضيات الإيمان.

وأما التقيّة فهي رخصة يجب تحديدها بالظروف المضطّرة إليها، وبأن لا يرجع فيها الضرر إلى الغير، فمدار الأمر على مصلحة الدين ومصلحة النفس.

١ الولي والولاية في القرآن الكريم، هارون أوغموش، مجلة كلية الإلهيات، جامعة نجم الدين أربكان، العدد ٤٠، ٢٠١٥م، ص ٣٧-٦٢.

٢ آل عمران: ١١٨، والبطانة: خلاف الظاهرة، وتُستعار لمن يختصه الإنسان بالاطلاع على باطن أمره. مفردات الراغب: ١٣٠-١٣١.

٣ التوبة: ١٦، والوليجة هي كل ما يتّخذّه الإنسان معتمداً عليه، وليس من أهله. مفردات الراغب: ٨٨٣.

المبحث الخامس

إعداد الوسائل المادية

يمتاز هذا المنهج الوقائي عن سابقه بأنه عملي حركي وفيه إقدام، بينما كانت التدابير السابقة ذات بُعد معرفي أو شعوري، وفي هذا المنهج تنبيه لجميع المؤمنين إلى أن تعهد الله لهم بالتأييد والنصر لا يسقط عنهم الأخذ بالأسباب وبذل الوسع في الاستعداد للحرب والتجهز بوسائل النصر؛ لما أنه - سبحانه وتعالى - جعل جميع أمور الدنيا منوطة بإقامة الأسباب.

وكانت البداية في أوائل العهد المدني، لما كتب الله عليهم القتال، وكان إنفاذه يقتضي أموالاً، قرّن الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ومع أن قوله تعالى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لفظ عام، إلا أن تقدّم ذكر الجهاد يُرجّح أن يراد بها الإنفاق في الجهاد^١، والمعنى: إذا لم تبدلوا في سبيل الله كل ما تستطيعون من مال وعدة لقتال من يعتدي عليكم فقد سلّتم أنفسكم للهلاك؛ لأن الكفّ عن إعداد العدة للجهاد والإنفاق فيه من شأنه أن يقوّي العدوّ عليكم ويُسَلِّطه على إهلاككم^٢، فمقصود الآية النهي عن التسبّب في إتلاف النفس أو الجماعة عند تحقّق الهلاك، والتفريط في الاستعداد للجهاد إلقاء بالأمة والدين إلى الهلاك^٣.

ثمّ كانت غزوة بدر، ولم يكن للمؤمنين فيها استعداد تامّ، فأعاد القرآن التّنبية على ضرورة التأهب وإعداد القوّة الحربيّة، لأنّ النصر من غير استعداد لا يتأتّى في كلّ زمان؛ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والإعداد تهيئة الشيء للمستقبل، فأوجبت الآية على المسلمين اتّقاء بأس العدوّ وهجومه بكلّ ما أوتوا من طاقة، وذلك من خلال تهيئة ما يكون سبباً في تحصيل القوة من أنواع الأسلحة وأساليب القتال وآلات الجهاد، بقصد تخويف أعداء الدّين لكيلا يفكّروا في الاعتداء على دار الإسلام التي

١ ينظر: تفسير الرازي: ٢٩٤/٥.

٢ ينظر: تفسير الطبري: ٣٢٣/٣، تفسير البيضاوي: ١٢٩/١. قال الطبري: والعرب تقول للمستسلم للأمر: أعطى فلان بيديه، وكذلك يقال للممكّن من نفسه مما أريد به أعطى بيديه (تفسير الطبري: الموضع نفسه).

٣ التحرير والتنوير: ٢١٥/٢.

٤ ينظر: تفسير الرازي: ٤٩٩/١٥، تفسير القاسمي: ٣٠٢٤/٨.

تحميها تلك القوة^١. فالإرهاب إذن بحسب المفهوم القرآني هنا هو إعداد قوة وقائية لردع الأفعال العدائية بتخويف عادل^٢ من أجل استتباب سلام حقيقي يتحقق في كنفه ازدهار عام تكون عاقبته نجاة الناس كافة، وهو ما تُعبّر عنه الأدبيات الغربية بقولهم: إذا كنت تريد السلام فاستعد للحرب^٣.

وقد حثَّ القرآن في المقطع الثاني من الآية على إنفاق المال وغيره لإعداد العتاد والتهيئة للقتال مهما قلَّ أو كثر، باعتباره الجهاد الواقعي لأهل الحق منبغي أهل الباطل^٤.

وندد في سورة أخرى بالمنافقين الذين تَوَانَوْا في إعداد العدة وتقاوسوا عن كل أنواع الجهاد ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] وأشاد في موضع آخر بالمؤمنين الفقراء الذين أقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم راغبين في الجهاد، قد أهمهم قلة ما في أيديهم ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيِبُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرَنًا أَلَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (١٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَائُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٢-٩٣].

ومما يدخل في الاستعداد للجهاد أيضًا: المُرَابطة؛ أي الملازمة في الثَّغْرِ للجهاد وترصد العدو، وأصله من رَبَطَ الخيل، ثم استعمل في كلٍّ مُقيمٍ في ثَغْرٍ يَدْفَعُ عَمَّنْ وراءه مَنْ أَرَادَهُ من أعدائهم بسوء ويحمي عنهم مَن بَغَاهُمْ بِشَرٍّ ° ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فالصَّبر^٦ هنا لفظ جامع لفضائل كثيرة منها: الصَّبر على طاعة الله وحفظ دينه، والصَّبر على الأذى، أما المصابرة فهي الصَّبر في وجه الصَّابر، ويعني

١ ينظر: تفسير الرازي: ٤٩٩/١٥، في ظلال القرآن: ١٥٤٣/٣.

٢ تقوم فكرة التخويف العادل على تحذير الناس بعضهم بعضًا من احتمال وقوع الأذى على المعتدين.

٣ ينظر: قاعدة التصحيح القرآني لمفاهيم المصطلحات العربية العشوائية، جلول دكدك، جريدة المحجة المغربية، العدد ٢٣٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م. وهذا يبرز مدى انحراف المفهوم في العصر الحاضر حين تحول إلى حرب استباقية تبيد الأبرياء وترغم المستضعفين على الاستسلام للأقوياء، وتؤدي إلى انهيار تام تكون عاقبته هلاك الناس.

٤ ينظر: تفسير المنار: ٧٦/١٠.

٥ ينظر: تفسير الطبري: ٣٣٥/٦، البحر المحيط: ١٥٦/٣.

٦ تقدم تعريف الصبر ص ٩٢.

في الآية مقاومة أعداء الله الذين يصبرون على الحرب ليغلبوا المؤمنين، والمُرابطة هي الإقامة في الثُّغور والاستعداد الدائم للحرب^١.

يُخلص ممّا سبق:

إن الأساليب القرآنية في توقي الأذى قد وازنت بين رعاية حقّ المستهدف بالأذى وحقّ المزمع على فعل الأذى، فهي تُنكي في نفس الأول شعور القوة المستمّدة من الاستتصار بالله تعالى (العدة الإيمانية)، ومن العمل على الأسباب وفق ما أمر الله تعالى (أخذ الحذر واتخاذ الوسائل المادية).

كما تمهّد للثاني طريق التوبة والرجوع عن الخطأ بما تتطوي عليه تلك الأساليب القرآنية من تشريعات رادعة ومبادئ أخلاقية تأخذ بيد المجتمع نحو السلام العزيز.

وبالرغم من تقرير تلك التشريعات والمبادئ فإنّه -وفقاً لسنة الابتلاء- لن يكون من الممكن للإنسان فرداً كان أو جماعة أن يملك رفع ظاهرة الأذى من حياته مهما حشد من أسباب وتدابير لاتبّاء الأذى، وما التدابير الاحترازية إلا استجابة لأوامر الوحي في اتّخاذ الأسباب وبذل الجهد من أجل تأمين الحرّية الدينية والارتقاء بمستوى العلاقات الاجتماعية بين جميع الأديان والطوائف ما أمكن.

وكما يأمر المنهج القرآني بالاحتراز من الأذى، فإنّه يوجب وبقوة التصدي له حال وقوعه، ومواجهته بحسب مقدور الإنسان وبالأسلوب المباشر أو غير المباشر الذي يُوقفه أو يحدّ منه، فإن لم تتوفّر القدرة فلا أقلّ من أن يسلم الإنسان على دينه ونفسه بمجانبة مصدر الأذى؛ ساعياً في أسباب دفعه ومنتظراً فرج الله بإزالته.

وستخصّص الفصول الآتية للحديث عن الأساليب العلاجية التي شرّعها القرآن الكريم لدفع إيذاء غير المؤمنين.

١ ينظر: الكشاف: ٦٨٣/١، التحرير والتنوير: ٢٠٨/٤، التفسير الحديث: ٢٩٩/٧.

الفصل الرابع

دفع الأذى بالأساليب النظرية

يرشد القرآن الكريم إلى أسلوبين رئيسيين في التعامل مع مظاهر الأذى المختلفة من قبل غير

المؤمنين:

الأسلوب الأول أسلوب مباشر يقتضي استقبال الأذى ومواجهته بالقول أو الفعل، وقد تبين بالاستقراء أنَّ منهج القرآن في دفع الأذى بالمواجهة يتلخص في الأساليب الآتية:

١- الدفع بالأساليب القولية، ويندرج تحته:

-الدفع بإقامة الحجج ودفع الشبه.

-الدفع بالإنذار بسوء العاقبة.

٢- الدفع بالوسائل الحسية.

الأسلوب الثاني أسلوب غير مباشر محوره التَّنَجِّي عن الأذى أو تجنب الأذى، سواء بالاعتزال أو الهجرة أو مبادرة الإحسان، وذلك حين تكون المواجهة أو الرد المباشر غير مثمر.

فهذه الأساليب جميعها إذن تستهدف معالجة الأذى من أجل التأثير فيه بإزالته أو التخفيف

منه.

ويرجع تقدير مناسبة كلِّ أسلوب وإمكان تطبيقه إلى اعتبار الظرف الذي وقع فيه الأذى، والأشخاص المعنَّين بالواقعة سواء كانوا في جهة الفاعل أو المفعول به.

لهذا لابدَّ -قبل الدخول في تفاصيل منهج القرآن الكريم في كلِّ أسلوب- أن يتمَّ استعراض موجز لبيئة النزول من الناحية الدينية والاجتماعية لفهم أبعاد المنهج القرآني في تنوع أساليب الدِّفع بحسب الوقائع وملاحظة سياقات تفعيلها.

تمهيد

لمحة عن بيئة النزول دينيًا واجتماعيًا

أولاً: البيئة الدينيّة والاجتماعيّة لمكة والمدينة.

أ- البيئة الدينيّة.

كان العرب في الجاهليّة يعترفون بالله خالقًا للكون وكاشفًا للضرّ، فإذا أصابتهم الشدّة فزعوا إلى الله وتضرّعوا إليه، ثمّ إذا كشفها الله عنهم أشركوا غيره معه في العبادة والدعاء، إمّا بقصد النّصرة والرّزق أو رجاء أن يكونوا لهم شفعاء عند الله تعالى، أو يطلبون بشركهم القُربة إلى الله تعالى، على اختلاف منازلهم ومداركهم وتنوّع الشّركاء.

لكنّ الشّرك لم يكن هو الدّين الوحيد الموجود في الجزيرة العربيّة، فقد أشارت نصوص قرآنيّة إلى أنّ المجتمع المكيّ قد ضمّ عددًا لا بأس به من الأجنبيّ الذين يدينون بدين أهل الكتاب ولعلّ معظمهم من النّصارى، بينما كان اليهود لهم في المدينة انتشار أكثر وحضور أكبر. وتقيد النصوص القرآنيّة والوقائع التاريخيّة أنّ النّصارى كانوا على قدر من الدّماثة وحسن النّيّة والبُعد عن المناوأة، بينما تصدّى اليهود في المدينة لمعاداة الدّعوة وأهلها، ومارسوا كافّة ألوان المكر والدّسّ في محاربتها. وثمة فئة ثالثة من غير المؤمنين ظهرت في المدينة فحسب، وقفت موقف الجحود والعداء من دعوة النّبي صلى الله عليه وسلم، لكنّها لم تتمكّن من إعلان ذلك، بسبب قوّة المؤمنين في المدينة وغلبة نفوذهم، فتظاهرت بالإسلام وتحالفت سرًّا مع المناوئين للدّعوة الإسلاميّة من اليهود والمشركين، وهي التي أطلق عليها القرآن اسم المنافقين.

ب- البيئة الاجتماعيّة

بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكّة، وقريش حينذاك قد توسّعت تجارتها وازدهرت، وفاض المال على كبرائها، بفضل ذكاء آبائهم وأجدادهم، وحذقهم في أسلوب التعامل، الذين آثروا العيش الهادئ والمسالمة بدفع الإساءة بالحسنة، والشرّ بالصّبر والحلم، وأخذوا على أنفسهم نصرة الغريب والذّبّ عن المظلوم والدّفاع عن حقّ المستجير بهم بما عاد بأحسن النّتائج إليهم. ولكن ما لبثت وفرة المال وحبّ الرّياسة أن أطغت متأخري سادات قريش ممّن عاصروا الرّسالة، فتكاثرت مثالبهم، وفرّخت المظالم والمشكلات.

وكان القانون المتبع والدستور الحاكم يتمثل في قولهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، فهم محافظون حريصون على كل ما وصل إليهم، لا يريدون له تغييراً ولا تبديلاً، مهما بدا لهم في الجديد من منطق وحق^١، فسنتهم التعلق بالماضي، وكراهة الخروج عن العرف والعادة، لأنها تضمن لهم حقوقهم الموروثة وتحفظ مصالحهم وزعامتهم^٢، ومن ثم دأبوا على مقاومة كل ما يهدد زعامتهم ولو أيقنوا بصلاحيته، وكانت الزعامة في مكة بيد أصحاب النفوذ والشرف^٣، وقد بالغوا في الاعتداد بهما والتباهي بكثرة المال والبنين^٤، بحيث صارت هذه المعايير الظاهرية أساس التفاضل بين الناس، وأدت إلى انتشار ظاهرة الطبقية، وفهم العدل على أنه القوة^٥، مما ترتب عليه مظالم كثيرة، منها القسوة على المحتاجين والضعفاء والنساء، وحرمانهم حقوقهم وأكل أموالهم من قبل أوليائهم^٦، وعدم إقراضهم المال إلا برّياً فاحش^٧، وربما يطال الأذى ضربهم وتعذيبهم إلى حد القتل.

ومن أبرز المعالم التي سادت المجتمع العربي حينذاك ظاهرة الولاء والعصبية بين أفراد القبيلة ومن يدخل في حلفهم، وما أورثته من ظلم واعتداء وسفك للدماء، وذلك بالمسارعة في أخذ الثأر ومناصرة القبيلة سواء كانت على حق أو باطل، ومنهم من لا يتقيد بقتل القاتل، بل يقتل غيره من ذوي قرابته اعتباطاً، أو يختار منهم من يوازي المقتول في الحسب^٨ بما يعرف بـ(تكافؤ الدم)^٩، بيد أن العصبية أخذت في بعض جوانبها منحى إيجابياً تجسّد في حرصهم على التآلف والتآزر ومساعدة الضعيف والجوار^{١٠}.

١ الزخرف: ٢٤.

٢ ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٠/٧.

٣ يقصد بالشرف الحسب بالآباء الذين خلد ذكرهم لشيوع خلق نبيل فيهم أو عملٍ فجّ جعلت الناس يلهجون باسمه، فتفاخر به ذريته من بعده (ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٦٤/٨) وقد أشار القرآن إلى هذه العادة في سورة البقرة: آية (٢٠٠).

٤ التكاثر: ١-٢.

٥ ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٩٩/٨.

٦ النساء: ٢.

٧ آل عمران: ١٣٠.

٨ الإسراء: ٣٣.

٩ ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٣٣/٨.

١٠ ينظر: المجتمع العربي قبل الإسلام، عبد الرحمن حللي، مجلة التسامح. السيرة النبوية في القرآن، عبد الصبور مرزوق: ٤٥.

كما امتاز مجتمع العصر الجاهلي بنزعة الدنيوية وميله إلى التمتع باللذة، وقد ارتكبوا المعاصي والمنكرات في سبيل الحصول على المال للإنفاق على مستلذاتهم^١، وكان لهم أعراف في إهانة الناس، منها السب وتبادل الشتائم، ومنها تحريض الأطفال والنساء السفهات على العبث بمن يريدون إهانته والركض خلفه ورميه بالحجارة، وكانوا إذا ذكروا خصومهم تمنوا لهم الشر والأذى^٢.

أمّا في المدينة فقد كان سُكَّانها من اليهود وبعض القبائل العربية كالأوس والخزرج والتي استغلت بدورها الخلافات بين اليهود فسيطرت على المدينة وفتكت باليهود حتى أخافتهم، فجعل اليهود يلجأ كل قوم منهم إلى بطن من الأوس والخزرج يُوالونه ويحتمون به، ويدفعون له ضريبة سنوية لقاء حمايتهم، إذ كانوا أهل تجارة وزراعة وكان يهتمهم المحافظة على حياتهم ومراكزهم وتجاريتهم أكثر من اهتمامهم بالدعوة إلى دينهم ونشره، كما لم يكن من مصلحتهم -باعتبارهم أهل تجارة- الاشتراك في الحروب أو الانحياز إلى حزب إلا أن يعود إليهم بفائدة، فيعمدون حينئذ إلى إيقاع الفتنة وإشعال الحرب بين الطرفين.

وكانوا إذا تضايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبي يستعلون به عليهم، فلمّا ظهر من العرب أنكروا نبوته وأبوا التسليم لها.

ولم يكن -بحسب المصادر التاريخية وما أشار إليه القرآن- أحبار اليهود يحكمون بين الناس بالحق، بل كانوا يحابون ويتحزبون ويحكمون بالباطل ويأكلون الرشوة، ويتساهلون في تطبيق أحكام الشريعة مع الشريف لشرفه ويتشدّدون مع الدنيء لضعف حاله، لذلك كثر الاعتراض بينهم على عدالة حكم بعضهم، كما أدّى التنافس بين ساداتهم إلى نشوب خلافات ومعارك بينهم، فتحالفت بنو قينقاع مع الخزرج، وتحالفت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس. وكثيراً ما كانوا يستغلّون هذه الأحلاف -لاحقاً- للاحتماء بها من تبعات الفتن التي كانوا يثيرونها^٣.

أمّا الأوس والخزرج فكانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن يملّكوا عليهم رجلاً منهم، واختاروا عبد الله بن أبي بن سلول من بطون الخزرج لملازمته الحياد في الصراع بين القبيلتين^٤، واستعدّوا

١ ينظر: المفهومات الأخلاقية-الدينية في القرآن : ١١٠-١١٧.

٢ ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٩٠/٨.

٣ ينظر: مرجع سابق: ١٢/١٢٤.

٤ كان بين الأوس والخزرج عداً وحروب أيام الجاهلية أشارت إليها آية آل عمران: ١٠٣. (ينظر: التفسير الحديث: ١٧٦/٩)

لتوليته مقاليد الرئاسة، إلا أنَّ ظروف هجرة المسلمين حالت دون ذلك، ولعلَّ هذا ما جعله ناقماً فيما بعد على الدَّعوة الإسلاميَّة وحاقداً على الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته^١.

ثانياً: موقف غير المسلمين من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

بدأت مقاومة مشركي مكة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم في أوَّل أمرها سلبيةً، فلم يكتروا بها ونظروا إليها نظرة استخفاف، وظنُّوا صاحبها من أمثال ورقة بن نوفل وغيره من السَّاخطين على الأصنام الباحثين عن الحنيفية وغيرها من الدِّانات الأخرى وإن كان يختلف عنهم في أنَّه يُخبر أنَّه يتلقَّى الوحي من السماء، وكانوا يشيرون إليه في نواديهم قائلين هذا ابن عبد المطَّلب يُكَلِّم من السماء^٢، وشيئاً فشيئاً، أدركوا خطورة دعوته على دينهم وزعامتهم، إذ كانت آخذة في التوسُّع والانتشار، ويزداد أصحابها يوماً بعد يوم، إلى أن نزل القرآن بتسفيه أصنامهم وإبطال عقيدة آبائهم فثاروا على الدَّعوة وحاولوا إخمادها^٣ بالمفاوضات أولاً، ثمَّ بالإنكار والجدال والاستهزاء، ولمَّا يئسوا من جدوى محاولاتهم لجؤوا إلى إيذاء المسلمين لردهم عن دينهم وإخافة غيرهم من الدُّخول في الإسلام، كما عمدوا إلى الطَّعن بشخص النبي صلى الله عليه وسلم ليشتموا الناس عن متابعتهم، فأنهَموه بالسِّحر والجنون والافتراء، وحدَّروا النَّاس منه وعارضوا دعوته بحكاية الأساطير وخرائب القصص، واستمرُّوا في اضطهاد المسلمين وتعذيبهم إلى أن أذن الله للمسلمين ثمَّ للنبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة.

وفي المدينة أيضاً (يثرب) بدأت العلاقات بين اليهود والمسلمين على التعايش القائم على أداء الحقوق، وقامت بينهم العهود، ووقفت اليهود من دعوة النَّبي صلى الله عليه وسلم موقف حياد على ألاَّ يطلَّب منها تغيير دينها والدخول في الإسلام، ثمَّ إنَّهم لاحظوا تغلُّل الإسلام وازدياد قُوَّته وأتباعه، ورأوا في ذلك خطراً على عقيدتهم من الزَّوال، فأعلنوا دفاعهم عن عقيدتهم ورفضوا التَّسليم بما جاء في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وجادلوا في ذلك، وهكذا بدأت الخصومة فكرية، ثمَّ اشتدَّت عنفاً وقوَّة وتطوَّرت إلى معارك وحروب، واتَّصل اليهود بمن وجدوا فيه حقداً وبغصاً للدَّعوة، وبمن تأثَّر سلطانه بدخول أهل المدينة في الإسلام، وما لبثوا أن تراسلوا مع أعداء النبي صلى الله عليه وسلم من قريش لتوحيد خططهم معهم ولحمْلهم على مهاجمة المسلمين في مَعْلَمهم قبل أن

١ ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام: ٥٨٤/١-٥٨٥.

٢ الطبقات الكبرى، ابن سعد: ١٥٦/١.

٣ ينظر: مرجع سابق، الموضع نفسه.

يستقل أمرهم، وقد استغلوا تحالفهم السابق مع الأوس والخزرج في دفع أذى الفتن -التي يثيرونها بين المؤمنين- عنهم^١.

وبقيت فئة في المدينة بعضها من عرب الأوس والخزرج، وبعضها من المتهود لم تقبل بالإسلام دينًا، ولم تتمكّن كذلك من المجاهرة بالكفر في مجتمع مسلم ولا مواجهة المسلمين لأنّهم أضعف من ذلك، فكانوا بين أن يتركوا المدينة، أو يبقوا فيها على كفرهم متظاهرين بإسلامهم، وهم الأكثر، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم القرآن اسم المنافقين، وكان هؤلاء المنافقين على صلة دائمة باليهود لتوافق مصالحهم^٢.

وإذا كان اليهود قد استفادوا من ولائهم لبعض القبائل العربية التي أسلمت، فإنّ المنافقين كانت تربطهم بمسلمي الأنصار رابطة النسب والدّم، ولذلك لم يكن من السهل التخلّص منهم بإجلالهم عن المدينة كما حدث لليهود، أو بقتالهم كما هو الشأن مع الأعداء المشركين، لئلا تتعرّض الدعوة الإسلامية إلى إضعاف مركزها بدعوى أن النبي صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه. ومن هنا كان خطرهم على الدّعوة الإسلامية مضاعفًا^٣.

وقد عالج الرسول صلى الله عليه وسلم عداء المخالفين له في الدين ظاهرًا أو باطنًا، ونوّع في أساليبه معهم بين اللين والشدّة والحلم والحزم والمسالمة والحرب، كل ذلك على هُدي من الوحي وتأيد من الله تعالى.

١ ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٢/١٢١.

٢ ينظر: التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، زيد العيص: ٣٥٨.

٣ ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول: ٣٣٨.

المبحث الأول

إقامة الحجج ودفع الشُّبه

وجد المشركون في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى عبادة الله الواحد الأحد ما ينفض عاداتهم، وينسف تقاليد آبائهم، فتسلطوا عليه بادئ الأمر بالسنتهم فأنهموه في شخصه وشككوا في مصدر دعوته، وأثاروا حولها الشبهات، كما عمدوا إلى مطالبته بأدلة غير القرآن لتعجيزه وإحراجة.

ولم يكن أهل الكتاب أحسن حالاً، إذ إن الحجاج القرآني الذي اتَّجه إلى النصارى منشؤه المناظرات والجدالات التي انعقدت بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ليثبتوا له صحة معتقداتهم، فردَّ عليهم القرآن مبيِّناً لهم العقيدة الحقَّ في عيسى ابن مريم وأمِّه، ولكنَّهم لم يقتنعوا، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم -بأمر القرآن- إلى المباهلة فامتنعوا وصالحوه ثمَّ خرجوا من عنده^١.

أما اليهود فقد مثَّلوا غالبية أهل الكتاب الذين تحدَّث القرآن عنهم؛ وذلك باعتبارهم جزءاً من المجتمع المدني الذي أقام فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه. وقد سجَّل القرآن لهم مواقف عدائيَّة كثيرة نابعة من حسدهم للمؤمنين، وحقدهم على النبي صلى الله عليه وسلم، فحشدوا إمكاناتهم الخطابية مستغلِّين علمهم بأخبار الأنبياء، وانخرطوا في جدل طويل مع النبي صلى الله عليه وسلم، دلَّسوا فيه الحق الذي عرفوه في كتابهم، وشرعوا في طرح الأسئلة التعجيزية لتشكيك المسلمين في عقيدتهم وفَتَّتهم عن دينهم^٢.

وقد تصدَّى القرآن لافتراءات المشركين واليهود، وفنَّد أقاويلهم، وأبطل شبهاتهم في أسلوب ينطوي من ناحية على التَّنديد والتَّبكيك والتَّحدي مطالباً إياهم بالدليل والحجَّة على هذه الافتراءات، ويجري من ناحية أخرى على طريقة منطقيَّة يوجِّه الكلام فيها إلى العقل دون شدة أو مهاترة^٣، وأجاب كذلك عن ادِّعاءات المنافقين الكاذبة وفضح كفرهم.

١ ينظر: تفسير الطبري: ٤٧٠-٤٧١.

٢ ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم: ٣٨٠-٣٨١.

٣ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم: ١٥٨.

المطلب الأول

دفاع القرآن عن عقيدة التوحيد والبعث.

جادل المشركون وأهل الكتاب في معتقداتهم ولجؤا في محاولة إثباتها؛ لصَدِّ الناس عن دعوة الإسلام إلى التوحيد، لكنَّ القرآن ردَّ أباطيلهم بمختلف البراهين العقلية من خلال المناظرة والحوار تارة، أو من خلال إيراد الحجة ابتداء تارة أخرى، وكثيراً ما كان يطالب الخصوم بالدليل^١، منذِّداً بالأساس النظري الذي يبنون عليه معتقداتهم كالتقليد وإتباع الهوى والحكم بالظنِّ، وكاشفاً عن ضعف موقفهم^٢.

وتنوّعت الأساليب الحجاجية في القرآن الكريم—إما خطاباً مباشراً من الله أو على لسان الأنبياء والمؤمنين—مراعاة لاختلاف عقول المخاطبين وحالاتهم النفسية، فكان منها: السُّبر^٣ والتَّقسيم^٤، والتَّحْدِي^٥، والترقي^٦، والهُدْم^٧، والقياس^٨، والمناقضة^٩، وتعليق الأمر على مستحيل^{١٠}، والرَّدَّ إلى أمور بديهية وغيرها من الأساليب الكثيرة ممَّا تكون ألزم للحجَّة وأدعى إلى القبول والملاءمة^{١١}.

١ البقرة: ١١١، الأنبياء: ٢٤، النمل: ٦٤.

٢ البقرة: ٨٥، ٨٧، الكهف: ١.

٣ السُّبر والتَّقسيم: حصر الأوصاف في الأصل ثم إبطال ما لا يصلح ليتعيَّن ما بقي. (ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف: ١٩٠) مثل آية (٢٨) في سورة غافر.

٤ التحْدِي: المباراة في فعل والمنازعة للغلبة، أو طلب المباراة على شاهد دعواه (التعريفات الفقهية، محمد عليم الإحسان المجددي البركتي: ٥٢) مثل آية المباهلة في سورة آل عمران آية (٦١).

٥ الترقي: تناول الأدنى فالأعلى، وعكسه التذلي (ينظر: الكليات: ٢٥٨) ومثال الترقي ما كان من أسلوب إبراهيم عليه السلام في نقض عبادة قومه، ومنه أيضاً الآية (١٩٥) في سورة الأعراف.

٦ الهُدْمُ إسقاط البناء، أي أن يأتي الغير بكلام يتضمَّن معنى فتأتي بضدِّه (ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ٤١٢/٣، التوقيف على مهمات التعاريف: ٣٤٣)

٧ القياس حَمَلٌ مجهول على معلوم لمساواته له في عِلْيَةِ حكمه. (ينظر: الحدود الأنيفة والتعريفات الدقيقة، زكريا الأنصاري: ٨١).

٨ المناقضة: منْعُ بعض مقدمات الدليل أو كَلِّها مفصلاً (ينظر: الحدود الأنيفة والتعريفات الدقيقة: ٨٣). مثل الآية (٨٩) من سورة البقرة.

٩ الزخرف: ٨١.

١٠ ينظر: منهج القرآن في إقامة الدليل والحجة، مجاهد محمود أحمد ناصر: ١٧٦.

وكان تقرير القرآن للعقيدة السليمة ونَبْذُهُ ما سواها من الشِّرك هو أساس العداوة القائمة من غير المؤمنين، فقد كانت قريش بادئ الدعوة تنتظر إليها باستخفاف ومن غير مبالاة إلى أن تعرَّض القرآن للأصنام وعقيدة الآباء يُنكرها ويعُدُّها ضلالاً فقاموا عليه وعلى أتباعه.

وبمثل هذا الموقف استقبل اليهود وفود النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه إلى المدينة، إذ كانوا يتوقَّعون انضمامه إليهم، فلمَّا استبان لهم موقفه وكشف القرآن عن تحريفاتهم وما كان من فساد آبائهم استكفوا عن قبول الدعوة وترصدوا لها الأذى.

وكانت تتلخَّص معتقدات الكفار على اختلاف مذاهبهم في الألوهية -بحسب ما عرضه القرآن- في عبادة الأصنام، والادِّعاء بأنَّ الملائكة بنات الله، وادِّعاء ألوهية عيسى ابن مريم وأمه، وادِّعاء اليهود بأنَّ عزيزاً ابن الله، فردَّ عليهم القرآن ردّاً عاماً يقرّر فيه استحالة وجود إلهين معبودين ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وردَّ على جُلِّ الشُّبهات ردّاً خاصّاً^١، فمن أمثلة ردِّ القرآن على عبادة المشركين للأصنام وما ادَّعوه من اتخاذها أولياء قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١١٧) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١١٢) وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى طُرُقِهِمْ لَا يَنْصُرُوهُمْ سِوَاهُ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١١٣) إِنْ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ (١١٥) إِنْ وَلِيَ اللَّهُ أَلْزَىٰ نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٦] فقد أبطل في هذه الآيات ادِّعاءهم ألوهية الأصنام بالمناقضة؛ فهم يقرّرون أنَّ الأصنام من شأنها أن تتولَّى أمورهم، لكنَّ ذلك غير متحقِّق؛ لأنَّها مسلوبة القدرة والإرادة، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً، فكيف تجلبه لغيرها أو تدفعه عنه، وفاقد الشيء لا يعطيه؟! وسماهم في الآية عباداً وهم جمادات؛ لأنه يُفترَض فيمن يُنخذ ناصراً ومعيناً أن يكون عاقلاً^٢. وتكرَّر هذا المعنى في القرآن كثيراً في سياقات ومناسبات مختلفة^٣.

١ ينظر: منهج القرآن في إقامة الدليل والحجة: ٢٢٥-٢٢٦.

٢ ينظر: البحر المحيط: ٤/٤٤٠.

٣ الأنعام: ١٤، ٧١، يونس: ٣٥، الرعد ١٦، سبأ: ٢٢.

وفي الردّ على زعمهم بأنّ الملائكة بنات الله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بَابْنِينَ﴾ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكُنُّبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ أَلَيْسَ لَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿الرُّخْف: ١٦-٢٢﴾ فقد بيّنت الآيات الأساس الذي قامت عليه أوهام المشركين في اعتقادهم بأنّ الملائكة بنات الله -جلّ وعلا- وأنها مبنية على الظنّ والتقليد، وفي آية ثانية طالهم بالدليل على افتراءهم على الله تعالى هذا الزعم: ﴿فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ لَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (١٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (٢٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ لَيَقُولُونَ (٢١) وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُمْ لَكُذُوبٌ (٢٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (٢٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٢٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (٢٦) فَأَتُوا بِكُرْسِيِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿الصفات: ١٤٩-١٥٧﴾ مقررًا في موضع آخر الحجة العقلية التي تنفي هذه الشبهة: ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْيَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿الإسراء: ٤٠-٤٣﴾ أي إنّ التسليم بمقولتهم يلزم منها الوقوع في المحذور، لما تقضي إليه الشراكة من المدافعة والمغالبة ومن ثمّ اختلال العالم، أو أن يكون المعنى إذا كان اعتقادكم بالوهية الملائكة من حيث إنّها تشفع لكم عند الله فهذا يعني احتياجها إليه، الأمر الذي يتنافى مع مقام الألوهية، وقد تكرر نفي القرآن لألوهية الملائكة في مواضع أخرى ليس محلّ بسطها هنا^١.

وفي نفيه لألوهية عيسى ابن مريم وأمه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ ۚ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿المائدة: ١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥) قُلْ

١ ينظر: التحرير والتنوير: ١١١/١٥-١١٢.

٢ النحل: ٥٧، الطور: ٣٩.

أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٥﴾ [المائدة: ٧٥-٧٦] فأبطل الدعوى بذكر بعض مظاهر بشرية عيسى عليه السلام وأمه، وأنَّ إرادة الله نافذة فيهما، فلا يقدران على رفع الهلاك عنهما ممَّا يعني أنَّهما عبدان لله مملوكان له^١.

وقد تضمَّن نفي القرآن لتعدد الآلهة نفيه لألوهية عزيز وأمثاله من صالحى البشر.

أما قضية البعث والجزاء فقد كانت ثاني أهمِّ موضوعات الجدل والحجاج بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشرِّكين من جهة، ومن أهمِّ وسائل تدعيم الدعوة الإسلامية حيال ظاهرة الأذى من جهة أخرى بما تضمَّنته من إنذار للمؤذَى وبشارة للمؤذَى وعظة وتذكرة لكلا الطرفين.

وكان المشركون يستبعدون وجود حياة وراء حدود هذا العالم، وما كان يأتي على لسانهم من ذكر للخلود فإنَّما يعنون به الحياة الأبدية في الدنيا، ومع إدراكهم باستحالتها إلا أنَّ مسيرة الحياة عندهم تنتهي بالموت، ومن ثَمَّ جنحوا إلى إرواء الشهوات المادية، كما تنافسوا على تحصيل المآثر ليخلد ذكركم بعد موتهم^٢. وما إن جاء القرآن بنقض مزاعمهم وإثبات حياة آخرة بعد الموت حتَّى أدركوا خطورة موقفهم، وبخاصَّة ما تضمَّنته الآيات من مواقف الخصومة بين الرُّعماء والضُّعفاء في النَّار والتي صوَّرت مدى ضعف الرُّعماء وعجزهم عن نصر أنفسهم فضلاً عن نصرة غيرهم، وفي هذا ما فيه من تحريض عامَّة النَّاس على عصيان الرُّعماء فيما يأمرُونهم به من عدم الاستجابة إلى الدعوة^٣، كما ندَّدت الآيات باعتدادهم بالمظاهر المادية مقياساً للتفاضل وأنَّها لن تنفعهم في شيء يوم القيامة، كلُّ هذا زاد لديهم قوَّة العناد والصِّدِّ، ودفعهم إلى إثارة الشبهات والتساؤلات حول البعث والنشور، وحلف الأيمان الكاذبة على بطلانه^٤، وعدَّه حكاية شبيهة بأساطير الأولين^٥، وكانت حجَّتُهم في الإنكار أن طلبوا تعجيل وقوع السَّاعة تارة^٦، وإحياء آبائهم الميتين تارة أخرى^٧.

وقد أجاب القرآن عن أسئلتهم حول البعث في مسلكين^٨:

١ ينظر: البحر المحيط: ٤٦٥/٣.

٢ ينظر: المفهومات الأخلاقية-الدينية في القرآن: ١١٢-١١٣.

٣ ينظر: سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم: ١٨٢-١٨٣.

٤ النحل: ٣٨.

٥ النمل: ٦٨.

٦ يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥.

٧ الدخان: ٣٦.

٨ ينظر: منهج القرآن في إقامة الدليل والحجة: ٢٥١-٢٥٧.

الأول: الاستدلال المادي: ينطلق القرآن في البرهنة على البعث من خلال ظواهر كونية ومقدمات يُسلمون بها أو يعاينونها، ثم يبني عليها النتيجة بطريق الأولى أو المماثلة: فالذي خلق أول مرة -وهي مقدّمة يسلم فيها الخصوم- قادر على إعادة الخلق وهو أهون عليه^١، ومن خلق السماوات والأرض أيضًا قادر على خلق الإنسان بطريق الأولى^٢، وكذلك فإنّه من قدر على إخراج النار من الشجر الأخضر لا يُعجزه إحياء العظام وإعادتها بشرًا سويًا^٣، ومنه أيضًا إحياء الأرض بعد موتها من اعتبار الشيء بنظيره^٤.

الثاني: الاستدلال المعنوي: أي إنّها أدلة غير مرئية، تُدرك بالعقل ويُقرأها المنطق، وذلك من خلال الاستدلال بالحكمة الإلهية من خلق الموت والحياة^٥، والاستدلال بالعدالة الإلهية والعدالة البشرية بما تقتضيه من عدم تساوي الناس في المصائر، الصالح والفاقد، والمحسن والمسيء، والظالم والمظلوم^٦، فلا بد إذن من يوم يُكشف فيه عن العمل لينال كل إنسان ما يستحقّه من الجزاء.

ومن الردود القرآنية الجامعة في قضية البعث والجزاء قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُوَفَّ وَ مِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥-٧]

١ الأنبياء: ١١٠، الأعراف: ٢٩، مريم: ٦٦-٦٧، ق: ١٥، القيامة: ٣٨-٤٠.

٢ يس: ٨١، الإسراء: ٩٨-٩٩، الأحقاف: ٣٣، النازعات: ٢٧.

٣ يس: ٧٩-٨٠.

٤ الروم: ٥٠، فاطر: ٩، فصلت: ٣٩، ق: ١١.

٥ المؤمنون: ١١٥، الأنبياء: ١٦، الدخان: ٣٨، الملك: ٢.

٦ ص: ٢٨، الجاثية: ٢١، القلم: ٣٥-٣٦.

المطلب الثاني

إقامة الحجّة على نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

اشتهر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بالصّادق الأمين، وعُرف بين قومه برجاحة العقل وكرم الأخلاق، فلمّا اصطفاه الله للبعثة تنكّروا له وألصقوا به التّهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩-٧٠] فهم يدركون إذن مجانبتهم للحقيقة بما عرفوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي عليه، لكنّ بُغضهم لما جاء به من دين جديد عليهم مختلف عمّا توارثوه عن آبائهم جعلهم يقفون منه موقف المرتاب.

أولاً: شبهات المشركين حول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته والرد القرآني عليها وتعود جملة اعتراضاتهم على النبي صلى الله عليه وسلم -بحسب ما سجّله القرآن- إلى ثلاثة أمور

أ- الاعتراض على بشريّة الرسول صلى الله عليه وسلم

إذ كان العرب يفترضون في النبي طبيعة خارقة، تتمتع بقدرات ومواهب تفوق طاقات البشر، ومن ثمّ طلبوا إنزال الملائكة عليهم بدلاً من الرّسول البشر^١، كما طلبوا منه أن يأتيهم بمزايا خارقة تفضّله عنهم، وفي هذا مؤشر على قصور إدراكهم تكريم الله للإنسان^٢.

وقد أجاب القرآن عن شبهتهم بما يأتي:

١- هذا الادّعاء ليس جديداً في مضمونه، بل هو شأن الأمم السابقة مع أنبيائهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ٩-١٠] ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥)

١ البقرة: ٢١٠، الأنعام: ٨، ١١١، ١٥٨، هود: ١٢، الحجر: ٧، الفرقان: ٢١.

٢ الإسراء: ٩٠-٩٤.

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِ حِمْدِهِ ﴿[التغابن: ٥-٦] ١.

٢- بشرية الرسول سنة إلهية في كل من أوحى إليهم برسالة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩، النحل: ٤٣] ٢؛ لأن طبيعة الملائكة غير مهيأة للاستقرار في الأرض وهم في صورتهم الملائكية، فلو قدر الله أن تعيش الملائكة في الأرض لصاغهم في صورة آدمية؛ لأنها الصورة التي تتفق مع طبيعة الأرض، ولأن الرسول البشر يمكنه أن يؤدي دوره في قيادة البشر، وأن يكون قدوة ممكنة التقليد في أخلاقه وأسلوب حياته، وفي صبره وقوته أمام المكاره، ولو كان ملكاً ما فكروا في تقليده ولا محاكاة عمله لأنهم يشعرون بمغايرة طبيعته عن طبيعتهم ٣ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] وقال: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا لَمَلِكَةٌ يَمْسُوكَ مُظْمِئِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]

٣- ولو أن الله حقق لهم رغبتهم في إنزال الملائكة أو بسط لهم ما طلبوه من خوارق لن يكون ذلك سبباً في إيمانهم؛ لأن باعثهم في الطلب إنما هو العناد والتعجيز، وإلا فإن الدعوة إلى الله تعالى ومكارم الأخلاق لا تحتاج إلى معجزات، لأنها تخاطب العقل والقلب بما انطوت عليه من مبادئ الحق والخير والبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحلال الطيبات وتحريم الخبائث والفواحش، فضلاً عن أنها رسالة خالدة لا تختص بهذا الجيل من القوم ٤ ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيَوْمِنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]

٤- وقد مضت سنة الله في عبادته أن تتبع الخوارق أو المعجزات الحسية بنزول العذاب إذا قوبلت بالتكذيب. قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَكُكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] وفي

١ ينظر أيضاً حكاية القرآن عن أفراد الأقوام: هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٣-٢٤، ٣٣، ٤٥-٤٧. الشعراء: ١٥٤، ١٨٦، يس: ١٤-١٥، القمر: ٢٤.

٢ ونظيرها: الأنبياء: ٧.

٣ في ظلال القرآن: ٢٢٥١/٤.

٤ ينظر: التفسير الحديث: ١/٤٩١.

موضع آخر: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]

ب- الاعتراض على تعيين النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة

فقد كانوا يرونه دونهم في العصبية والغنى، ظناً منهم أن النبوة لا تصلح إلا للعظماء والوجهاء وفق أعرافهم^١ كما أخبر عنهم القرآن: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] فصَحَّ القرآن نظرتهم الخاطئة، وأنكر عليهم لأن الله هو الذي تولَّى قسمة أرزاق العباد الدنيوية، ولم يُفَوِّضْ ذلك إليهم مع أنها أقل رتبة من رحمة الله المتمثلة في اصطفاء الله عبده لتبليغ رسالته، فأولى وأحرى أن تكون الرسالة والنبوة بيد الله وحده وهو أعلم حيث يجعل رسالته^٢، قال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩] أي ليس ذلك لهم حتَّى يمنحوها مَنْ شَاءُوا ويمنعوها من أرادوا. وقال: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] فالجاه والثروة إن صلحا -في زعمهم- معياراً للتفاضل في بعض أمور الدنيا فإنهما لا يصلحان قطعاً للتفاضل في أمور النبوات والرسالات؛ لأنَّ للأخيرة معياراً ربانياً آخر، وهو لا يُنْزَلُهَا إِلَّا عَلَى أَزْكَى الْخَلْقِ قُلُوبًا وَنَفْسًا، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]^٣.

١ تحدث القرآن عن ترديد هذه الشبهة على لسان بعض الأمم السابقة. ينظر مثلاً: القمر: ٢٥، الزخرف: ٥١-٥٣.

٢ ينظر: تفسير السعدي: ٧٦٤، التحرير والتنوير: ٢٥/٢٠٢.

٣ ينظر: السيرة النبوية في القرآن، عبد الصبور مرزوق: ٤٣.

ج- الطعن في صدق دعوته صلى الله عليه وسلم

إنَّ المشركين لم يققوا عند حدِّهم، ولم يكتفوا بالتَّشكيك في نبوَّتِه، فالصَّقوا به الاتِّهامات الباطلة، وطعنوا في أمانته وفيما جاء به، واتَّهموه بالكذب والسِّحر وقول الشَّعر والكهانة، وبأنَّه يتلقَّى القرآن من لدن بشرٍ أو جنٍّ وشياطين، فدفع الله عنه مطاعنهم الكاذبة وردَّ اتِّهاماتهم الباطلة.

• اتِّهامه بالجنون

وأوَّل ما رُمي به كان ما نسبوه إليه من الجنون، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَقُولُنَّ بَأْصَرُهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] أي إنَّ ما يرد إليه ويدَّعيه من الوحي إنَّما هو من اتِّصاله بالجنِّ وتلقَّيه عنهم، ولم يكن قصدُهم على الأرجح أنَّه مختلُّ العقل أو مريضٌ بالصَّرع، فقد كانوا يعرفون فيه راحة العقل وسلامة الدِّهن، ولكنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ شياطين الجنِّ يوحون إلى الشُّعراء النوابع بشعرهم، وإلى الكُهَّان والعرفَّاء والسَّحرة بما يقولونه للنَّاس الذين يراجعونهم لحلِّ ما يلمُّ بهم من مشكلات، وما يؤيِّد هذا المعنى للجنون إجابة القرآن على هذه التهمة بأنَّ القرآن تنزِيلٌ من الله تعالى بواسطة الملك^١.

وتتلخَّص أبرز معالم المنهج القرآني في الردِّ على هذه التهمة بما يلي:

١- نفي التُّهمة عن النبي صلى الله عليه وسلم وتذكير المشركين بما عهدوه من سيرته السابقة وسلوكه فقد لبث النبي صلى الله عليه وسلم فيهم أربعين سنة قبل البعثة لم يعرفوه إلا متَّصفاً بأسمى الأخلاق وأنبَل الصفات كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [النكوير: ٢٢] إشارة إلى أنَّه نشأ بين أظهرهم من ابتداء أمره إلى زمن البعثة، فهُم أعرف بما كان عليه من كمال الخُلُق والعقل ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩] ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾^(٢) وإنَّ لك لَاجِراً عَيراً مَّمنونٍ^(٣) وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وفي التعبير بـ(على) -الدالة على الاستعلاء المجازي الذي يراد به التَّمكُّن- وما سبقها من حروف تأكيد مُشعرٌ بتمكُّنه ورسوخه صلى الله عليه وسلم من كل خُلُق كريم، وكان ذلك منه طبعاً أصيلاً غير متكلِّف ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] لأنَّ المتكلِّف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إلى الطَّبع^٢، من أجل ذلك ندَّد القرآن بتتَّكُّرهم لمعرفتهم السابقة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ

١ ينظر: التفسير الحديث: ٥٠٤/١، المجتمع العربي قبل الإسلام، عبد الرحمن حلي.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ٦٠١/٣٠، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي: ٤١/١٥.

لَهُ، مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ الْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٠﴾ [المؤمنون: ٦٩-٧٠] ودعاهم إلى إعمال عقولهم مستقلة عن التفكير الجمعي الذي قد يورث صاحبه التقليد الأعمى، كي ينظروا في حال النبي صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه فيدركوا الحقيقة التي كرهوا الإذعان لها ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرْدِي ثُمَّ نَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]

٢- نفي التلقّي عن الشياطين وتقرير أن ما جاء به مُرسَل من الله تعالى بواسطة الملك بالدليل السّمعي، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ١٩-٢٧] وما كان فيه موعظة وهدى لجميع الناس لا يمكن أن يكون مأخوذاً من شيطان، لأنّ الشياطين لا توحى بهذا النهج القويم، ولذلك دعاهم القرآن إلى تدبّر نفس القول الذي يُتلى عليهم وما يتضمّنه من مبادئ الخير والحقّ والعدل بما يُستبعد أن يكون مصدره شيطاني^٢، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، كما أنّ وَصَفَ الملك بالقوة في قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ٢٠] و﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] فيه إشارة إلى امتناع الوحي أن تطالّه يد الأعداء بتحريف أو تغيير^٣، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢] أي محال بينهم وبين سماع ما يدور في الملأ الأعلى وخاصّة بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد خُرسَت السّماء بالملائكة ومُلئت بالشُّهب لتطردهم؛ وذلك عصمة للوحي أن يلتبس بما تلقّيه الشياطين للكُفّهان، كما نصّت على ذلك آيات أخرى^٤.

٣- السُّخْرية من الأنبياء واتِّهامهم بالجنون قصة مُكرّرة ومُعادة، كانت في الأمم قبلهم، وهاهم الآن يُثيرونها مجدّداً مع الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم، وكأنّ أولهم قد أوصى آخرهم

١ ينظر: منهج القرآن في إقامة الدليل والحجة: ٢٣٩.

٢ أخبر القرآن الكريم في آيات أخرى عمّا توحّيه الشياطين من شرّ، وما تدعو إليه من ضلال وسوء: البقرة: ١٠٢، الأنعام: ٧١، ١٢١، الأعراف: ٣٠.

٣ ينظر: تفسير الماتريدي: ٤٣٥/١٠.

٤ الحجر: ٩، ١٦-١٨، الصافات: ٦-١٠.

بسلوك طريق التكذيب والإعراض^١، فالاستهزاء سجيّتهم التي لا يُحسنون غيرها وعادتهم التي ليس لهم عمل سواها^٢، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ (٥٢) ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣] أي إنّ موقف التّكذيب ليس منشأ استمراريّته التّواصي، لكنّ جميع المكدّبين للرّسل قد سلّكوا في تجاوزهم للحدّ وإعراضهم عن الإيمان مسلّكاً واحداً^٣، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٣] وفي هذا تنبيه للنبي صلى الله عليه وسلم وتسليته بأنّه يُلاقي ما لاقى الأنبياء قبله من أقوامهم، فلا يُحزنه افتراءات قومه.

٤- كلّ مَنْ يدّعي ما لا يُعلم ببداهة العقول فعليه إقامة الحجّة كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُوفٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَا تَ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨] لكنّ المشركين لا يملكون إثباتاً لصدق دعواهم، لأنّ طعنهم في النبي صلى الله عليه وسلم مرّدّه إيثارهم للهوى على الهدى، واستغراقهم في شهوات الدنيا ومتاعها، واستكبارهم عن الإذعان لدعوة التوحيد لمخالفتها دين آبائهم. قال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ [الحجر: ٣] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفّات: ٣٥] ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨) ... وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨-٧١].

• اتّهامه بالسحر

ومن المواقف المبكّرة للمشركين في تناولهم على النبي صلى الله عليه وسلم بالأذى ما ورد عن الوليد بن المغيرة حين وقف -بعد سماعه تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم- متأثراً أمام قومه بنظّم القرآن وإعجازه، فأنكروا عليه ذلك ودفعوه إلى الرجوع عن قوله، فنزلت في حقّه آيات القرآن تُصوّر بدقّة متناهية مشهد تفكّره وتأمله في حال النبي صلى الله عليه وسلم وما يُوحى إليه، في أسلوب مُنطَوٍ على التّوبيخ والتّقريع لما آل إليه سوء تقديره من ردّة عن الحقّ وإعراض عن النور ﴿فَكَرَّ وَدَرَّ﴾ (١٨) ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُ﴾ (١٩) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٢٣) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا

١ الحجر: ١٠-١١، الزخرف: ٦-٧.

٢ ينظر: تفسير القرطبي: ٥٠٥/١٩، التحرير والتنوير: ٢٣/١٤.

٣ ينظر: مرجع سابق، الموضع نفسه.

سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ [المدثر: ١٨-٢٤] وقد أعجب المشركون بمقولة الوليد وما أسفر عنه نظره في الوحي المتلق على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم وجدوا في آيات القرآن الكريم ما يُذهِبُ بلبِّ السامع ويؤثر على روحه، وسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يعتادوه ولم يشاهدوه، فزعموا أنه تحت تأثير السحر فيما يخبر به ويتلوه، وتكرّر على لسانهم مقولة أن النبي صلى الله عليه وسلم ساحرٌ أو مسحور، وأن القرآن سحر^١؛ بمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم يأتي بأقوال منكّرة وغير مألوفة، ويتوهم وجود ما لا وجود له، ويُذَرُ بشيء لا يدخل في نطاق العقل والواقع والممكن^٢، فتناولوا عليه بالسُّخْرية والاستهزاء^٣.

وكشَفَ القرآن عن بواطن تقولاتهم وسبب تناولهم^٤، بما تضمّنته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم من إنذار لهم بالبعث والنشور للجزاء والمساءلة^٥، ولمخالفة الدعوة دين آبائهم^٦، ولغلبة الهوى عليهم^٧، كما استشهد بأهل الكتب السماوية السابقة بما يعلمونه من نزول القرآن من الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وفقاً لما بشرت به الكتب، لكنّ المشركين تعنّتوا وزعموا أن ما يأتي به هو ومن سبقه محض افتراء مستمر. قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢] ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكِلَايَا كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨] فتأهوا بعنادهم عن سبيل الحق والرشاد، ولم يجدوا حجة مقبولة يُقَوِّمُوا بها تهافت قولهم ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨] وترتّب على كفرهم وعنادهم أن حجب الله عنهم أسباب التأثير بالقرآن وفهمه ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْ يَدْرِوهُمْ نَفُورًا﴾ ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْمَعُونَ بِهِ إِذْ يَسْمَعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ حُجْرَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٧] وقد أجاب القرآن عن تعلّقهم بتهمة السحر وكثرة ترديدهم لها بأن اتّهامهم ليس إلا تعبيراً عن عجزهم عن معارضة

١ الأنعام: ٧، يونس: ٢، هود: ٧، الحجر: ١٥، الإسراء: ٤٧، الأنبياء: ٣، الفرقان: ٨، القصص: ٤٨، سبأ: ٤٣، الصافات: ١٥،

ص: ٤، الزخرف: ٣٠، الأحقاف: ٧، القمر: ٢.

٢ ينظر: التحرير والتنوير: ٣١٠/٢٩، التفسير الحديث: ٤٥٣/١.

٣ الإسراء: ٤٧، سبأ: ٧، ص: ١٢-١٥.

٤ الإسراء: ٤٦-٤٧، ص: ٤-٥.

٥ هود: ٧، الإسراء: ٤٥، الفرقان: ١١.

٦ سبأ: ٤٣، ص: ٦-٧.

٧ القصص: ٥٠.

دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، شأنهم في ذلك شأن المغلوب الذي يتعلّق بالمعاذير الكاذبة، لأنّهم كانوا قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد طلبوا رسولاً منهم ليؤمنوا به ويهتدوا، فلمّا جاءهم الرّسول بالحقّ أعرضوا عن دعوته استكباراً^١، واستنكروا -حسدًا- أن يكون محمّد صلى الله عليه وسلم تميّز عنهم بشرف النّبوة^٢، فادّعوا كذبَه وطلبوا منه البراهين والمعجزات الحسيّة على صدق دعوته، لكنّ الله تعالى أبى مجاراتهم لعلمه السّابق بأنّ مطالبهم عناد ومكابرة مهما عاينوا من الآيات المحسوسة ولمسوها، ولسوف يعيدون قولتهم، وأنّ ما رأوه خيال لا حقيقة له، وما لمسوه خديعة باطلة ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾^٣ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥]

من هنا جاءت دعوة القرآن للمشرّكين أن يأتوا بكتاب أهدى من وحي الله تعالى الذي يزعمون بطلانه، معلّناً استعداده للإيمان به إذا ما جاؤوا به، فإن لم يستجيبوا للتحدّي فقد أقاموا الدليل على أنّهم يتّبعون أهواءهم ويلقون بالقول جُزافاً بغير علم ولا سند^٤. قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^٥ ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٩-٥٠] ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الفر: ٣] وفي هذه الآية تعريض بأنّ أمر الرّسول صلى الله عليه وسلم لا بدّ أن يستقرّ إلى الظهور والنصرة لأنّه أمر واضح بيّن لا خفاء فيه ولا تخيل، وأنّ أمر مكذّبيه لا بدّ أن يستقرّ إلى الخذلان والشقاوة، وفي هذا ردّ على زعم المشركين أنّ ما يأتي به النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبيل السحر الذي لا يلبث أن يذهب تأثيره.

بل إنّ أبرز برهان يُبرّئ الرّسول صلى الله عليه وسلم ودعوته من أوهام السحر ما أكّده القرآن مراراً وتكراراً -منذ بدايات تنزّله- أنّ الدعوة عالمية وخالدة إلى قيام الساعة، إذ لا يمكن لأيّ سحر مهما كانت قوّته أن يتحدّى العالمين، ويدعوهم للوقوع تحت تأثيره على امتداد القرون وتتالي

١ فاطر: ٤٢-٤٣، ص: ٢٠.

٢ ص: ٤.

٣ ينظر: التفسير الحديث: ٣/٣٢٠.

٤ ينظر: تفسير أبي السعود: ١٦٧/٨.

الأزمة^١. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] فضلاً عن أن مهمة الرسول المنحصرة في التبليغ والإنذار دون الضَّغط على الناس بقوة لاتباعه، بالإضافة إلى ما تضمنته الدَّعوة من حكمة وعِظة، حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ على الطَّاعنين بأنَّه لو كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم ساحراً حقاً لأثر فيهم بسحره كما أثر على من آمن به. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأُنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْنُذُرُ﴾ [القمر: ٤-٥].

• اتهامه بالشعر والكهانة

وما يُردّ على المشركين في تهمة الجنون والسَّحر يقال في الشَّعر والكهانة، إذ يؤكِّد القرآن أنَّ الرُّسول محمد صلى الله عليه وسلم -كسائر الرُّسل قبله- مُبلِّغٌ لرسالة الله مُتَّبِعٌ ما يوحى إليه ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات: ٣٧] لا يزيد فيه -من نفسه أو من غيره من البشر- ولا يُنقص، وهو كريمٌ ليس بكاذبٍ ولا مُفْتَرٍ، ولو كان ادَّعى أنَّ القرآن منزلٌ من الله تعالى ولم يكن كما قال لما أقرَّه الله على تقوُّله، ولعاجله بالعقوبة، وكان المشركون يقرُّون بقدرة الله الواسعة، فأخبر الله تعالى أنَّ تأديبه لأوليائه وخاصَّته أسرع وقوِّعاً منه بأعدائه؛ إيماءً إلى جديَّة هذا الأمر التي لا تحتل تسامحاً ولا مجاملة لأحد كائناتاً من كان^٢. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَاهُوَ يَقُولُ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٧] والقِلة في قوله ﴿قَلِيلًا﴾ بمعنى العدم، أي إنَّهم لا يؤمنون ولا يتذكَّرون^٣. واقتران الإيمان بتهمة الشَّعر، والتذكُّر بتهمة الكهانة؛ لما أنَّ القرآن لا يُشَبِّهه بضروب الشَّعر إلا جاحد معاند؛ لأنَّه أمر واضح، ومن ثمَّ لم يتصدَّ القرآن للاستدلال على إبطاله، أمَّا مباينة القرآن للكهانة فإنَّها تحتاج إلى أدنى تأمل في أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم ومعاني القرآن وأسلوب نَظْمِهِ المنافي لطريقة الكهنة ومعاني أحوالهم^٤.

١ ينظر: المطاعن الموجهة إلى النبي والرّد عليها في القرآن الكريم: ٢٨٠.

٢ ينظر: تفسير الطبري: ٢٤٣/٢٣، تفسير الماتريدي: ١٩٠/١٠، التحرير والتنوير: ١٤٧/٢٩، في ظلال القرآن: ٣٦٨٩/٦.

٣ ينظر: تفسير النسفي: ٥٣٣/٣.

٤ ينظر: تفسير البيضاوي: ٢٤٣/٥.

ومع هذا فقد تحدّاهم القرآن بأن يأتوا بمثل نظمهم؛ لأنه إن كان شعراً ففيهم الشعراء البلغاء، وإن كان كهانة فبينهم الكهنة الأذكىاء، وفيهم أيضاً من يرتجل الخطب ويقص القصص، فإن كان محمد صلى الله عليه وسلم قد جاء به من عنده -وهو نظيرهم في الفصاحة- فإن مثله منهم قادر على نظم ما يأتيهم به، ثم أخبر الله تعالى بأنه صرف نبيه عن معاطاة الشعر، لأنه لا يتناسب مع مهمة النبوة وجلالها^١. قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] وكشف القرآن عجز المشركين عن الإتيان بمثله، لما استيقن في أنفسهم أن ما يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم يفوق كلام البشر، وليس لهم إلى معارضته سبيل، ولم يبق لهم إلا أن يتعلّلوا بانتظار موته كما ذهب غيره من الشعراء، ويتواصوا فيما بينهم بالثبات على ما هم عليه حتى يأتيه الموت فيرتاحوا منه، ويرجع الأمر إليهم^٢. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فأمر الله تعالى نبيه أن يجيبهم عن مقالاتهم ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرِصِينَ﴾ [الطور: ٣١] وهو جواب مُنصف؛ لأنّ ترَبَّصَ حلول حوادث الدهر بأحد الجانبين أو حلول المنية مشترك الإلزام لا يدرى أحدهما ماذا يحلّ بالآخر^٣ ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].

د- طلب المعجزات الحسية

وإذا كان القرآن قد أجاب عن شبهات المشركين المتعلقة بصدق النبي صلى الله عليه وسلم وما يدعوا إليه، وأقام الدليل على بطلان مزاعمهم فإنه أعرض عن شيء واحد، وأياسهم من حصوله، وهو إجابتهم لطلب الآيات الحسيّة والخوارق أو طلب تغيير القرآن أو إنزاله جملة واحدة، لأنّ مطالبهم عناد ومكابرة، وليس رغبة في الإيمان.

وقد تعقّب مطالبهم من خلال إبراز ثلاث حقائق أكّدها وكرّرها في غير موضع:

الحقيقة الأولى: أنّ الله تعالى قادر على إنزال ما هو أكبر من المعجزات الخارقة التي طلبوها، بيّد أنّ المعجزات الحسيّة أجلّ من أن تنزل بحسب الطلب، أو تأتي وفق رغبات المقترحين وأهوائهم^٤، وقد مضت سنّته تعالى بتعجيل العذاب لمن طلب الآيات ثمّ جحد بها^٥، لكنّ حكمته

١ التفسير الحديث: ٤٣/٣.

٢ ينظر: الكشاف: ٦٣٠/٥، المحرر الوجيز: ١٩١/٥، تفسير الرازي: ٢٨٠/٢٨.

٣ التحرير والتنوير: ٦٢/٢٧.

٤ البقرة: ١٠٦-١٠٨، الأنعام: ٣٧، ١٠٩، الشعراء: ٤.

٥ الأنعام: ٨، ٥٨. (ينظر: المحرر الوجيز، ٥٤٩/١)

اقتضت تأجيل إهلاك كفّار العرب بالعذاب الدُّنيوي إمهالاً لهم لعلّهم يهتدون^١، وقد ظهرت آثار هذه الحكمة فيمن أسلم لاحقاً ممّن كفر بالرسالة المحمدية في بادئ أمرها.

الحقيقة الثانية: أنّ المعجزات الحسيّة -مهما تواترت وكثرت- لن تؤثر في استجابتهم، ولن تنفع في قلب كفرهم إيماناً^٢. وفي قصص الأمم قبلهم شاهد وعبرة، فقد أنزل الله عليهم من الآيات ما يكفي لرجحهم وتخويفهم فلم يرتدعوا، مما يشي بعدم جدوى تكرار التجربة^٣، ثم إنّ في معجزة القرآن وما تضمّنته من أنباء القرون السابقة وأنباء الآخرة^٤، وما فيها من رحمة وهدى وذكر غناء عمّا سواها، وما احتوت عليه من دعوة إلى الله تعالى وإلى مكارم الأخلاق ما لا يستدعي -لإثبات صوابها وصحّتها- معجزة خارقة^٥، بل إنّ في ملكوت الله تعالى وعجائب خلقه وقدرته في السّماء والأرض آياتٍ أعظم ممّا اقترحوه لمن تدبّر وتأمل^٦، وقد شاءت حكمته تعالى أن تكون معجزة الرّسالة الخاتمة معنويّة؛ لأنّها رسالة عامّة لا تختصّ بقريش أو سواها ممّن عاصر الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم^٧.

الحقيقة الثالثة: أنّ مهمّة الرسول تبليغ الرسالة الإلهيّة والعمل بما جاء بها، وليس بمقدوره ركوب المستحيل لتحقيق أمانيتهم وتلبية رغباتهم في إنزال الآيات^٨، وأنّ الله تعالى وإن كان قادراً على ليّ أعناق جميع الناس ليكونوا أمة واحدة في الهداية، لكنّه أراد أن يكون النّاس أصحاب اختيار حرّ ليستجيبوا للدّعوة أو يعرضوا عنها باختيارهم ومن ثم يتلقّوا الجزاء العادل وفق اختياراتهم^٩.

ومن مظاهر تعنّت الكفار أيضاً طلبهم تبديل بعض آي القرآن ممّا لم ينسجم مع أهوائهم، وتشكيكهم في الوحي لمّا سمعوا نسخ بعض آياته، فقد ظنّوا أنه من إنشائه واتّهموه بافترائه على الله تعالى؛ يزعمون أنّ وحي الله تعالى غير قابل للتبديل، فردّ الله عليهم بأنّ الله أعلم بما يوحي به إلى

١ النحل: ٦١، الكهف: ٥٨، فاطر: ٤٥.

٢ الأنعام: ٤، ٧، ٢٥، ١٠٩-١١١، الأعراف: ١٤٦، يونس: ٩٧، الشعراء: ٥، الروم: ٥٨، يس: ٤٦، الصافات: ١٤، القمر: ١٥.

٣ الإسراء: ٥٩، الأنبياء: ٦.

٤ هود: ١٠٣، الحجر: ٧٧، طه: ١٣٤، الفرقان: ٣٧-٤٠، الشعراء: ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠، النمل:

٥٢، سبأ: ١٥، القمر: ١٥.

٥ آل عمران: ١٣٨، الأنعام: ١٥٧، الأعراف: ٢٠٣.

٦ الأنعام: ٣٧، يوسف: ١٠٥، النحل: ٤-١٨، ٦٥-٦٩، الشعراء: ٧، العنكبوت: ٤٤، سبأ: ٩، يس: ٣٣-٤٤.

٧ الأعراف: ١٥٨، يوسف: ١٠٤، سبأ: ٢٨.

٨ البقرة: ١١٩، الأنعام: ٥٠، ٥٧، الأعراف: ٢٠٣، يونس: ٢٠، الرعد: ٧، ٣٨. غافر: ٧٨.

٩ المائدة: ٤٨، الأنعام: ٣٥، هود: ١١٨، الرعد: ٢٧، النحل: ٩٣، الشعراء: ٣-٤، الشورى: ٨.

النبي صلى الله عليه وسلم، وأنَّ التبديل أو النَّسخ يقع في القرآن الكريم بحسب ما تقتضيه حكمته، وأنَّ الرَّسول يتَّبَع ما يوحى إليه، تبليغاً وعملاً، ولو كان القرآن من عنده -كما زعموا- لعلموا به قبل بعثته، فقد لَبِثَ فيهم أربعين سنة قبل أن يأتيه الوحي برسالة الله تعالى^١.

ثانياً: شبهات أهل الكتاب حول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته والرد القرآني عليها
أمَّا أهل الكتاب فكانوا على عِلْم سابق بأمر النُّبُوت والرسالات السماوية، ولم تكن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة إليهم جديدة في أهدافها ومضمونها، بل كانوا ينتظرون مَبْعَث نبيٍّ قد أظْلَمَ زمانه، لكنَّهم كانوا يريدونه منهم، فلمَّا شاء الله أن يكون من العرب كرهوا دعوته وحاربوه، فأنزل الله آيات تُنذِرُهم، وتُذَكِّرهم بنعم الله على آبائهم، وتأمُر المؤمنين بأن يجادلوهم بالتّي هي أحسن لعَلَّهم يُقْلَعُونَ عن ضلالهم وإفسادهم، وتتَلَخَّص معالم منهج القرآن في محابَّتْهم:

١- التنبية إلى أنَّ النبي محمَّدًا صلى الله عليه وسلم هو الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وأنَّه النَّبي الذي بَشَّر به عيسى عليه السلام.

٢- تقرير أنَّ القرآن الكريم مُصَدِّق للكتب السماويَّة السَّابِقة، وأنَّ الدَّعوة المحمديَّة موافقة في أصولها لما دعا إليه الأنبياء السابقين.

٣- الإخبار بأنَّ القرآن يقصُّ عليهم وقائع اختلافهم في الكتاب.

٤- إقامة الحُجَّة عليهم عن طريق الاستشهاد بهم على صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

لكنَّ هذا لم يمنعهم أو يردعهم عن الاستمرار في محاربة الدَّعوة الإسلاميَّة بشتَّى الوسائل، وكان أوَّل ما سلَّكه لإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين إكثارهم من المجادلات الدينيَّة والمخاصمات الكلامية من أجل إظهار الرسول صلى الله عليه وسلم بمظهر العاجز عن مقارعة حججهم حتَّى يتشكَّك المسلمون في صدق نبيِّهم، لكنَّ الله خيَّب مسعاهم، ولقَّن نبيِّه الرَّد الذي يُبطل حجتَّهم ويظهر أمر الله تعالى وهم كارهون^٢، ومن أبرز الحجج التي أقامها القرآن للرَّد على شبهاتهم:

الأولى: الاحتجاج عليهم بإظهار تناقض أقوالهم: فقد كان اليهود يستفتحون على العرب بالنبي صلى الله عليه وسلم حين يلقون منهم أذى كثيرًا، وخاصة بعدما تغلَّب عليهم الأوس والخزرج

١ يونس: ١٥، النحل: ١٠١.

٢ بنو إسرائيل في القرآن والسنة، محمد سيد طنطاوي: ١٥٠.

في المدينة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها. كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٨٩) بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠] فكان اليهود إذا أحزنهم أمر أو دهمهم عدو يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة^١، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظلم زمانٌ نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم وعرفوا نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ وَأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَدُّهُ وَأَنكَرُوهُ بَغْيًا وَحَسَدًا^٢، فاستفتاحهم به وَجَدُ نَبَوْتِهِ مِمَّا لَا يَجْتَمَعَانِ؛ فَإِنْ كَانَ اسْتَفْتَا حَمَّهُمْ بِهِ حَقًّا فَنَبَوْتُهُ حَقٌّ، وَإِنْ كَانَتْ نَبَوْتُهُ -كما يزعمون- باطلاً فاستفتاحهم به باطل^٣.

الثاني: الاحتجاج عليهم بمخالفة أفعالهم لأقوالهم: من ذلك ما طلبوه من معجزة لتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي أن تكون علامة قبول القُرْبَاتِ فِي الْأُمَةِ نَزُولُ نَارٍ مِنَ السَّمَاءِ تَأْكُلُهَا، كما أخبر الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ قُلْتُمْ فَلِمَ فَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣] فأقام الله الحجة عليهم بأنَّ الرُّسُلَ قَدْ جَاءُوا آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ بِهَذِهِ الْعَلَامَةِ وَبِغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نَبَوْتِهِمْ فَكَذَّبَ آبَاؤُهُمْ وَفَتَكُوا بِأَنْبِيَائِهِمْ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَطَالِبَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ^٤.

الثالث: الرُّدُّ عَلَى سَلْبِهِمُ الْعَامَ بِقَضِيَّةٍ جَزِئِيَّةٍ مُّوجِبَةٍ يُقَرُّونَ بِهَا: وذلك أَنَّ الْيَهُودَ طَعَنُوا فِي نَبْوَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خِلَالِ إِنْكَارِهِمْ نَزُولَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ، يَزْعُمُونَ أَنَّ مَا يَقُولُهُ يَأْتِي بِهِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِلُوهُ فَطَارِيسُ مُدَوَّنَةٌ وَأَخْفُونٌ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] أَيِ إِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ فِي الرَّحْمَةِ عَلَى عِبَادِهِ وَاللُّطْفِ بِهِمْ حِينَ أَنْكَرُوا بَعَثَةَ الرُّسُلِ وَالْوَحْيِ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَخَافُوهُ حِينَ جَسَرُوا عَلَى

١ ينظر: البحر المحيط: ٤٧١/١.

٢ ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن: ٦٠/١.

٣ إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة: ١١٤-١١٥.

٤ ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي: ٥٢٩/١، تفسير البغوي: ١٤٤/٢-١٤٥.

تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوة، فألزموا ما لابد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم على تحريفهم كتابهم؛ بأن غيروه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة، أظهروا بعضها وأخفوا أكثرها ممّا فيه خطر على دنياهم ورئاستهم، أو ما فيه حجة عليهم لمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان الله علّمهم وآباءهم عن طريقها ما كانوا يجهلونه من الأحكام والشرائع^١.

الرابع: الإخبار عن شبهاتهم قبل وقوعها، كما حصل في شأن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، فقد أخبر الله تعالى نبيّه بما سيقوله السفهاء تجاه هذا النسخ قبل أن يصدر عنهم، ومهدّ للمؤمنين تحويل القبلة بما يوطّن النفوس ويهيئ القلوب لتقبّل هذا الأمر العظيم^٢، فذكر أنّه إذا نسخ آية أتى بما هو خير منها أو مثلها لأتته القادر على كلّ شيء وأعلم ما فيه الخير لعباده. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتّجه إلى بيت المقدس تأليفاً لقلوب اليهود وأمثالاً في تليبيتهم دعوته، لكنهم عدّوا اتباعه قبلتهم ممهداً لاتباعه ملّتهم، وكان فهمهم هذا مؤذناً بانتهاء مصلحة التوجه إلى بيت المقدس، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربّه أن يجعل القبلة جهة الكعبة، وقد أجاب الله رجاء نبيّه بتحويل القبلة، واستقبل المؤمنون الأمر الإلهي بالسّمع والطاعة، أمّا اليهود والمنافقون فقد قابلوه بالاستهزاء وإثارة الشبهات بقصد التشكيك في الدّعوة الإسلاميّة والطّعن في النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك فعل المشركون الذين استبشروا برجوع النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبلتهم، وقالوا: رجع محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى قبلتنا فعن قريب يرجع إلى ديننا، فردّ الله عليهم جميعاً بأنّ له المشرق والمغرب، وأيما توجّه المصلّي فتّم وجهه الله، ثم نبّه رسوله بأنّه لن يرضى عنه اليهود ولا النصارى حتى يتّبع ملّتهم، وأنّ الاستمرار في التوجه إلى قبلتهم لن يؤثّر في استجابتهم للدّعوة الإسلاميّة^٣. ثم أنكر القرآن على اليهود والمنافقين والمشركين تمسّكهم بمظاهر يعدّونها من الدين في الوقت الذي يفرطون بجوهره بتخليهم عن اتباع شرائعه التي أنزلها الله في كتبه وعلى لسان رسله، وذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ

١ ينظر: الكشف: ٣٧٠/٢، بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ١٥٧.

٢ ينظر: الكشف: ٣٣٧/١.

٣ ينظر: تفسير الماتريدي: ٥٨٢/١، بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ١٧٨-١٧٩.

عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾.

وعلى هذا المنوال لم يُبَيِّنِ القرآن عقيدة باطلة للمشركون وأهل الكتاب إلا نقضها، ولا شبهة مزعومة إلا فَنَدَّها، في دلالة واضحة على ما يُؤَلِّيه الإسلام للعقل من احترام واهتمام، من حيث إنَّه يعمل على كشف حجاب الهوى والتقليد عن العقل، لأنَّ هذا الحجاب من شأنه أن يُعْطِلَ عمل العقل ويُشَوِّش عليه إدراك الحقيقة.

ثالثاً: اعتراضات المنافقين على دعوة النبي صلى الله عليه وسلم والرد القرآني عليها

وقد لوحظ بعد استقراء الآيات المتعلقة بأذى المنافقين أنَّهم لم يُفَصِّحُوا عن شُبُهَات تَمَسُّ أساس الدين خوفاً على أنفسهم، لكنَّهم رَكَّزُوا اهتمامهم على نواحٍ عمليَّةٍ قصدوا بها إضعاف الدين وأتباعه، كالإفساد في الأرض وموالاته الكافرين وتخذيْل المؤمنين وبتِّ الأراجيف ونشر الفاحشة واختلاق الأعذار وإساءة الظن بالله. وكانت طريقة القرآن في التَّعامل معهم على المستوى الفكري التَّحْذِيرُ منهم ومن أوصافهم، ومن الاغترار بطموحاتهم، والنهي عن طاعتهم وعن قبول أعذارهم مهما وثَّقوها بالأيامان، وفَضَحَ كذبهم، وتهديدهم بسوء المصير في الدنيا والآخرة. واقتضت حكمة الله تعالى التَّنْذِيرَ بصفاتهم دون الإشارة إلى أعيانهم؛ للإيماء بأنَّ النفاق ظاهرة متجدِّدة وليست عابرة مرتبطة بأشخاص ماتت بموتهم، كما أنَّ الإعراض عن تعيينهم يمنحهم الفرصة لمراجعة أنفسهم والتوبة من نفاقهم ويرفع الحرج عن أقاربهم، وقد وعظهم القرآن مراراً ودعاهم إلى التوبة والإخلاص لعلَّهم يثوبون إلى رُشدِهم قبل أن يُنْزَلَ الله عليهم عقوبته^١.

ومن أمثلة الرُّدود القرآنية على اعتراضات المنافقين:

١- الرُّدُّ على ادِّعائهم الصَّلاح بتكذيبهم كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] رَدَّهم الله إلى صفة الفساد التي هم متَّصفون بها في الحقيقة رَدًّا مُؤَكِّدًا مبالغاً فيه بزيادة على ما تضمَّنَّته دعواهم الكاذبة من مجرَّد الحصر^٢ حين قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] فإنَّ أفعالهم التي يبتهجون بها ويزعمونها منتهى الحذق والفتنة وخدمة المصلحة

١ ينظر: التعامل مع المنافقين دراسة موضوعية: ١٦٠، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل: ٣٥٧،

٢ فتح القدير، الشوكاني: ٥٥٨/١.

الخالصة آيلة إلى فساد عامٍ لا محالة، إلا أنَّهم لم يهتدوا إلى ذلك لخفائه وللغشاوة التي أُلقيت على قلوبهم من أثر النِّفاق ومخالطة أهله^١.

ولمَّا دُعوا إلى الإيمان الخالص مثلما آمن أتباع النبي صلى الله عليه وسلم أنكروا الدَّعوة وغمزوا بالمؤمنين تحقيرًا لشأنهم، فقد كان كثيرٌ من المؤمنين فقراءً ومنهم مَوَالٍ. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] ولا يدلُّ قولهم هذا صراحة على كفرهم إذ يُحتمل أنَّهم يستنكرون هذه الدعوة من حيث إنهم يدَّعون أنَّهم يؤمنون فعلاً إيماناً حقيقياً ليس كإيمان السُّفَهَاء الذين لا يُعْتَدُّ بإيمانهم، ومن ثمَّ لا مغزى لدعوتهم إلى إخلاص إيمانهم، أو إنَّهم كانوا يُسِرُّون بهذا القول فيما بينهم لا يعلنونه فكشف الله لنبيِّه كُفْرهم.

٢- الرُّدُّ على تحاكمهم إلى الطَّاغوت واعتراضهم على أحكام الله وشرعه بتهديدهم بكشف حقيقة كفرهم، أو بأنَّ يُؤمَّر المؤمنون بقتالهم، فحلفوا عندئذ أنَّهم ما أرادوا بالتحاكم إلى أهل الطَّاغوت إلا الفصلَ بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين، ولم يقصدوا مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم، فعُتِّبَت الآيات القرآنية توبَّخَ المحتكمين إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم من المنافقين، وتقرَّر وجوب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم، والاحتكام إليه ثم الرِّضا بحُكمه، ولو كان هؤلاء المنافقون صادقين في حُسن نيَّتهم لذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه أن يستغفر لهم اعتذاراً عن إساءتهم له، وندماً على ما أقدموا عليه من الاحتكام لغيره، ولو فعلوا هذا لوجدوا الله تواباً رحيماً فيقبل توبَّتهم ويصفح عن زلَّتهم^٢. قال تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا أَصَبْتَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا﴾ (١٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (١٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿ [النساء: ٦٢-٦٤]

١ التحرير والتنوير: ٢٨٦/١.

٢ ينظر: تفسير البضاوي: ٨١/٢، التحرير والتنوير: ١٠٧/٥.

٣ ينظر: تفسير الرازي: ١٢٦/١٠.

٣- تَقْنِيدُ مَا أَلْقَاهُ مِنَ الشُّكُوكِ عَلَى وَعْدِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا رَأَوْا فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ كَثْرَةَ الْغُرَاةِ وَقُوَّةَ عُدَّتِهِمْ وَمَوْقِفَ الْيَهُودِ الْغَادِرِ، فَاسْتَأْذَنُوا أَنْ يَعُودُوا إِلَى بَيْوتِهِمْ مُعْتَذِرِينَ أَنَّ بَيْوتَهُمْ مَكْشُوفَةٌ لِلْعَدُوِّ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ وَكَشَفَ خُبَيْثَ نَوَايَاهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنفَقَهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤] أَيْ إِنَّ الْأَحْزَابَ لَوْ دَخَلُوا عَلَى الْمُنَافِقِينَ الْمَدِينَةَ مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهَا وَأَخَذُوا فِي النَّهْبِ وَالسَّلْبِ، وَالْمُنَافِقُونَ فِيهَا لَمَّا اعْتَرَضُوا عَلَيْهِمْ، بَلْ سَارَعُوا فِي إِجَابَتِهِمْ لِإِظْهَارِ كُفْرِهِمُ الْبَاطِنِيِّ^١.

ثُمَّ أَضَافَ الْقُرْآنُ إِلَى اتِّصَافِهِمُ بِالْجَبَنِ وَالتَّخَاذُلِ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ وَالْمَوَاقِفِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَمَّ عَاهَدُوا اللَّهَ أَلَّا يَفِرُّوا مِنَ الْمُجَاحِدَةِ وَهَاهُمْ الْآنَ يَخْتَلِقُونَ الْأَعْذَارَ وَيَتَرَجِعُونَ لُظْمِهِمْ بِأَنَّ مَلَاقَةَ الْعَدُوِّ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا الْمَوْتُ أَوْ الْقَتْلُ حَتْمًا ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا ذُبُرًا ۖ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥]

فَأَخْبَرَ اللَّهُ بِأَنَّ الْفِرَارَ إِنْ كَانَ يَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا أُبْرِمَ عَلَيْهِمْ فَمَتَّعُوا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ التَّمَتُّعَ إِلَّا تَمَتُّعًا قَلِيلًا وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ فَرَضِ الْمُحَالِ، لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ هِيَ أَنَّ الْفِرَارَ لَنْ يَنْفَعَهُمْ فِي شَيْءٍ وَلَنْ يُؤَخَّرَ عَنْهُمْ قَدْرُ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] ثُمَّ أَكَّدَ نَفْيَ نَفْعِ الْفِرَارِ بِنَفْيِ الْعَاصِمِ وَالْوَلِيِّ وَالنَّصِيرِ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِهِمْ سُوءًا^٢ أَوْ أَرَادَ بِهِمْ رَحْمَةً^٣. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

٤- الرَّدُّ عَلَى اعْتِرَاضِهِمْ عَلَى فَرَضِيَّةِ الْجِهَادِ جُبْنًا وَتَخَاذُلًا، وَعَلَى فَرَجِهِمْ بِالتَّخَلُّفِ بِالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝٨١﴾ فَلْيَضَحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١-٨٢]^٤.

١ ينظر: تفسير القاسمي: ٣٨٣٤/١٤.

٢ أسلوب الاستقهام الإنكاري أبلغ في التعبير عن النفي، كما أن تقديم السوء يناسبه مقام التهديد.

٣ ينظر: من أسرار التعبير القرآني، محمد أبو موسى: ١٣٣-١٣٤.

٤ سيتم دراستها في المبحث الثاني لأنها تدخل في باب الدفع بالإنذار بالعاقبة.

٥- الرُّدُّ على زعمهم الباطل أَنَّ المصائب التي تقع عليهم إنما هي بسبب النبي صلى الله عليه وسلم وسوء تقديره، وذلك ببيان إسناد الحسنة والسيئة إليه تعالى على الإجمال ﴿قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] أي كل واحدة من النِّعمة والبليَّة من جهة الله تعالى خلقاً وإيجاداً من غير أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم مدخل في وقوع شيء منها بوجه من الوجوه كما يزعمون، ثم ختمت الآية بما يعبر عن قبح حالهم وشناعة جهلهم. قال تعالى: ﴿فَالْهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] إذ لو فقهوا شيئاً لعلموا ممَّا يوعظون به أَنَّ القابض والباسط هو الله تعالى، وأنَّ النِّعمة منه بطريق التفضُّل والإحسان، وأنَّ البليَّة بطريق العقوبة أو الترقي^١.

٦- الرُّدُّ على تأمرهم بالنَّهي عن الإنفاق على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم -لمَّا زعموا من أنَّ عدم إنفاقهم يؤدِّي إلى انقضاء الفقراء من حوله صلى الله عليه وسلم- ببيان أنَّ خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصَّة، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولكنَّ مقولات المنافقين تلك ناشئة عن جهلهم بالله تعالى وأمور تدبيره^٢. قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

وهكذا يلحظ أنَّ الرُّدود على المنافقين هي أقرب إلى تصحيح بعض التَّصورات وتَّعْرية التَّبريرات التي يحتجُّون بها على فساد سلوكهم، منها إلى درء الشُّبهات التي ترمي إلى تصحيح القضايا العقدية الكبرى، وقد أدرجتُ اعتراضاتهم في هذا المبحث؛ لأنَّ الرُّدود القرآنيَّة قد أقامت الحُجَّة عليهم بما كشفتته عن نواياهم وسوء طويَّتهم، وبتبنيها إلى مواطن الخلل في تصوُّراتهم.

١ ينظر: تفسير أبي السعود: ٢/٢٠٥، تفسير القاسمي: ٥/١٤٠٤.

٢ ينظر: تفسير أبي السعود: ٨/٢٥٣.

المبحث الثاني

النُّذُر القرآنية بسوء العاقبة

كثيراً ما يكون المؤذي متعنّناً في أذاه يصمُّ أذنيه عن الاستماع إلى صوت الحكمة الذي من شأنه أن يؤثّر فيه ويردعه عن أذاه، ومن ثمّ فإنّ الجدل معه عقيم، والمُحاجّة غير مُثمرة مهما بلغت قوّتها وسلطانها، ولابدّ من وسيلة أخرى معنويّة تؤثّر على عاطفة المؤذي ليكفّ أذاه وترهّبه من الاستمرار فيه، وقد عبّر القرآن عن هذا المفهوم بمصطلح الإنذار، وأصل الكلمة يدلّ على تخويف أو تخوُّف، والإنذار إخبار فيه تخويف ويقابله التبشير، والنّذير بمعنى المُنذِر فهي اسم يدلّ على ثبوت الصّفة في الموضوع^١، وتقع على كلّ شيء فيه إنذار إنساناً كان أو غيره، فقد أُطلق النّذير في القرآن على الرُّسل وعلى كلامهم في التّخويف بالعاقبة، وعلى القرآن الكريم وعلى العذاب نفسه سواء ما كان واقعاً على الأمم السّابقة أو ما سيقع في المستقبل.

ولبيان طريقة القرآن الكريم في إنذار مرتكبي الأذى لابدّ من استحضار نماذج تطبيقية تستعرض جملة من النُّذُر القرآنية الموجّهة لبعض الأقوام والأفراد وهو موضوع المطلب الأول. ثم إنّه من خلال النماذج السابقة يمكن استكناه البُعد النظري المُراعى في الآيات المُنذِرة، وفهم منهجها وهو موضوع المطلب الثاني.

وخصّص المطلب الثالث والرابع للحديث عن أنواع الإنذارات القرآنية وصورها المختلفة.

وقد ظهر مصطلح (الإنذار) في القرآن الكريم منذ بدايات الوحي، في أوائل سورة المدّثر، فكانت أوّل ما نزل في الأمر بالدّعوة وإنذار النّاس. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَذِبٌ ۝٣ وَيَا بَاكٍ نُّظْمَرٌ ۝٤ وَالرُّجْرُ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ [المدّثر: ١-٧] وسياق الآيات يدلّ على أنّها إرشاد من الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم إلى الصّفات التي يجب على المُنذِر أن يتحلّى بها ليكون أسوةً للمُنذَرين وقدوةً لمن يقوم مقامه في تبليغ الدّعوة^٢.

١ ينظر: مادة (نذر) مقاييس اللغة: ٤١٤/٥، مفردات الراغب: ٧٩٧، التحقيق في كلمات القرآن: ٨١/١٢.

٢ ترشد أوائل سورة المدثر كلّ من حمّل على عاتقه مهمّة الدعوة إلى الله ألا يهاب في إنذاره طاعياً ولا يعظم مستكبراً، ولا تنبيهه عن الدعوة إلى الله تعالى لومة لائم، ولا يخشى أحداً إلا الله، لأنّ الله تعالى أكبر من كلّ شيء، ويبيده كلّ شيء، وهو قادر على أن يعصمه من الناس ويكفيه شرّ المستهزئين، ولابدّ أن يكون المُنذِر مثلاً للناس مظهرًا وسيرة، بأن يُظهر ظاهره وباطنه من كل مستكبر، فيعتني بنظافة ثوبه وبدنه، ويتعد عن الفحش والإثم والبذاءة، ويخلص في دعوته إلى الناس فلا ينتظر منهم جزاء ولا مقابلة، وقد تكرر في القرآن تأكيد الأنبياء لأقوامهم بأنهم لا يبتغون مقابل دعوتهم أجرًا، كما لقّن الله

والمُنْذِرُ لابدَّ أن يبدأ أولاً بنفسه فيُذَكِّرُ فيها الخشية من الله تعالى، ثم يُنْذِرُ الأقرب إليه، أهله وعشيرته ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ثُمَّ تَتَسَّع دائرة المُنْذِرِينَ لتشمل مجتمعه وأهل بلديته ﴿وَلْنُنْذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ثُمَّ يَعُمُّ إنذاره للناس جميعهم وفقاً لعالميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

والإنذار باعتباره أحد شقِّي تبليغ الدَّعوة، يتضمَّن تخويف النَّاس من عقاب الدُّنيا وعذاب الآخرة، ومن حساب الله تعالى لأعمالهم يوم الجزاء، ومن ثَمَّ فهو ينهض بتذكير النَّاس بالمعاد، وتنبههم من غفلتهم، وتبصيرهم بعواقب الأعمال الخاطئة، يحقِّرهم بذلك على الانقياد للحقِّ، ويُحذِّرهم من الوقوع في الإثم والعدوان.

وهذا التَّخويف إنَّما يستهدف مَنْ لا تنفعه الموعظة إمَّا لإعراضه عنها أو لسفاهة موقفه، وليس في ذكره تالياً لإقامة الحُجَّة دلالة ترتيبية مطلقة، لأنَّ بعض مواقف الأذى لا تستدعي حُجَّة مُقنعة، بل تتطلَّب موقفاً حاسماً يُلقي الرَّهبة على قلبِ فاعليها.

ومما يُلحَظ في الآيات التي تحدَّثت عن العاقبة السيِّئة للكافرين من المشركين-سواء كانوا من المشركين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أو في الأمم السابقة- وكفَّار أهل الكتاب والمنافقين حضورُ فعل الظُّلم^١ في المقام الأوَّل، ويأتي بعده فعلُ الإِجرام؛ باعتبارهما تعليلاً لاستحقاق تلك الفئات للعذاب والهلاك^٢.

والإِجرام من الجُرْم بمعنى القطع، ومنه جَرَمَ أي كَسَبَ؛ لأنَّ الذي يَحُوزُهُ فكأنَّه اقتطعه، واستُعيرَ لكَلِّ اكتسابٍ مكروه^٣، وبناءً عليه اتَّجه معظم المفسِّرين^٤ إلى تأويل الجُرْم في القرآن بالكُفر، وأنَّ المجرمين هم الكافرون، لكنَّ السِّياقات القرآنيَّة التي وردت فيها المفردة في مقام الذَّمِّ والوعيد

تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يردَّ على المشركين زعمهم بأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد ابتدع الدَّعوة سعيًا وراء مطمع خاص به فينقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم ويثبِّطهم ذلك عن الإيمان، ولمَّا كان الإنذار شاقًّا وعظيمًا ومحفوظًا بالأذى لم يكن ممكناً أن يكتب له الاستمرار من غير ثبات المُنْذِر وقوَّة تحمُّله للمكاره (ينظر: التفسير الحديث: ٤٤٣/١) ١ سبق تعريفه في الفصل الأوَّل.

٢ ينظر: المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٤٠١/٩.

٣ ينظر مادة (جرم): مقاييس اللغة: ٤٤٥/١، ٤٤٦، مفردات الراغب: ١٩٢-١٩٣.

٤ ينظر على سبيل المثال: تفسير الطبري: ١٣٤/١٢، ٦٣١/١٥، الكشاف: ٤٧٠/٤، تفسير القرطبي: ٤٧٤/١١، تفسير النسفي: ٥٦٨/١.

تُرْجَحُ أَنْ يَعُمَّ اللفظُ فَنَاتٍ أُخْرَى غَيْرَ الْكَافِرِينَ، كَمَا تَضِيفُ إِلَى مَعْنَاهُ عِنَصَرُ التَّعْدِي، وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَرَدَ فِي عِبَارَاتٍ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ^١.

وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ سَوَاقِ بَعْضِ الشُّوَاهِدِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ بِوَصْفِ الْمَجْرِمِينَ:

قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَاصَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْلِكُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿[الأنعام: ١٢٣-١٢٤] فَقَدْ جُمِعَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى كُفْرِهِمْ إِثْمَ الْمَكْرِ وَإِثَارَةِ الشُّكُوكِ وَالتَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ، فَاسْتَحَقُّوا الذَّلَّ وَالْهُوَانَ وَالْعَذَابَ الْأَلِيمَ جَزَاءَ سَيِّئَاتِهِمْ.

وَقَدْ أَطْلَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى مَكْذِبِي الرُّسُلِ السَّابِقَةِ وَصَفَ الْمَجْرِمِينَ بِإِنْكَارِهِمْ لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ وَتَعْدِيهِمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالشَّتْمِ وَالتَّعْذِيبِ وَالنَّفْيِ وَالْقَتْلِ، وَأَمَرَ بِتَدْبِيرِ مَصَائِرِهِمْ فِي إِشَارَةٍ إِلَى أَنَّ يَتَوَقَّعُ النَّاسُ مِثْلَهَا إِنْ سَلَكَوا نَهْجَهُمْ، يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْأَمْرِ الْمُتَكَرِّرِ بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْعَاقِبَةِ السَّيِّئَةِ لِلْأُمَمِ الْخَالِيَةِ^٢، كَقَوْمِ لُوطَ الَّذِينَ جَمَعُوا مَعَ كُفْرِهِمْ فُسَادَ الْفُطْرَةِ وَقُبْحَ السُّلُوكِ وَلُؤْمَ الْمَعَاشِرَةِ مَعَ الْمَجَاهِرَةِ وَذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ^٣، فَأَنَالَهُمُ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا مَا لَمْ تَنْلَهُ أُمَّةٌ قَبْلَهُمْ مِنْ طُمَسِ الْأَعْيُنِ وَقَلْبِ الدِّيَارِ وَالرَّجْمِ بِالْحَجَارَةِ الْمَسْؤُمَةِ ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْبَنَاتِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفَاسٌ يَنْظُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿[الأعراف: ٨٠-٨٤]

وَمِمَّا جَاءَ فِي تَجْرِيمِ أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُلْفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (١٦٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرْدُ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿

١ ينظر: تفسير الماوردي: ٢/٢٥٣، المحرر الوجيز: ٤/٥٣، تفسير البيضاوي: ٣/٨٧، المنار: ٩/٦٠١.

٢ آل عمران: ١٣٧، الأنعام: ١١، يوسف: ١٠٩، النحل: ٣٦، الحج: ٤٢-٤٦، النمل: ٦٩، الروم: ٩، الروم: ٤٢، فاطر: ٤٤، غافر: ٢١، غافر: ٨٢، محمد: ١٠.

٣ الأعراف: ٨٠، الشعراء: ١٦٥، النمل: ٥٦، العنكبوت: ٢٩،

[الأنعام: ١٤٦-١٤٧] فتكذيب أهل الكتاب للنبي صلى الله عليه وسلم وبغيهم على الحق كانا السبب في عقاب الله تعالى لهم بتحريم الطيبات وإنزال بأسه عليهم^١.

وجاء في مجرمي المنافقين: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزْوا إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ مَا تَخَذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَعَآئِنِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذَرُوا قَدْ كُنْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٨] ذلك أنَّ التفاق وحده خطيئة كبيرة لا تغنر إلا بالنوبة الصادقة، فإذا حقت به الأخلاق الدنيئة كان جريمة استحق صاحبها لعنة الله والخلود في النار.

ولما كانت الأعمال الجرمية مرتبطة بالكفر والفساد والظلم والتكذيب والمكر والاستهزاء وغير ذلك مما ينافي الإذعان لدعوة الرسل والاستسلام لأوامر الله تعالى جعل المجرمون بمجموع فئاتهم أعداء الرسل. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، ووُضِعُوا في مقابل فريق المنافقين لدين الله تعالى ﴿فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. أمَّا الذين يدعون موقف الحياد إزاء الجرائم التي يعاينونها ملتزمين الصمت ومؤثرين السلامة على حساب إظهار الحق، فهؤلاء شركاء للمجرمين في إشاعة الفساد؛ لأنهم لم يعملوا على دفعه، شركاء في الإثم والظلم لأنهم لم يمنعوا منه، ومن ثم هم شركاء في عقوبة الهلاك ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦-١١٧] ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] فصلاح الفرد إذن غير كافٍ وحده لنجاته مالم يردفه سعي منه لدفع

١ ذهب مجاهد والسدي وتابعهما الطبري إلى أن الضمير في قوله (يكذبوك) يعود إلى اليهود باعتباره أقرب مذكور ورجحه ابن حيان والشوكاني والآلوسي، وقيل الضمير يعود على الفريقين ينظر: تفسير الطبري: ٦٤٨/٩، البحر المحيط: ٢٤٧/٤، فتح القدير: ١٩٨/٢، روح المعاني: ٤٩/٨.

الأذى ومقاومة الظلم وإصلاح الفساد، بل قد يكون صلاحه الذاتي وبالأعلى عليه ومستحقاً للمدح
﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٦٢-٦٣] لَوْلَا يَنْهَاهُمْ رَبِّيَنُوتُ
وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢-٦٣]

وقد توعّد الله تعالى بأنه لا ظلم يدوم، وأنّ للإجرام مصيره المحتوم في الدنيا ﴿وَتِلْكَ
الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩] ﴿أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧] ﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَا أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ
لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] وعاقبته السوء في الآخرة ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [٤٧] يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ
ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [٧٤] لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا
ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الرّحرف: ٧٦] ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا
فَسَادًا وَالْعِزَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]

ويلاحظ أنّ القرآن المكّي قد كثرت فيه أساليب الإنذار وسياقات الوعيد على مواقف الكفار
المكذّبة للرسل من خلال إيراد القصص والأمثال، والتهديد بعذاب الآخرة وتصوير مواقف المعذّبين
فيها، وهذا ممّا يتناسب مع طبيعة المرحلة المكّيّة في ظلّ تأثير زعامة المشركين وقوّة تسلّطهم،
وقلّة عدد المسلمين وعدّتهم، حيث كان في نزول آيات الإنذار تسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم
عمّا يلقاه من معارضة، وتثبيت للمؤمنين الصادقين إزاء مواقف الإيذاء التي تقع عليهم من قبل
المشركين.

وقد أُنذر القرآن بنوعين من العقوبات تصيب من استعلى على الناس وتعدّى على حرّمتهم
هما: عقوبات حسيّة وعقوبات معنويّة، فمنها المُعجّل في دار الدنيا، ومنها المؤجّل إلى الدار
الآخرة، والعقوبة العاجلة إمّا أن تكون مؤقتة لرّدع المندرين ما تلبث أن تزول وتتكشف، كالرجز
الذي وقع على آل فرعون جزاء تعنّتهم في إنكار الآيات وتطيرهم بموسى عليه السلام ومن معه،
أو تكون استئنائيّة مُهلكة مُدمّرة لكلّ شيء كالريح التي أرسلها الله على قوم هود عليه السلام
﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] والصّيحة التي أرسلها على قوم صالح عليه السلام ﴿وَمَكْرُؤُا

مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ [النمل: ٥١].

ودلت آيات قرآنية على أن عذاب الاستئصال العام قد انقضى بعد إنزال التوراة على موسى عليه السلام^١، وأنه لا تهلك أمة بعد إغراق فرعون وجنوده إهلاك استئصال^٢، وأن الله تعالى قد حكم بإمهال عباده من بعدهم، وتأخير عقابهم إلى يوم القيامة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخُتِلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠] أي ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه في أمة موسى وأمة محمد عليهما السلام أنه أخر عذاب الاستئصال عنهم إلى يوم القيامة، لعجل الفصل بينهم بإهلاك المبطلين^٣.

وفي فترة الإمهال يُقَلِّبُ الله حال الإنسان بين السراء والضراء تذكيرًا له بضغفه مهما طغى وبغى، وإنذارًا له ليعود إلى رُشدِه قبل أن يناله عقاب الله تعالى في الآخرة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] فالله تعالى يُضَيِّقُ على الناس معاشهم ويذيقهم نتيجة شرور أعمالهم لعلهم يُنِيبُونَ إليه وَيُقْلِعُونَ عن ظلمهم كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] وعاب القرآن على المنافقين الذين يُهْمِلُونَ النَّظَرَ وَالاعتبار فيما يبتليهم الله به من أنواع البلى، وما يُنْزِلُهُ من الآيات الكاشفة لنفاقهم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦] فالآية تُؤَيِّخُ المنافقين على تصلُّبهم في النِّفاق واستمرارهم في غفلتهم دون أن تُؤثِّرَ المصائب فيهم فتدفعهم عما أقاموا عليه.

فإذا أصرَّ النَّاسُ على ظلمهم وتساهلوا المعصية بسط الله لهم الدنيا، ونعمهم بها استدراجًا منه ليزدادوا إثمًا وضلالًا، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

١ يونس: ٩٣، السجدة: ٢٣-٢٥.

٢ ينظر: تفسير الماتريدي: ١٩٠/٦.

٣ تفسير الطبري: ٤٥٣/٢٠، المحرر الوجيز: ٢١٠/٣، تفسير النسفي: ٨٦/٢.

٤ ينظر: فتح القدير: ٤٧٥/٢.

الْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ٤٤-٤٥] وَذَمَّ اللَّهُ فِي الْأَقْوَامِ السَّابِقَةِ إِهْمَالَهُمْ لِإِنذَارَاتِهِ السَّابِقَةِ عَلَى عَذَابِهِ، وَتَبْرِيرَهُمْ
لِلْمَصَائِبِ النَّازِلَةِ بِهِمْ بِمَا يَزْعُمُونَهُ مِنْ أَنَّ عَادَةَ الدَّهْرِ دَوْرَانُ حَالِهِ بَيْنَ الرِّخَاءِ وَالشَّدَّةِ أَيْ إِنَّ
الْمَصَائِبَ غَيْرُ مُرْتَبِطَةٌ بِانْحِطَاطِ سُلُوكِهِمْ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿[الأعراف: ٩٤-٩٥] .

المطلب الأول

التذكير بهلاك الأمم السابقة

سيتم في هذا المطلب التعرف إلى طريقة القرآن الكريم في إنذار مرتكبي الأذى من خلال استحضار نماذج قصصها القرآن في سور مختلفة تحكي عن الأقوام السابقة مظاهر إيذائهم لأنبيائهم وما ترتب على ذلك من عاقبة.

وقد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلو على الناس - وخاصة اليهود - قصة أول ظلم وقع في الأرض، وتسبب بسفك الدماء (قصة ابني آدم) وذلك بعد أن ساق طرفاً من المحاجة مع اليهود، وندد بتعنتهم وإصرارهم على البغي والفساد، في سبيل أن يعرفوا سوء عاقبة الظلم المتجاوز لنداء الفطرة كما صورته جملة ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: ٣٠] فهي تُشعر بتردد يستولي على شعور الأخ القاتل، لأن القتل في ذاته مستصعب عظيم على النفوس، لكن نوازع الشر في نفسه ردت به - بسبب الحسد - طائفاً منقاداً لارتكاب الإثم^١، فخرس نفسه بإهلاكه إياها، وخسر الدنيا لأنه فرط بأقرب الناس إليه قرابة وأمسهم به رجماً وأبهرهم به في الدنيا، وبقي مذموماً إلى يوم القيامة، محتملاً لإثم كل من اقترف القتل ظلماً؛ لأنه أول من سن القتل، كما خسر نعيم الآخرة إذ لم يعد أهلاً لها لأنها دار المتقين^٢. والغاية من تلاوة هذه القصة على أسماع اليهود زجرهم عما هموا به من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه في المدينة، وقد خُتِمت القصة بالأمر باحترام دم النفس الواحدة وصيانتها من الأذى، وإيجاب حرص كل إنسان على حياة المجموع واجتنابه ضرر كل فرد، وتعظيم عقوبة المجترئ عليها وتعظيم ثواب من يحترمها ويحميها، واختصاص بني إسرائيل لا يمنع أن تبقى الآية تلقيناً مستمراً لغيرهم وخاصة من المسلمين في كل ظرف ومكان^٣، وقد أخبر الله تعالى في السورة نفسها عما شرعه لبني إسرائيل من القصاص المبني على قاعدة العدل بين الناس، وتوعّد من يخالف حكم الله الذي أنزله بأن يكون من جنس الظالمين الهالكين.

١ ينظر: المحرر الوجيز: ١٧٩/٢ - ١٨٠.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ٣٤٠/١١، تفسير القرطبي: ٤٢٠/٧، تفسير المنار: ٣٤٦/٦.

٣ التفسير الحديث: ٩٩/٩.

أولاً: نماذج من إيذاء الأقوام السابقة لأنبياهم وعاقبته

"جرت عادة القرآن أن يذكر بعض أخبار الأمم السابقة وما كان منهم مع رسلهم وما قابلوهم به من التكذيب والإيذاء، ثم يذكر ما جرت به سنته سبحانه من الإيقاع بالمكذّبين، وأخذهم بظلمهم وما عملوا مع أنبيائهم، ليكون في ذلك سُلوة للرّسول صلى الله عليه وسلم بأنّه لم يلق إلا ما لقي إخوانه الأنبياء، ولم يكابد من قومه إلا مثل ما كابدوا، وليكون في ذلك تخويفاً لأولئك المكذّبين الذين يعاندون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُلحِفون^١ في تكذيبه، بأنهم إذا استمروا على ذلك حاق بهم مثل ما حاق بالأمم السالفة ونالوا من الجزاء مثل ما نالوا"^٢.

أ- إغراق قوم نوح عليه السلام بالطوفان

أرسل الله تعالى نبيّه نوحًا ليلبّغ قومه شهادة التوحيد، وينذرهم إن أعرضوا عذابًا أليمًا، لكنّ قومه رموه بالضّلال، وكذبوا دعوته، واستنكفوا عنها أن كان أتباعها من الضّعفاء، واتّهموه بالجنون، وأسرفوا في ظلمهم وطغيانهم، ومكروا بنوح وهددوا برجمه، وأضلّوا النّاس عنه وكان قد لبّث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم ويُذكّرهم ويُحذّرهم عقاب الله تعالى، فما زادهم ذلك إلا فجورًا فدعا عليهم وأعلمه الله تعالى أنّه لن يؤمن من قومه إلا من آمن به من قبل، وأوحى إليه أن يصنع الفلك لينجو مع المؤمنين من عاقبة الإهلاك التي ستنزل بالطّاعين من قومه ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٩] تدلّ الآية أنّ سخريتهم بالنّبي كانت مستمرة متجدّدة حسب تجدد مرورهم عليه، ولم يكن يُجيبهم في كلّ مرّة، إذ إنّ الاستئناف بكلمة (قال) تدلّ على أنّه أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية^٣، ثم هدّدهم بعذاب العرق في الدّنيا وعذاب النار في الآخرة، فلما تمّ صنع السفينة جاء أمر الله تعالى بإغراقهم. قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذَرِّينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧٣] وفي آية أخرى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٧] وأخبر الله تعالى عمّا أجرموا به فاستحقّوا عقوبة الإهلاك: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَنُوحًا ثَمًّا وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴿٥٢﴾﴾ [النجم: ٥٠-٥٢]، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

١ الإلحاف: الإلحاح والمبالغة والإصرار (ينظر: مادة (لح) العين: ٧٥/٤، القاموس المحيط: ٨٥٢/١)

٢ تفسير المراغي: ١٧٠/٣٠.

٣ ينظر: تفسير أبي السعود: ٢٠٧/٤.

وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ رَيْبُكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ [غافر: ٥-٦]

ب- إهلاك قوم هود عليه السلام بالريح العاتية

من المعلوم أنَّ دعوة الرُّسل واحدة فهم يدعون أقوامهم إلى عبادة إله واحد، ويُذِّرونهم عذابه في الآخرة، ولمَّا دعا هود عليه السلام قومه إلى دين التوحيد كفروا به ورموه بالسِّفاهة وتعنتوا بطلب المعجزات ثمَّ جحدوها واستهزؤوا بها، وأصرُّوا على شركهم واتباع دين آبائهم، وزعموا أنَّ آلهتهم قد أصابت نبيَّهم بسوء عقابٍ له لنهيهِ قومه عن عبادة الآلهة، كلُّ ذلك كان موجباً لعقاب الله تعالى لهم على جرائمهم وتعديهم على الحقِّ وأهله: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلِيانَةَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ [الأحقاف: ٥٧-٥٨] فَالْحَقَّ اللَّهُ بِهِمْ الدَّلَّ والهوان جزاء عتوهم واستكبارهم، وطردهم من رحمته الواسعة في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ عَاقِبَةُ الدِّينِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ [هود: ٦٠] أعاد ذكرهم والدُّعاء عليهم بالهلاك مع أنَّهم هالكون؛ تقضيًا لأمرهم وتسجيلًا عليهم باستحقاق الدَّمار وحثًا على الاعتبار بحالهم^١. قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] فهي تدمر كلَّ ما اعتدوا به من مظاهر الدنيا، زعموا أنَّها تُخلِّدهم وتمنح عنهم عذاب الله تعالى كما جاء على لسان هود عليه السلام: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٥]

١ ينظر: تفسير البضاوي: ١٣٩/٣، تفسير أبي السعود: ٢٢٠/٤.

ج- إهلاك قوم صالح عليه السلام بالصاعقة

أخبر القرآن عن فئتين في قوم صالح عليه السلام؛ فئة المستضعفين الذين اتَّبَعُوا دعوة صالح عليه السلام فنجوا معه وهم قلة، وفئة المُلأ الذين استكبروا عن قبول الحق، وعاثوا في الأرض فسادًا، وعَصَوْا الرَّسُولَ -الذي جاءهم بالمعجزة وحذرهم أن يمسُّوها بسوء لئلا ينزل بهم عذاب الله تعالى- فَعَقَرُوا النَّاقَةَ التي أَخْرَجَهَا لَهُمْ، وطعنوا في صدقه ونزاهته. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١] أي بسبب طغيانها وتماديها في الكفر والعصيان والمكر، إذ كان منها أن تأمر بعض رجالها لا غتيال نبيهم، فأبطل الله مكرهم وأخبط سعيهم. قال تعالى: ﴿وَمَكْرُومَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٥٠ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠-٥١] فقد أرسل عليهم صاعقة أبادتهم عن آخرهم ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَنْظَرِ﴾ [القمر: ٣١] وهذا تشبيه لإهلاكهم وإفنائهم وأنهم بادوا عن آخرهم، وخمدوا وهمدوا كما يهدم اليباس من الزرع والنبات بعد خضرة ورَّقه^١، وقد عبَّر القرآن الكريم عن عذابهم بعدة ألفاظ منها الرَّجْفَةُ والصَّيْحَةُ والطَّاعِيَةُ، والمراد بالجميع الصَّاعقة، فإنَّ لنزولها صيحة شديدة القوَّة ترْجُف من هولها الأفئدة وتضطرب الأعصاب، وربَّما اضطربت الأرض وتصدَّع ما فيها من بنيان^٢، ولا يبعد أن يكون إطلاق الطاغية عليها لتجاوز شدَّتها الحدَّ المألوف^٣، وكان العرب من أهل عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة يعرفون بلاد ثمود وآثارها معرفة عيانية، وكانوا يرون فيها آثار تدمير ربَّاني على ما تفيد آية سورة العنكبوت^٤ ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]

د- إهلاك قوم لوط عليه السلام بالخسف والرجم

جاء قوم لوط عليه السلام بمنكرات ما عُهِدَتْ من أحد قبلهم، إذ أضافوا إلى سيِّئة كفرهم وإعراضهم عن دعوة نبيهم شيوع الفاحشة بينهم ومجاهرتهم بها وقطع الطريق من أجل التَّعَدِّي على الناس بالسُّوء، ولمَّا أن ضاقوا ذرعًا بلوط عليه السلام ونصحه تواصلوا بنفيه وإبعاده، وسألوا نزول العذاب عليهم استهزاء وجحودًا، فأنزل الله بهم عذابه ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا

١ ينظر: تفسير ابن كثير: ٤٨٠/٧.

٢ تفسير المنار: ٥٠٨/٨.

٣ ينظر: تفسير الرازي: ٣٠٨/١٤.

٤ التفسير الحديث: ٤٢٢/٢.

عَلَيْهَا حِجَارَةٌ مِّنْ سِجِّيلٍ مَّضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ [هود: ٨٢-٨٣]
والمعنى أَنَّ الأرض انقلبت بهم "انقلاب خَسَفٍ حتى صار عالي البيوت سافلاً، وسافلها عاليًا"،
وأتبعوا بمطر من الحجارة الملوثة بالطين يتوالى نزولها من غير انقطاع، تَرْجُمُهُمْ وَتُهْلِكُهُمْ جزاء ما
اكتسبوه من الإثم والظلم وعقاباً على ما اقترفوه من الفواحش. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ
بِالْبَشَرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١] ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿الذاريات: ٣٣﴾

وقد سجّل القرآن عليهم موقفاً مُخزياً دالاً على تماديهم في الفجور، وذلك عندما نزلت الملائكة
بلوط عليه السلام ضيوفاً في صورة شبان، جاءه قومه يريدون تسليم الضيوف طلباً للفاحشة،
فدافعهم لوط ومانعهم، لكنهم أبوا إلا الدُخول عنوة، فطمس الله أعينهم بإذهاب ضوئها وصورتها
بالكلية^٢.

هـ - إهلاك قوم شعيب عليه السلام بالصيحة

إذا صحَّ القول بأنَّ قومَ لوط السابقين كانوا مثلاً السُّوء في الفساد الأخلاقي بالعدوان على
الأعراض، فإنَّ قوم شعيب هم مثلاً السُّوء في الفساد المالي، إذ كانوا أهل معاملة في الكيل والوزن،
وكانوا من المطَّقيين الذين إذا اكتالوا على النَّاس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم
يُنْقِصُونَهُ؛ فيُبْخَسُونَهُمْ أَشْيَاءَهُمْ بِالتَّعْيِيبِ لِلسِّلْعَةِ أو التَّزْهِيدِ فِيهَا، وَيُنْقِصُونَهُمْ حَقُّوقَهُمْ بِالْغَشِّ
والتَّحَايِلِ^٣. يضاف إلى ذلك أنَّهم كانوا يُلقون على دعوة نبيِّهم الشُّكوك والشُّبُهَات، ويجلسون في
الطُّرقات يمنعون النَّاس عن قبول الدين الحق؛ يَحْذَرُونَهُمْ مِنْهُ وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ بِالْأَذَى، وقد وعظهم
شعيب عليه السلام بأحسن موعظة، وحذَّره من مغبَّة أفعالهم، مذكِّراً إياهم بنعم الله عليهم، وبما
آل إليه حال المفسدين قبلهم، لكنَّهم ردَّوا عليه حكمته معهم وإصلاحه لهم بالتي هي أسوأ، فرفضوا
نصحه ولم يجدوا إلى محاورته سبيلاً سوى الصدود عن منهاج الحق وإنكار الدعوة اغتراراً بقوَّتهم
وسطوتهم، وتطاولوا عليه بالإهانة والتَّهْدِيدِ بِالرَّجْمِ والنَّفْيِ، فقابلهم بالإنداز بقُرب الوعيد والعذاب
الآلِيم^٤، ولمَّا كان دأبُّهم التَّعَنُّت طلبوا تعجيل نزول العذاب عليهم لاستبعادهم وقوعه، وظنُّوا أنَّه إذا

١ التحرير والتنوير: ١٢/١٣٤.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ٣١٦/٢٩، تفسير القرطبي: ١٠٠/٢٠.

٣ ينظر: فتح القدير: ٢٥٥/٢، تفسير المنار: ٥٢٨/٨.

٤ ينظر: تفسير الطبري: ٣١٢/١٠، تفسير الرازي: ٣١٥/١٤.

٥ ينظر: تفسير أبي السعود: ٢٣٥/٤.

لم يقع ظهر كذبه^١، وكان سؤالهم أن ينزل عليهم قطعاً من السماء، فأجابهم الله تعالى بعذاب من جنس ما طلبوا؛ بأن أظلمت سحابة فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم الصيحة فأسكتتهم وأهلكتهم^٢.

و- إغراق فرعون وقومه في البحر

يُعدُّ فرعون مضرب المثل في العتوّ والتجبر والفساد لكلّ ذي سلطة وجاه، وارتبط اسمه في القرآن الكريم بكافة صنوف الإيذاء من سفك الدماء، وقهر الرعية وإذلالها، ونقض العهود، والاعتداد بالرأي وتسفيه الآخرين، وغيرها من مظاهر الظلم ممّا ذكره القرآن على سبيل الذمّ والتعليل لسوء خاتمة فرعون.

ولقد أرسل الله نبيّه موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وعصده بأخيه هارون، وأيده بالمعجزات الحسيّة؛ لتكون برهاناً ساطعاً على صدق دعوته في مواجهة الطاغية، وأرشده إلى المعاملة اللينة لكي تغلب على خشونة القوم وغلظتهم وتكون أدعى إلى القبول، ودارات الحوارات بين فرعون وبين موسى عليه السلام حول التعريف بالله تعالى خالق الكون، ومدى اتساع قدرته، ورأى فرعون آيات الله ودلائل نبوة موسى ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: ٥٦] وأنهم موسى عليه السلام بالسحر وعقد موعداً لمقارعة "سحر موسى" -بحسب زعمه- بالسحر الذي يصنعه أمهر السحرة عنده، فخاب أمله بعد ظهور الحجة وإيمان السحرة، وتجرّع مرارة الغيظ وهدد وأوعد، فسار موسى عليه السلام بقومه فراراً من فرعون وجنوده، وأطبّق الله البحر على فرعون ومن معه ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۖ﴾ [٤٦] ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ۖ﴾ [٤٧] ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨]

وأخبر القرآن عن عقوبات إنذارية حسيّة أنزلها الله تعالى على فرعون وقومه قبل أن يستأصلهم، لعلمهم يرتدعون عن بغيهم، فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع، ولما وقع عليهم الرجز ولم يكن لهم من حيلة لدفعه سألوا موسى عليه السلام أن يرفع ربّه العذاب عنهم ووعدوا أن يؤمنوا ويكفّوا عن ملاحقة بني إسرائيل كما نصّت دعوة موسى عليه السلام لهم، ولما كشف الله تعالى عنهم العذاب نكثوا عهودهم ونقضوا موثيقهم وعادوا إلى سيرتهم الأولى في الظلم والتكذيب، فحقّ عقاب الله عليهم ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣١]

١ ينظر: تفسير الرازي: ٥٢٨/٢٤.

٢ ينظر: تفسير ابن كثير: ١٦٠/٦-١٦١.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٦]

ثانيًا: صور أخرى من الأذى الفردي والجماعي وعواقبه

أ- الأذى الناشئ عن اختلاف الدين

كان سادات مكة وزعمائها يضطهدون المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات لفتنهم عن دينهم وإرجاعهم إلى الشرك، فأعلم الله المؤمنين ما كان يلقاه الموحّدون قبلهم من الشدائد يؤنسهم بذلك، وقصّ عليهم حكاية جماعة باغية طاغية اعتدت بالتكيد وأشد أنواع العذاب على أتباع الدين الحقّ، فقصّى الله عليهم بالإبعاد الأبديّ من رحمته الواسعة، والتخليد بالعذاب في نار جهنم^١ كما دلّت عليه آيات سورة البروج ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ﴾ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ [البروج: ٩] صوّرت الآيات مشهد التعذيب القاسي الذي أعدّه أصحاب الأخدود لمن آمن من بلدهم؛ تنبيهًا على قسوة قلوبهم واستحقاقهم للعذاب الذي ينتظرهم من الله تعالى، إذ كانوا يمدّون النار بالوقود كلّما تقاصرت اللّسنة لهبها، ثمّ يقعدون حولها في مكان مشرف عليها من حافات الأخدود يعرضون على المؤمنين الكفر فإن أبوا ألقوا بهم في النار، لكنّ الله الذي له ملك السماوات والأرض شاهد على ما يفعله الظالمون بالمؤمنين الصادقين، وهو يثيب بفضله عباده الصّابرين على ما يلقونه من أذى واضطهاد، وينتقم بعزّته من المجرمين الجبارين فينزل بهم ما يقتضيه عدله^٢. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] توعّد الله تعالى كلّ المتجبرين من معاصري النزول فمن بعدهم -ممن يشتركون مع أصحاب الأخدود في إثم الفتنة عن الدين والإكراه على الكفر- عاقبة ظلمهم بأنّ ينزل الله بهم

١ ينظر: تفسير القرطبي: ١٩١/٢٢-١٩٢.

٢ ينظر: تفسير أبي السعود: ١٣٦/٩-١٣٧، معارج التفكير ودقائق التدبر، عبد الرحمن حبنكة الميداني: ٣٧٢/٢.

لعنته وغضبه المستوجبين لعقوبته، ويذيقهم أشد أنواع العذاب في نار جهنم خالدين فيها، يحترقون كما أحرق أصحاب الأخدود المؤمنين^١.

وقد دللت الآية على عظيم رحمة الله تعالى بعباده حين أشار إلى أنه يقبل من الظالمين التوبة الصادقة عن سيئاتهم، ويرفع عنهم غضبه وعذابه.

ب- الأذى الناشئ عن حب المال

كان المشركون يؤذون أتباع الدعوة الإسلامية ونبياها بما تفوقوا عليهم من كثرة المال، وكانوا يفترضون أن يقود الدعوة رجل عظيم ذو ثروة وجاه، وقد تكرّر في القرآن توبيخ الأغنياء الذين يقبضون أيديهم عن مساعدة ذوي الحاجة، والحث على الإنفاق المعتدل، وضرب القرآن الأمثال للمشركين من الأمم السالفة ممن تتشابه حالهم مع حال المشركين في التباهي بالمال والامتناع عن أداء حقّه لأصحاب الحاجات.

١- عاقبة بطر قارون: أخبر القرآن الكريم عن رجل يدعى قارون، كان من قوم موسى، فيُحتمل أن تكون صلته بهم لقاربة الرحم أو أنه على شاكلتهم في البغي والفساد، فقد غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا، واغترّ بما أوتي من ثروة طائلة، وحمله غناه على التناول على الناس بالكبر والتعدي. ويظهر من نصائح قومه له أنه كان غارقاً في فتنة المال، قد جحد نعمة الله عليه، ومنع من الانتفاع بالمال في وجوه الخير، وصرفه إلى الفساد، ولم يجرّزه عن بغيه تذكيره بمن سبقه ممن أهلكهم الله جزاء استكبارهم وبطرهم.

وعلى صعيد آخر تقف أمام فتنة قارون بالمال طائفتان من الناس، طائفة المنبهرين الذين استهوتهم زينة الحياة الدنيا فتعلقوا بها وتمنّوا حصولها لهم، وطائفة المتبصّرين الذين يرجّحون قيمة الإيمان على قيمة المال، ويعتزّون بثواب الله تعالى ويؤثرونه على إغراءات الدنيا، وهذه الدرجة الرفيعة من الفهم لا يوفق إليها إلا الصابرون؛ لأنّ التسامي على متاع الدنيا والرغبة بما عند الله تعالى يحتاج إلى تجلّد لما يعرض في خلاله من عقبات شديدة وصعبة.

وقد عاينت الطائفتان رجحان قيمة الإيمان في كفة الميزان على قيمة المال، وذلك عقب المصير البائس الذي حاق بقارون جزاء كفره بالنعم وبغيه على الناس ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]

١ ينظر: التحرير والتنوير: ٤٥/٣٠، التفسير الحديث: ١٤٧/٢.

وكم من أمثال قارون يوم مَنَّ بَعَا وطغوا في المال فضاعت دُرُهم وأموالهم وأصبحت ملكًا لغيرهم، وهذا هو الخَسْفُ العظيم^١.

٢- قصة أصحاب الجنة: بعد أن أشار الله تعالى في أوائل سورة القلم إلى فريق من المشركين المكذَّبين ممَّن حَمَلهم اعتزازهم بالمال والجاه على التَّطاول بالأذى على النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، ضرب لهم ولسائر الناس مثلاً بقصة أهل الجنة؛ ليُشعرهم أنَّ ما بين أيديهم من نِعَم المال والبنين إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلي أصحاب هذه الجنة، أي إنَّه يؤول إلى حساب ومساءلة.

فقد كان أصحاب الجنة متتبعين بخيرات البستان الذي ورثوه عن أبيهم، وكان أبوهم يتصدَّق منه بما يفضِّل عن حاجته، فلما آل أمر البستان إلى أولاده أطغاهم الطَّمَع وتبدَّلت نواياهم وشحَّت نفوسهم عن إعطاء الفقراء والمساكين حقوقهم، وأقسموا ليلاً أن يقطعوا ثمر البستان في الصَّباح الباكر دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين، ومكروا مكراً والله أسرع مكراً، إذ أرسل على بستانهم في تلك الليلة بلاءً أصاب ثمره فأبيَّسه وجعله كالمقطوف لم يبق فيه شيء، أو أنَّ الله تعالى أرسل صاعقة فاحترق البستان وأصبح كالليل الأسود، وهم لا يشعرون بما أصاب بستانهم^٢، فلما أصبحوا ورأوا بستانهم محترقاً استفاقوا من غفلتهم ورجعوا على أنفسهم باللائمة على بطرهم وإهمال شكر النعمة التي سيقَّت لهم وعلموا أنَّهم أخذوا بسبب ذلك ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ﴾ [القلم: ٢٦] وفي هذه الآية تعريض للمشركين بأن يكون حالهم في تدارك أمرهم وسرعة إنابتهم كحال أصحاب هذه الجنة إذ بادروا بالندم وسألوا الله عوض خیر قائلين ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢]

يُلاحظ من مجموع العقوبات السابقة أنَّها ليست محض عقوبات مقدَّرة، فالقرآن يجعل ارتكاز العذاب على مُسبِّباته، ويفسِّر تبدُّل الحال بوقوع الكبائر الإنسانية؛ كأنَّ يُسْرِفَ القوم في غفلتهم وتماديهم في الباطل، أو يُخلُّوا بواجباتهم الاجتماعية أو يفرطوا بمسؤولياتهم.

١ ينظر: تفسير المراغي: ١٠٠/٢٠.

٢ ينظر: تفسير أبو السعود: ١٥/٩، التفسير الحديث: ٣٧٦/١، معارج التفكر: ٢٣٥-٢٣٧.

المطلب الثاني

مستويات النذر القرآنية في الدنيا

أول ما يلاحظ القارئ للآيات المنددة بالأذى والمتوعدة لفاعله البعد العقلي في تجريم الأذى، بمعنى أنَّ الأذى مرفوض عقلاً قبل أن يرتبط بالعقوبة الإلهية؛ لما يحفُّ به من رذيلة أو ما يستتبعه من نقیصة، فأكلُ أموال اليتامى بالباطل حوبٌ كبير بما ينطوي عليه من ظلم كبير بتضييع من يُتوقع منه الحماية والتأييد لحقوق من هو تحت سُلطته من الضعفاء^١، وكذلك من يقتل أولاده بسبب انحراف معتقده فقد كشف عن جهله وخفة عقله وضعف تبصره بالعواقب، وإذا كان الخسران ذهاب رأس المال، ورأس مال الإنسان هو الحكمة والعقل، فأی مكسب يرتجى من الإنسان بعد ضياعهما!

والأمثلة عليه كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨] وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤]، ومنه أيضاً: ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِزُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]

المستوى الثاني في منظومة الإنذار الرباني للتفتير من الأذى رَفْعُ حساسية الضمير لاستشعار مراقبة الله تعالى المحيط بكل شيء علماً، لما تعكسه هذه الصفة الربانية على النفس الإنسانية من خشية لله تعالى واتقاء لما يغضبه، يظهر ذلك من خلال تكرار الأمر الإلهي بالتقوى، والتذكير المستمر بسعة علم الله تعالى لدقائق الأمور وخفاياها وما يترتب عليه من جزاء عادل.

ومن الآيات الناطقة بهذا الأسلوب ما حكاها القرآن عن منافقي اليهود الذين يلقون باللائمة على بعض أفرادهم لظنهم أنهم يكشفون للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ما في التوراة من الإخبار بصدق دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٧٦) أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿[البقرة: ٧٧] الآية تفرع لهم وإنكار لما يتعاطونه وحث على التفكير، لأنَّ علمهم بأنَّ الله لا يخفى عليه خافية لا يناسبه تواصلهم على كتمان الحق نفاقاً وتكذيباً^٢.

١ ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٣٥٢/٢.

٢ ينظر: البحر المحيط: ٤٤١/١.

وفي سورة أخرى يُسَجِّلُ القرآن محاولات المشركين العابثة للصدود عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥] فهم قد تولوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقلوبهم وأجسامهم لئلا يراهم فيعظهم أو يتلو عليهم من وحي ربه ما يؤثّر فيهم، لكن الذي لا يدركه بصر النبي صلى الله عليه وسلم يُعلمه به ربه الذي يعلم السرّ وأخفى، فليس تخفيهم ولا أعطيهم بسائر دون علمه سبحانه وتعالى، ولئن أحسّ الإنسان في خلوة ليله بأنّه وحيد لا يراه أحد، يأتي التعبير القرآني موقظاً ومُنَبِّهاً إيّاه إلى الحقيقة التي غفل عنها بأنّ الله تعالى معه حاضر ناظر عليم بالقلوب وأحوالها في الإسرار والإظهار^١، كما قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝١ سَوَاءٌ مِّنْكَ مِزْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلِيلٍ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٩-١٠]

وكثيرة هي الصور والشواهد القرآنية التي تُسلط الضوء على أعمال الكافرين الخفية والمعلنة، يقرّنها بها الإنذار بعلم الله تعالى ونفوذ أمره وتدبيره ﴿وَطَافَتْهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وفي ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِرُّوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠] ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً﴾ [الفتح: ١١] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٧] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِاللَّائِمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٧-٨] ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْجِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ قَاتِلُوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

١ ينظر: في ظلال القرآن: ١٨٥٥/٤، تفسير الشعراوي: ٦٣١٩/١٠.

ولا تقتصر الإنذارات القرآنية للكافرين على مجرد تعزيز الشعور بمراقبة الله تعالى، بل تنتقل بهم إلى مرتبة أسمى من أن تكون مجرد علاقة الحاكم بالمحكوم، وأعني تلك الآيات التي تستحضر معاني المحبة والرضا أو نقيضيهما، فإله يحب كل خير ويُبغض كل شرٍّ، ولا يَرْضَى أن يصدر الشرُّ من أحد، وعدَم حبِّ الله تعالى للأشرار يدور على اتِّصافهم بأسوأ الأفعال والصفات وبأَمَّهات الرذائل كالاعتداء والظلم والإفساد والإسراف والاستكبار والكفر والكفران والإثم والخيانة والفرح والاختيال والفخر والجهر بالسوء، وفي ذلك تعريض لمن تلبس بواحدة منها أن تَرْفَعَهُ عليها وتنزَّهه عنها موجب محبة الله تعالى له ومؤشِّر على اتِّصافه بما يقابلها من الفضائل لأنَّ الإنسان لا مَخْلَص له من أحد طرفي الفضيلة والرذيلة^١.

لكنَّ السُّؤال الذي يرد هنا هل ينتفع الكافرون بهذا المستوى من الإنذار وهم الذين أغلقوا مداركهم الحسنيَّة وحَبَّبوا مداركهم العقليَّة عن سماع الحقِّ وقبوله، وهم الذين نعتهم القرآن بأنَّهم شرُّ الدَّوابِّ وأنَّهم كالأنعام بل هم أضلُّ؛ يجيب دراز^٢ (١٣٧٧هـ): "إنَّ الناظر الذي يعي خطورة حالهم قد يخشى عليهم العقاب، أمَّا بالنسبة لهم فهل يوجد هناك شيء آخر سوى إثبات عقوبتهم؟ سوى نوع من الحكم المسبق؟ سوى أمانة تشعر بإدانتهم الفعلية؟ نعم، فليس من الممكن أن يتوجَّه تحذير من هذا النوع إلى الجاحدين من أجل منفعتهم المباشرة، وإنما هي دعوة موجَّهة من بعيد إلى الإنسان العاقل المستكن فيهم، فربما أدَّى إيمان الطَّرْقِ إلى أن يفتَحَ الباب، أن تنطلق الرُّوح، أن يُبعثَ الميِّت. أما الآن، فذلك موضوع من موضوعات التَّفَكُّر يقدم إليهم، فإن كانت لديهم فرصة للتفكير فسوف يرون بلا ريب فيه نذيرًا بالطامة الكبرى التي تنتظرهم، والتي يدلُّ كلُّ شيء على وقوعها"^٣.

المطلب الثالث

الإنذار بسوء عاقبة الأذى في الحياة الدنيا

أنذر القرآن خصوم المؤمنين إن هم أصروا على عنادهم وظلمهم عذابًا معجلاً في دنياهم من شأنه أن يُقَدِّم لهم صورة مُصَغَّرة عن العذاب الشديد في الآخرة، ويؤكد القرآن مرارًا على أنَّ

١ ينظر: دستور الأخلاق في القرآن الكريم: ٣٥٦، المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٦٠١/١٠.

٢ محمد بن عبد الله دراز: فقيه أديب، من هيئة كبار العلماء بالأزهر، حصل على شهادة الدكتوراه من السوربون ١٩٤٧م، نال عضوية جماعة كبار العلماء ١٩٤٩م، مات سنة سبع وخمسين وتسعمئة وألف ميلادية في مدينة لاهور بباكستان، من مؤلفاته: النبأ العظيم، دستور الأخلاق في القرآن. (ينظر: معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض: ٥٦٤)

٣ دستور الأخلاق: ٣٢٧.

الإنذار إنما ينتفع به من تغلب على هواه وفتح بصيرته لتلقي الهدى، أمّا من أصرّ على كفره وعناده فإن الغاية من إنذاره ألا يكون له حُجّة على الله تعالى يوم القيامة يُبرّر بها انحرافه.

والمراد بالعذاب ما يكون فيه الألم والمشقة على النفس، سواء كان مُدرِكًا بالحواس، أو بالعقل والشعور.

ويلاحظ -بالاستقراء- أنّه ثمة ثلاثة مصطلحات قرآنيّة ذات دلالة محوريّة عن مفهوم العذاب في الدنيا لغير المؤمنين، هي: الخُسران، والخِزي، والاستدراج^١.

أولاً: صور خسارة الكافرين وخزيهم في الحياة الدنيا.

كلمة الخسران تدلّ على نقص أو ضياع في نفس الإنسان أو فيما يُنسب إليه من أهل ومال^٢، ومن الكلمات القرآنيّة ذات الصلة به: البُساء والضُراء، والسُنون، والقَتْل والأسر، والجزية، والإجلاء، وتخريب البيوت، والظُّلم، والهزيمة، وتحريم الطّيّبات، واللّعة.

أمّا الخِزي فهو الأثر النَّاتج عن هذا النّقص أو الضّياع، أي إنّهُ يُمثّل الحالة الحاصلة عَقِبَ الابتلاء الشديد^٣، وبحسب السياقات القرآنية فإنّ الخِزي اسم جامع لمعاني الإهانة، والفضيحة، والخوف والرُّعب، والدِّلة والمسكنة، والحسرة والغیظ.

ومن أبرز مظاهر العذاب على المشركين في الدُّنيا أن أحبطَ الله أعمالهم، وأبطلَ مكرهم، وتوالت عليهم الهزائم، ورأوا تمكين الله تعالى لدينه ونصرته أوليائه^٤، فامتلأت قلوبهم خيبة وغيظاً على ما أضاعوه من مال وعُدّة وأرواح في سبيل إطفاء نور الدعوة دون أن يظفروا بشيء من أمانهم^٥.

١ ترى الباحثة أن هذه المصطلحات الثلاث لم تأخذ حظها من الدراسة في هذا البحث، لما تتوفر عليه من مادة ثرة، وحقها أن تغرد بمرسالة علمية مستقلة يُدرس فيها موارد العقوبة بالخِزي والخسران والاستدراج وما يتصل بها من مفهومات دراسة مفصلة.

٢ معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ٣٣٣/١.

٣ التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٥٦/٣.

٤ آل عمران: ١٢، الفتح: ٢٩.

٥ الأحزاب: ٢٥، الأنفال: ٣٦.

أما المنافقون فقد رُزئوا بالاضطراب النفسي والتردد، فهم خائفون على سُمعتهم من الفضيحة^١، وخائفون على أرواحهم من الفتنك بهم في المعارك^٢، يُغيظهم قوّة الإسلام وعزُّ أهله^٣، ويجزّعون بموت أقاربهم في الحرب^٤، يُقلِّقهم تزعزع مصالحهم^٥؛ ويغتمون إذا فاتهم مغنم^٦، فضيّعوا عليهم دنياهم وأخراهم.

وفيما يتعلّق باليهود فقد استمرّت إنذارات القرآن لهم طيلة الفترة المكيّة وأوائل الفترة المدنيّة، تذبّذّب ما وقع منهم من جدل وسُخرية وإثارة للفتن وإشاعة للفساد، وتذكّرتهم بما أنزل على أسلافهم من عقوبات حسبيّة صارمة لعلّها تكون سبباً في ردّهم ورجوعهم إلى الحق، وتحثّهم على التوبة، وتتوعّد الكافرين منهم لعنة الله تعالى وغضبه إن استمروا في المغالاة بالكفر والتمادي بالأذى، وتهدّدهم أن يذوقوا ببغيهم أشدّ أنواع الخزي في الدّنيا.

واقترنت الإنذارات لليهود بذكر موجبات عقابهم، والتي تجتمع في إثم (السّعي في الأرض بالفساد)، ومن صور فسادهم: قتلهم الأنبياء والمُصلّحين، ومسارعتهم في الكفر، ونقض المواثيق، وأكلهم الرّبا، وافتراءهم على الله تعالى، وإصغاؤهم إلى كذب الأحبار الذين يُحرّفون التوراة وغير ذلك مما يُحقّ عليهم عذاب الخزي في الدّنيا؛ ذلك أنّ الله لا يحبّ المُفسدين الذين تأخذهم العزة بالإثم.

ومن تجلّيات الخزي عليهم أن ضُربت عليهم الذلّة والمسكنة كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] ويُعدّ هذا الجزاء الأساس الذي تتفرّع عنه سائر أنواع الجزاء الدنيوي، ويدلّ الفعل (ضُربت) على إحاطة الوصف بهم، فهم صاغرون أذلاء، يُسلّط الله عليهم من يُهينهم في حياتهم الدّنيا^٧، ويُقدّف الرّعب في قلوبهم^٨، ويُلقِي بين طوائفهم العداوة والبغضاء إلى يوم

١ التوبة: ٦٤.

٢ الأحزاب: ١٣-١٧.

٣ آل عمران: ١١٩.

٤ آل عمران: ١٥٦.

٥ التوبة: ٤٥.

٦ النساء: ٧٣.

٧ الأعراف: ١٦٧.

٨ الأحزاب: ٢٦، الحشر: ٢.

القيامة^١، ويفرض عليهم الجزية^٢، وينفيهم من أرضهم^٣، ويعذبهم بأيدي المؤمنين بالقتل أو الأسر أو النفي من الأرض ليخلفهم المؤمنون عليها ويزداد اليهود تحسراً وغيظاً.

ثانياً: الإنذار بالاستدراج

الاستدراج استفعال من الدَّرَجَة بمعنى التدرُّج أو الدَّرَج بمعنى الطَّيِّ والإدخال، واستعمل في "كل نقل تدريجيٍّ سواءً كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة... ثم استعير لطلب كل نقل تدريجيٍّ من حال إلى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث يزعم أن ذلك ترقٍّ في مراقبي منافعه مع أنه في الحقيقة تردُّ في مهاوي مصارعه"^٤، ويُعبَّر القرآن عن الاستدراج بمصطلحات الإمهال والتَّربُّص والإنظار والتَّمَتُّع والإملاء، معلِّلاً حكمته تعالى في هذه العقوبة أن يستغرق الكافر في ظلمه وإفساده إلى الدَّرَجَة التي يأمن فيها مكر الله تعالى فينتقم الله منه ويأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ويتَّخذ الاستدراج الإلهيُّ صوراً عديدة منها: تأخير العقوبة، والإمداد بالنعم، والزيادة في الضلال، والصَّرف عن الهداية، والاعتراض بالعمل الباطل.

وكان لهذا النوع من الإنذارات حضورٌ غالب في القرآن المكيِّ بهدف تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عمّا يلقونه من أذى ومشاقٍّ في مقابل رؤيتهم الكفار يتقلَّبون في النعيم ويملكون من أسباب القوَّة ما يثير في النفس العجب وربَّما يدفعها إلى الاعتراض بحالهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]

كما استهدفت هذه الإنذارات تهديد الكفار بسوء مصيرهم وعاقبة شرورهم لكيلا يتبادر إليهم أو إلى ضعاف الإيمان أنَّ تتعمَّهم بالدُّنيا مؤشِّر على خيريَّتهم كما زعموا ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥]، وقد ردَّ القرآن زعمهم الباطل هذا فقال تعالى: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَلِيَهُمْ أَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

١ المائدة: ٦٤.

٢ التوبة: ٢٩.

٣ الحشر: ٣.

٤ ينظر: تفسير أبي السعود: ٢٩٧/٣.

وقد وجّه المفسّرون آيات الاستدراج وما يتّصل بها إلى معنيين:

الأول: أنّ أمد الانتظار مؤقت في حدود المرحلة المكيّة، وأنّه قد انتهى جزء منه بعد الهجرة بإظهار الله تعالى لدينه ونصرة رسوله، ومن ثمّ يُلاحظ في نصوصهم عبارات تدلّ على وقوع المنتظر في بدر، أو فتح مكة أو صلح الحديبية.

الثاني: أنّ الإمهال مُمتدّ طيلة الحياة الدُّنيا، وينتهي بقيام الساعة وبُعْث الكفّار ليوم الفصل ومجازاتهم بالنار^١.

وفي موقف مماثل كان الشّان مع المنافقين في المدينة فقد نُبيّه المسلمون ألاّ يغتروا بما يرون من تمتّع المنافقين بالحياة الدنيا فإنّ كثرة الأولاد ووفرة المال لا توجب طمأنينة البال لأنّ الله تعالى أراد أن يجعل من إنعامه عليهم سبباً لاستغراقهم في الضلال وموتهم على الكفر ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

أمّا اليهود في المدينة فكان من أمرهم أن قابلوا إحسان النبي صلى الله عليه وسلم إليهم بالشّرّ والفتنة والتّحالف مع أعدائه من الدّاخل والخارج للتآمر عليه والإيقاع به وإضعاف دعوته، وقد راعى النبي صلى الله عليه وسلم معهم خطوات الصّبر التي سلكها مع قومه المشركين في مكّة، فأجاب عن شبهاتهم وعاملهم باللين تارة وبالحزم تارة، واختار منهج الإصلاح والتّغاضي في التعامل مع حالات الأذى الفردي، إلى أن طفح الكيل عندما ظهرت من اليهود بادرة غدرٍ ونقض للعهد، وكانت المواجهة الأولى مع يهود بني قينقاع، فأنزل بهم النبي صلى الله عليه وسلم العقوبة الحاسمة إثر اجترائهم على نقض العهد معه.

ومن الآيات المتضمّنة إمهال اليهود وتأخير معاقبتهم قوله تعالى -يرشد المؤمنين إلى أن يسلكوا مع اليهود مسلك الإعراض عن أذاهم حتى ينزل بهم أمر الله بعذابهم إمّا بقتال أو بإجلاء- : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ومنه أيضاً: إنذار الله تعالى لليهود بعد غزوة بدر، وأمره إيّاهم بالاعتبار بما حلّ بالمشرّكين فيها.

١ يلاحظ من خلال الاستقراء أن الآيات المسوقة بصدد الحديث عن إنذار الكفار باستدراجهم منها ما يفيد التأخير للعقوبة الأخروية مثل ألفاظ التمتع والإملاء، ومنها ما يفيد مطلق التأخير الممتد إلى نزول عقاب الدنيا أو الآخرة مثل ألفاظ الإمهال، والترصيص والانتظار والتلبّث.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٣﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾ [آل عمران: ١٣] قال المفسرون^١ نزلت في بني قينقاع الذين ظهرت منهم بؤادر نَقَضَ العهد.

ويجدر التنويه إلى ورود آيات كثيرة لم يرد فيها تعيين للعقوبة الدنيوية، وإنما اكتفى البيان القرآني بالإندار بمطلق كلمة العذاب، لكنَّ السِّياقات الأخرى لمصطلح العذاب الدنيوي تُرشد إلى انصرافها أولاً إلى العذاب الحسي كقوله تعالى حكاية عن تعنت المشركين ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٣٢-٣٣]

وفي الوعيد للمنافقين: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَوَّاهٌ يَأْبُوا وَمَا تَقْضُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۝﴾ [التوبة: ٧٤] أي "بالقتل والهَمَّ والغَمَّ"^٢، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۝﴾ [النور: ١٩] أي بإقامة الحد، وجاء في شأن يهود بني النضير: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝﴾ [الحشر: ٣] أي "بالقتل والسَّبي كما فُعل ببني قريظة"^٣.

١ ينظر: أحكام القرآن، الجصاص: ٢/٢٨٥، تفسير الماوردي: ١/٣٧٣، تفسير البضاوي: ٧/٢، البحر المحيط: ٤٠٩/٢،

تفسير ابن كثير: ١٧/٢.

٢ تفسير ابن كثير: ٤/١٨٣.

٣ تفسير القرطبي: ٢٠/٣٣٩.

المطلب الرابع

الإنذار بسوء عاقبة الأذى في الدار الآخرة.

أنذر الله تعالى عباده بأنهم راجعون إليه لا محالة يوم القيامة، ليفصل بينهم ويجازيهم بحسب أعمالهم، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ (٣٧) ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٣٨) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٣٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤٠) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١] والقرآن حافلٌ بمثل هذه الإنذارات، يذكر تارة الأسباب الموجبة لاستحقاق الثواب أو العقاب لتكتسب أو تُجتنب، أو يعيّن بعض الأفراد والجماعات ممن يشملهم العذاب لارتكابهم الموبقات المهلكة ليكونوا عبرة لغيرهم، ويُصوّر في مواضع كثيرة مشاهد النعيم والعذاب ليكون حال الإنسان متقلباً بين الرجاء والخوف، ولأن الناس متفاوتون أصلاً في التأثر بالترغيب أو التهيب.

وقد بدأت الإنذارات في عهد مبكر من الدعوة تستهدف خصوم المؤمنين وتتوعدّهم بعذاب الآخرة، وغلب حضورها في العهد المكي؛ إذ كان المؤمنون قلةً مضطهدين من قبل زعماء المشركين، فكانت تنزل آيات الإنذار تبعاً تثبت المؤمنين الصادقين، وتتنصر للنبى صلى الله عليه وسلم ودعوته، وتلقي الرعب في قلوب المغترّين بالقوّة والجاه والمال والبنين، وكان من أوائل من توجّهت إليهم الإنذارات بالوعيد أولئك الذين يتوقّع منهم المساندة للدعوة، إمّا لصلة قرابة أو اشتهار بحكمة وتعلّل، من أمثال أبي لهب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم الذي لاقى النبي صلى الله عليه وسلم منه ومن زوجه أذى وعناداً أشدّ من الغريب البعيد، فقد كان أبو لهب ذا قوّة وثروة وجاه، وكان المأمول منه أن يستعملها في تأييد ابن أخيه ونصرة دعوته، لكنّ أبا لهب وظف إمكاناته الماديّة لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، فتولّى الله تعالى الدّفاع عن نبيّه وأنزل سورة المسدّ تُعجل إخبار أبي لهب بأنّ محاربته للنبي صلى الله عليه وسلم آيلةٌ إلى خسارة محقّقة، خسارة عاجلة لأنّها لن تُحقّق له ما يرجوه من إضعاف الدّعوة وانطفائها، لأنّ الله مُتمّ نوره ولو كره المجرمون، وخسارة آجلة بما ينتظره من عذاب شديد يوم القيامة^١.

لكنّ آيات الإنذار لم تعتن كثيراً بذكر أسماء من اشتهروا بعداوتهم للدّعوة، ومقاومتهم لها بشتّى صنوف الأذى، واكتفّت بالتّديد بأوصافهم وإنكار أفعالهم ليشمل الوعيد كلّ من يحذو حذوهم، فيكونوا عبرة للنّاس ليحجّبتوا مشابعتهم.

١ كما نزلت آيات كثيرة تتدد بمواقف أبي جهل العدائية وكان قد عرف بين قومه بأبي الحكم؛ لجودة رأيه، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة كان على رأس أشدّ الناس عداوة، فكانه النبي صلى الله عليه وسلم أبا جهل (المفصل: ١٤٠/٣).

وعذاب الآخرة تتفاوت درجته بحسب عظم الخطيئة ودرجة الاستغراق فيها: فهناك من يكون من أئمة النار ودعاتها وهم الذين لا يكتفون بمباشرة الإيذاء للمؤمنين، بل يُحرِّضون غيرهم على الأذى، ويتواصلون فيما بينهم على الإضرار بدعوة التوحيد وإضعاف موقفها، وذكر القرآن منهم على سبيل التمثيل: فرعون الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النُّكْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١] وآخرون استحقوا الخلود في العذاب، لأنهم امتنعوا التَّعَدِّيَّ على حدود الله وحقوق الناس حتى صار ملكة لهم، وليس مجرد موقف عابر أو سلوك مؤقت، وناسب أن يُعَيِّرَ القرآن عنهم بالألفاظ جامعة لكل سوء مثل: الظالمين والمجرمين والمنافقين^١، كما اقترن عذاب الخلود بإثم الكبائر كالشِّرك والكُفر والاستكبار وقتل النفس بغير حق وإتيان الفاحشة وأكل الربا وحلف الأيمان الكاذبة.

ويُفَصِّلُ القرآن مزيدًا من صور العذاب التي تتناسب مع الجرم الذي يحمله المؤذي، فالمستهزئ المستكبر سيلحقه الذلَّة والعذاب المهين يوم القيامة جزاء وفاقا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٣٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ (٣٣) قَالِيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرُمُونَ نَآكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤١) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

والَّذِي صَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ استحقَّ مضاعفة العقوبة لأنه حَرَمَ نفسه من الخير، ومنع غيره عنه فله وزران: وَزُرُّ كُفْرِهِ وَوَزُرُّ حَمَلِ غَيْرِهِ عَلَى الْكُفْرِ. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

١ النساء: ١٦٨-١٦٩، يونس: ٥٢، السجدة: ١٢-١٤، الزخرف: ٧٤،

وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 أَوْلِيَاءٍ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ [هود: ١٩-٢١]

ولا تقتصر مضاعفة العذاب على الزعماء والرؤساء الذين يدعون إلى الكفر ويمنعون الناس
 من الدخول في الإسلام، بل حتى الأتباع الذين انشرح صدرهم بدعوة الكفر سينالون العقوبة
 المضاعفة لأن الله تعالى قد وفر لهم من أسباب الهداية ما يكفي لإقامة الحجة عليهم. وقد أخبر
 القرآن عن مشهد يطلب الأتباع الضالون مضاعفة العذاب لرؤسائهم وزعمائهم لأنهم تسببوا
 بإضلالهم، لكن طلبهم يُقابل بالرَّفْض؛ ويردُّ عليهم: ﴿لِكُلِّ ضَعْفٍ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]

يُخَلَّصُ مِمَّا سَبَقَ: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مِنْ خِلَالِ أَسَالِيْبِهِ الْقَوْلِيَّةِ الْمُنْتَوَعَةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ غَيْرِ
 الْمُؤْمِنِينَ يَحْتَثُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْ يَسْلُكُوا طَرِيقَتَهُ فِي مَدَافَعَةِ أَذَاهُمْ، وَسَبِيلُهُمْ فِي ذَلِكَ تَمَكُّنُهُمْ مِنْ
 الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُقْنِعَةِ، وَاسْتِحْضَارُهُمْ لِمَخْتَلَفِ الْأَسَالِيْبِ الْخُطَابِيَّةِ الرَّادِعَةِ وَكُلِّ مَا شَأْنُهُ
 أَنْ يُؤَثِّرَ فِي عُقُولِ الْكَافِرِينَ وَنَفُوسِهِمْ لِيَكْفُوا عَنْ الْمُؤْمِنِينَ أَذَاهُمْ وَيَهْتَدُوا إِلَى طَرِيقِ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ.
 وَالْقُرْآنُ بِهَذَا الْمَنْهَجِ يُصَحِّحُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَفْهُومَ الصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْكَافِرِينَ وَأَبْعَادَهُ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ
 الصَّبْرِ تَجَاهُلُ اعْتِدَاءَاتِ الْكَافِرِينَ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ، بَلْ إِنَّ الصَّبْرَ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ مَفْهُومًا مُرْتَبِطًا
 فِي جَانِبِ الْعَلَاقَةِ مَعَ النَّفْسِ.

وسيأتي في الفصل التالي كيف يكون الصبر حاضراً حتى في حالة الردِّ على إيذاء الكافرين
 بالوسائل الحسبيَّة.

الفصل الخامس

دفع الأذى بالأساليب العملية

إِنَّ النُّذْرَ الْقَرَأْنِيَّةَ بِسوء عاقبة الإيذاء لا تدعو النَّاسَ إلى السَّلْبِيَّةِ في الحياة الدنيا، وإلى تَرْكِهَا لِلطُّغَاةِ وَالْمُفْسِدِينَ تَطَلُّعًا إِلَى نعيم الآخرة وأَمَلًا بِتأييد رَبَّانِيٍّ خارق، لأنَّ الله تعالى الذي خَلَقَ الإنسانَ في كَبَدٍ، جَعَلَ بِنَاءَ الحياة الدُّنْيَا على المجاهدة لإصلاح الحياة ودفع الشَّرِّ والفساد عنها، وتحقيق العدل والخير للناس جميعًا، نعم إِنَّ الله يدافع عن الذين آمنوا، ولكن لم يَقُلْ أَحَدٌ أَنَّهُ دَفَاعٌ مطلق بلا واسطة وأسباب، بل الأمرُ كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿فَتِلْكَ لَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] وعندئذ يُمكنُ الله للمؤمنين دينهم ويستخلفهم في الأرض. أمَّا إن تَخَلَّى المؤمنون عن مسؤولياتهم وتخاذلوا عن أسباب نصرهم، فإنَّ العدل يقتضي أن يُكْتَبَ التَّمَكِينُ لمن يستحقُّه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]

ويقومُ المبدأ القرآني في المقاصَّة على أساس العدل وضمن وسائل مشروعة، ممَّا يعني عدم اشتراط المساواة التَّامَّة من كلِّ الجهات؛ فَمَنْ يخون العَهْدَ لا يجازى على خيانتة بخيانة؛ لأنَّ ﴿اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] وهو أيضًا ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]

وإذا كان الأسلوبان الماضيان -إقامة الحجَّة والإنذار بالعاقبة- معدودين في سياق المواجهة الفكرية، فإنَّ هذا الأسلوب يمثِّل الجانب العملي لمنهج المواجهة، وغالبًا ما تترتَّب عليه آثار حسيَّة عاجلة، ولهذا ينبغي على المستهدف بالأذى توجَّي الحذر إزاء اختيار المواجهة حلًّا لدفع الأذى، لكيلا يؤوَل الدَّفْع إلى مفاصد أعظم، إذ إنَّ الرؤية القرآنيَّة تتميز تجاه عملية دفع الأذى بمراعاتها مصلحة كافَّة الأبعاد المرتبطة بظاهرة الأذى؛ المؤذي، والمؤذى، وموضوع الأذى، وأيُّ تجاوز لحقِّ طَرَفٍ من الأطراف يُعدُّ ظلمًا واعتداء محرَّمًا. إذن فثمة ضوابط لأبَدٍ من مراعاتها إزاء معالجة الدَّفْع بالمواجهة الحركية، فما هي؟ الجواب أَنَّهُ لا بُدَّ أوَّلًا من دراسة الآيات النَّاطقة بمشروعية ردِّ الاعتداء إمَّا من خلال الحَصِّ عليه أو المعاتبة على تركه، وذلك لاستكناه الضَّوابط الحافَّة بحُكم المواجهة.

المبحث الأول

دراسة النصوص القرآنية المُشرّعة لمواجهة أذى غير المؤمنين

لعلّ من أهمّ الأمور المُعينة على فهم طريقة القرآن في التعامل مع إيذاء الكافرين أن تُقرأ

الآيات المعنيّة بهذا الجانب بحسب تاريخ نزولها ما أمكن؛ وذلك من أجل إدراك السّياق الظّرفي

الذي نزلت فيه تلك الآيات وملاحظة أسلوب تدريجها في الحثّ على المواجهة بحسب الحاجة

والإمكانات والثمرة المرجوّة.

المطلب الأول

دراسة الآيات المشترعة للمدافعة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧]

سورة الشعراء مكيّة كلّها في قول الجمهور^١، واستثنى بعضهم هذه الآيات الأخيرة من السورة ذكروا أنها مدنيّة^٢؛ وقالوا بأنّ المعنيّ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هم شعراء النبي صلى الله عليه وسلم^٣، ورجّح ابن عاشور (١٣٩٣هـ) مكيّة الآيات. قال: "كان شعراء بمكّة يهجون النبي صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث والعوراء بن حرب زوج أبي لهب ونحوهما وهم المراد بآيات ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، وكان شعراء المدينة قد أسلموا قبل الهجرة، وكان في مكّة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة"^٤.

والآيات مسوقة لذمّ المشركين الذين شغلهم الشعر عن سماع القرآن والدخول في الإسلام، واستثنى من حكم الذمّ شعراء المؤمنين الذين ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة المشركين، فأباح لهم الآية الانتصار من المشركين؛ لأنّ المشركين بدؤوهم الهجاء والبادئ أظلم، بشرط أن يكون الانتصار من غير اعتداء ولا زيادة^٥.

١ ينظر: تفسير الماتريدي: ٤٩/٨، تفسير الماوردي: ١٦٣/٤، المحرر الوجيز: ٢٢٤/٤، تفسير النسفي: ٥٥٤/٢، تفسير ابن كثير: ١٣٥/٦.

٢ قاله ابن عباس وقتادة وذكره مقاتل. ونقل عنهم عدد من المفسرين ينظر: تفسير الثعلبي: ١٥٥/٧، الكشاف: ٣٧٦/٤، زاد المسير: ١٥١/٦، تفسير البضاوي: ١٣٣/٤، تفسير أبي السعود: ٢٣٣/٦.

٣ منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك. ينظر: المحرر الوجيز: ٢٤٧/٤، زاد المسير: ١١٤/٦، تفسير القرطبي: ٩٦/١٦.

٤ التحرير والتنوير: ٨٩/١٩.

٥ ينظر: الكشاف: ٤٢٦/٤، نظم الدرر: ١٢٠/١٤، التحرير والتنوير: ٢١٠/١٩.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩) وَحَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٣٩-٤٢]

نزلت سورة الشورى قبل الهجرة، حينها كان المؤمنون في مكّة تحت حكم المشركين الذين يتسلطون عليهم بأسوأ أنواع الأذى، ولم يكن قد أُدين لهم بقتالهم بعد، ومع هذا فإنّ سياق الآيات تعداد لصفات الجماعة المؤمنة على سبيل المدح، ومن هذه الصفات أنّها تنتصر على من بغي عليها، فكيف نفهم هذه الآية في ضوء الظرف التاريخي الذي نزلت فيه؟

الاحتمال الأول: أن تُحمّل الآيات على حالات الاعتداء الفرديّة، فالانتصار على البغي هو القصاص من الظالم في الجراحات من غير إسراف ولا دعوة للثأر لإقامته على سبيل الحق بما هو له أهل تقويماً له، خلافاً لما كان عليه أهل الجاهلية^١، ونظيرها قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] أو أنّها ردٌّ على سفيه ردّعا له، وقد سجّلت كتب السيرة^٢ مواقف لبعض الصحابة ممّن كانت لهم وجاهة بين قومهم فاستعملوا قوتهم لردع بعض المشركين عن التّعريض للمؤمنين أو التّماذي في إيذائهم، وعليه يكون الحثُّ على العفو والصّفح مفهوماً إذا لم يكن في سلوكه ما يزيد من جراءة الجاني وقوّة غضبه^٣.

١ ينظر: تفسير الطبري: ٥٢٤/٢٠، تفسير الماتريدي: ١٣٤/٩، الكشاف: ٤١٦/٥.

٢ من ذلك ما رواه ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شُعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلخي بعير فشجّه، فكان أول دم هريق في الإسلام (السيرة النبوية، ابن هشام: ٣٦٩/١)، وما ذكره ابن كثير من أن عمرًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلم: يا رسول الله على ما نخفي ديننا ونحن على الحق ويظهر دينهم وهم على الباطل؟ قال: "يا عمر إنّنا قليل قد رأيت ما لقينا" فقال عمر: فوالذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم مرّ بقرش وهي تنتظره، فقال أبو جهل بن هشام: يزعم فلان أنّك صبوت؟ فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله. فوثب المشركون إليه، ووثب على عتبة فبرك عليه وجعل يضربه، وأدخل إصبعه في عينيه، فجعل عتبة يصيح فتتخى الناس فقام عمر، فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ بشريف ممّن دنا منه، حتّى أعجز الناس. (ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير: ٩٧/١٥)

٣ ينظر: تفسير الرازي: ٦٠٤/٢٧.

الاحتمال الثاني: أن يكون القصد من قوله تعالى ﴿هُمْ يَنْصُرُونَ﴾^١ أن فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أدلة^٢، ويكون هدف الآية تهيئة المؤمنين لتشريع القتال لاحقاً، وإذكاء شعورهم نحو الدفاع عن العقيدة؛ لكيلا تذلل نفوسهم لأعدائهم، وفيها تحريك للمؤمنين للأخذ بأسباب القوة استعداداً لمواجهة الأعداء، وتكون الآية بعدها على هذا الاحتمال ضبطاً لحدود قوة المنتصر لكيلا تُغريه القوة فيعتدي، وتنبهها على أن إسقاط الحق عن الجاني فاضل إذا كان عفواً مع المقدرة على الانتصار.

وذهب بعض المفسرين^٢ إلى القول بنسخ حكم آية العفو بآية السيف^٣، وأجاب الطبري (٣١٠هـ): "لا يحكم لحكم في آية بالنسخ إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة يجب التسليم لها، ولم تثبت حجة... بأن هذه الآية منسوخة فنسلم لها بأن ذلك كذلك، [ومعنى الآية] فمن عفا عمن أساء إليه إساءته فغفرها له ولم يعاقبه بها وهو على عقوبته عليها قادر ابتغاء وجه الله تعالى فأجر عفو ذلك على الله تعالى، والله مثيبه عليه"^٤.

وبدل قوله تعالى ﴿وَلَمَنَ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ مع قوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أن الانتصار يكون بعد وقوع البغي والظلم إن لم يكن بين الكافرين والمسلمين حرب، فمن يتوقع أن أحداً سيعتدي عليه ليس له أن يبادره الأذى قبل أن يشرع الآخر في الاعتداء عليه، قائلاً: ظننت أنه يعتدي عليّ فبادرته بالأذى اتقاء لاعتدائه المتوقع؛ لأن مثل هذا يثير التهاجر والفساد، فيجتنب^٥.

١ ينظر: تفسير ابن كثير: ٢١١/٧.

٢ ينظر: المحرر الوجيز: ٤١/٥، تفسير القرطبي: ٤٩٣/١٨، فتح القدير: ٦٢١/٤.

٣ فصل هؤلاء المفسرون، فقالوا إن كان السياق في المعاملة بين المؤمنين فإن الآية محكمة، أما إن كانت في المشركين فهي منسوخة بآيات القتال

٤ تفسير الطبري: ٥٢٦/٢٠.

٥ التحرير والتنوير: ١١٨/٢٥.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٦٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٦٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]

اعتمد جمهور المفسرين على بعض الروايات في ترجيح مدنيّة الآيات ونزولها عقب معركة أحد، وذلك على الرغم من مكّيّة السورة، معلّلين بأنّ المسلمين يومئذ لم يكونوا يملكون القدرة على العقاب، وأولوا الصبر بناء على هذا القول بأنّ يُمثّل في القتلى، ولا تُنتهك الحرّيات، ولا يُجهز على الجرحى، ولا يُقتل النساء والذريّة، ولا يبادروا بالقتال^١. بينما رجّح آخرون^٢ مكّيّة الآيات اعتباراً بعموم اللفظ والاتّصال المعنى بما قبلها اتصالاً حسناً؛ فهي تعليم إلى أنّ مقام الدّعوة يقتضي الحكمة والموعظة الحسنة ومقام العقوبة يقتضي العدل والمماثلة، وممّا يدلّ على مكّيّتها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] وأكثر مكرهم وحزنه صلى الله عليه وسلم عليهم كان بمكّة. وبناء عليه تُحمّل الآيات على معاقبة المشركين في مكّة من قبل آحاد المسلمين الذين اشتهروا بقوّتهم، وأنّ الله تعالى جعل الخيريّة في أن يملكو زمام أنفسهم ويُمسكوا عن معاقبة المشركين^٣؛ لأنّ الأقوياء حينئذ قلّة، ولو استرسلوا لتكاثف المشركون عليهم وبالغوا في إيذائهم، وقد اقتضت الفترة المكّيّة أن تكون تدريباً للمؤمنين على ضبط النفس وكبح جماح النّزعة الانتقاميّة التي كانت شائعة بين العرب في الجاهليّة^٤.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّهُ يَكْفُرُ عَنْ غَفُورٍ﴾ [الحج: ٦٠] أي من جازى ظالماً بمقدار ظلّمه ولم يزد في الاقتصاص منه ثم تعدّى عليه الظّالم ثانياً لينصرنّ الله ذلك المظلوم^٥، ففيها تحديد العقاب بالمماثلة، واستيفاء الحقّ من الظّالم مرّة واحدة، فإن عاود الظّالم بغيه تكفّل الله بالانتقام منه.

١ ينظر: تفسير الماتريدي: ٥٩٧/٦، المحرر الوجيز: ٤٣٢/٣، تفسير الرازي: ٢٨٨/٢٠، تفسير القرطبي: ٤٦١/١٢، زهرة التفاسير: ٤٣٠٦/٨.

٢ ينظر: معاني القرآن، النحاس: ١١٣/٤، تفسير الطبري: ٤٠١/١٤-٤٠٦، المحرر الوجيز: الموضوع نفسه، فتح القدير: ٢٤٣/٣.

٣ أفاد التعبير ب(إنّ) التي تدلّ على عدم الجزم بأنّ العقوبة جائزة لكنّ الله يحبّ ألاّ تعاقبوا، واشتراط المماثلة إشارة إلى صعوبة تحقّقها واستحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير. (ينظر: تفسير الشعراوي: ٨٢٨٨/١٣)

٤ ينظر: تفسير الطبري: ٤٠٥/١٤، تفسير ابن كثير: ٦١٤/٤.

٥ ينظر: تفسير القرطبي: ٤٣٨/١٤، تفسير البيضاوي: ٧٧/٤، تفسير القاسمي: ٤٣٧٥/١٢.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِعٍ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[الحج: ٤٠]

سورة الحج مختلف في مكَّيَّتها ومدنيتها، وقيل مختلطة فيها المكي والمدني، ورجَّح ابن عاشور (١٣٩٣هـ) أنَّ بعضها نزل آخر مدَّة مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة^١، بمعنى أنَّه كان يتهيأ حينها للهجرة إلى المدينة، وقد سبقه إليها أكثر أصحابه، وأصبح لهم فيها كيان خاص وانضمَّ إليهم أنصار جُدد فزاد عددهم، فناسب ذلك رفع حكم الإمساك عن القتال ولعل هذه الظروف كانت إيذاناً للانتقال إلى مرحلة جديدة في مسيرة الدعوة، وتذكر الروايات أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنَّ الله وإنَّا إليه راجعون ليهلكنَّ فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾. وهي أوَّل آية نزلت في القتال مبينة علة تشريعه بقوله ﴿بأنهم ظلموا﴾، والتعبير بـ﴿أُذِنَ﴾ مشعرٌ بانتظار المؤمنين له واستعدادهم لتنفيذه، وتؤيِّده قراءة كسر التاء^٢ لكلمة ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ فصيغة المضى مستعملة مجازاً في التهيؤ والاستعداد^٣.

١ التحرير والتنوير: ١٧/١٨٢.

٢ ينظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري: ٢/٣٢٦.

٣ مرجع سابق: ١٧/٢٧٣.

المطلب الثاني

دراسة الآيات المشترعة للمُدافعة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

أولاً: قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٠)
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَفْتُمُوهُمْ وَآخِرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١١١) فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١١٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩١-١٩٤]

نقل كثير من المفسرين^١ القول بأن هذه الآيات هي الأولى في تشريع فرض الجهاد، وقد تضمنت هذه الآيات تفصيلاً لطبيعة الجهاد في هذه المرحلة وبياناً لحدوده والتي يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- الغاية من القتال: إعلاء كلمة الدين، وضمان حرية العقيدة، ومنع الأعداء من التصدي للدعوة والتعرض لأصحابها بالأذى.
- الفئة المستهدفة بالقتال هم الأعداء المحاربون، البادئون بالقتال في أي زمان ومكان كانوا.
- الرد على عدوان الظالم بالمثل ومن غير اعتداء، وذكر المفسرون من مظاهر التعدي المحرمة شرعاً: قتل النساء والصبيان والشيوخ، أو ما يطلق عليهم في عصرنا الحاضر (المدنيون)، والبدء بقتال الكافرين من غير أن تظهر منهم محاربة، والتمثيل بالقتلى والإجهاز على الجرحى، وانتهاك الحرمات.
- إيقاف القتال حال انتهاء العدو عن موقفه العدائي.

مما سبق يتبين أن الحرب حالة طارئة، وعلاج بالفصد لمن لا يعقل إلا لغة السلاح واختزال الحق بالقوة المادية والسيطرة، ومن ثم فهو ضرورة تُقدَّر بقدرها، ومقاصد لها ضوابطها، وهذا من شأنه أن يُبرِّر انسجام التشريع المدني مع المكي.

١ ينظر: تفسير الطبري: ٢٨٩/٣، الكشاف: ٣٩٥/١، المحرر الوجيز: ٢٦٢/١، تفسير الرازي: ٢٨٧/٥، تفسير القرطبي: ٢٣٧/٣.

وما حَفَّ بهذه التشريعات من تذكيرٍ بالتقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وتأكيده لمبدأ المماثلة في الجزاء ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ﴾ ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وعدم تجاوز الحدِّ في مقدار الاعتداء وأحواله ﴿وَلَا تَعْدُوا﴾ ﴿فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ حُجَّةٌ على الذين يرون في الجهاد المدني نسخاً لكلِّ التعليمات الأخلاقية في القرآن المكي، فالقرآن يُرَبِّي في نفوس المؤمنين فضيلة الصَّبْر إذا تغلبوا كما ربَّاهم عليها عندما كانوا مغلوبين في مَكَّة، ويهيِّب بهم هنا أن يلتزموا العَدْل في أشدِّ مستويات المواجهة عُسرة.

ثانياً: قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْنِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٦-٢١٨]

ما إن استقرَّ مقام النَّبي صلى الله عليه وسلم في المدينة حتَّى أرسل سراياه تبعاً من أجل اعتراض قوافل قريش التجارية القادمة من الشام، وحاشا أن يُعَدَّ هذا الأسلوب تعدياً أو اختلاساً، فهو أسلوب حربيٍّ غير مباشر يقوم على الدِّراية بنقاط ضعف العدو ليحسُن استهدافه بأقلِّ الخسائر، وهو ردٌّ على ابتداء قريش بالعدوان على المؤمنين عندما كانوا في مكة، وسيطرتها على أموالهم المتروكة فيها بعد هجرتهم.

واستطاعت إحدى هذه السرايا الظَّفَر بقافلة قرشيَّة فقتلت بعض رجالها وأسرت بعضهم، وصادف وقوع هذا القتال في الأشهر الحرم، فلما رجعوا إلى المدينة عاتبهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، وطالَّت السنةُ المشركين في مَكَّة تُعَيِّر المسلمين باستحلالهم حُرمة الشهر الحرام، ممَّا أوقع الحيرة والقلق في نفوس أصحاب السَّريَّة فأنزل الله هذه الآيات بالفرج لهم ورفع الحرج عنهم، ومضمونها الثَّنَاء على رجال السَّريَّة بأنَّ غايتهم ممَّا أقدموا عليه طلبُ الثَّواب ورضوان الله، والله

١ ينظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي: ٧١. وأخرج الرواية البيهقي في الدلائل عن عروة مرسلاً، وله شواهد تقويهِ (ينظر: دلائل النبوة، البيهقي: ١٧/٣).

بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ سِيَحَقُّ لَهُمْ رَجَاءُهُ، وَفِيهَا أَيْضًا: التَّنْذِيرُ بِالْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ انْتَهَكُوا حُرْمَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَوَّلًا حِينَ أَخَافُوا فِيهِ الْأَمْنِينَ الْمُقِيمِينَ فِيهِ مِمَّنْ اتَّبَعُوا دَعْوَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْجَوُّوهُمْ إِلَى الْهَجْرَةِ فَرَارًا مِنْ بَطْشِهِمْ فَهُمْ أَوْلَى بِالْمَلَامَةِ وَالْعِتْبِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ مُسْتَمِرُّونَ فِي حَرْبِهِمْ عَلَى الدَّعْوَةِ وَأَهْلِهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَمَكَانٍ حَتَّى يَحَقِّقُوا أَمَانِيَهُمْ فِي إِطْفَاءِ نُورِهَا، وَهَذَا مَبْرَرٌ قَوِيٌّ لِفَتْحِ جَبْهَةِ الْقِتَالِ مَعَهُمْ بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ حُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ -فِي هَذِهِ الْحَالَةِ- فِي مَوْقِعِ الدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ وَحِمَايَةِ أَهْلِهِ. وَفِي هَذَا تَأَكِيدُ لَمَّا قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ سَابِقًا فِي آيَاتِ الشُّورَى: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿[الشورى: ٤١-٤٢].

وَتَعَالَجِ الْآيَةُ الْأُولَى مِنْ هَذَا الْمَقْطَعِ جَانِبًا مُهِمًّا فِي تَشْرِيعِ الْجِهَادِ ذَا صِلَةٍ بِنَقْلِ النُّفُوسِ لِهَذَا الْفَرْضِ الْإِلَهِيِّ الْمَفْهُومِ مِنْ لَفْظِ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ تَكْلِيفٌ بِمَا فِيهِ مَشَقَّةٌ شَدِيدَةٌ عَلَى النَّفْسِ تَجْعَلُهُ ثَقِيلًا عَلَيْهَا وَمَكْرُوهًا، لَمَّا فِيهِ مِنْ تَعْرِيفِهَا لِلْقِتَالِ وَالْأَذَى، وَإِثَارَتِهِ لِلْعَدَاوَةِ بَيْنَ الْمَجْتَمَعَاتِ، بَيْنَمَا تَمِيلُ النُّفُوسُ عَادَةً إِلَى الرَّخَاءِ وَالِدَّعَةِ، فَتُكْشَفُ الْآيَةُ عَنْ زَاوِيَةٍ أُخْرَى لِهَذَا التَّكْلِيفِ لَا يَبْدُو ظَاهِرًا، وَهُوَ أَنَّ وَرَاءَ كُلِّ تَشْرِيعٍ إِلَهِيٍّ حِكْمَةٌ تُهَوِّنُ مَشَقَّتَهُ وَتَحَقِّقُ بِهِ خَيْرًا مَخْبُوءًا قَدْ لَا يَرَاهُ النَّظَرُ الْإِنْسَانِي الْقَصِيرُ، فَقَدْ يَكْمُنُ الْخَيْرُ بَعْدَ الضَّرِّ، وَالنُّيُوسُ بَعْدَ الْعُسْرِ، كَمَا قَدْ تَكْمُنُ الْحُسْرَةُ وَرَاءَ الْمَتْعَةِ وَالْمَكْرُوهُ خَلْفَ الْمَحْبُوبِ. وَفِي الْآيَةِ مَلَمَحٌ بِالْعُطْفِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يَعْرِفُ مَوَاضِعَ ضَعْفِ النَّفْسِ، وَيُقَرِّرُ بِمَشَقَّةٍ مَا كُتِبَ عَلَيْهَا فَيَعِذُّهَا وَيُقَدِّرُهَا وَيُقَوِّمُهَا^١.

١ في ظلال القرآن: ٢٢٣/١.

ثالثًا: قوله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْآدْبَارَ ۝١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمُ وَبَسُ الْمَصِيرُ ۝١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكَ بِكَ اللَّهُ قَتْلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ بِكَ اللَّهُ رَحَىٰ وَلَيْسَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ۝١٨﴾ ... إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٩﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٢٠﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢١﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ۝٢٢﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٢٣﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٢٤﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٢٥﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝٢٦﴾ وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأنفال: ١٥-٦٤]

نزلت سورة الأنفال تتحدّث عن غزوة بدر، تستعرض وقائعها وقدرة الله على نصر حزبه، وتبدأ بعتاب المؤمنين على اختلافهم في غنائمها، بعد أن كانوا يريدون الواقعة نصرًا هيّأ ليس فيه بلاء يشقّ عليهم، لكنّ حكمة الله اقتضت أن تكون المعركة فرقانًا يُظهر قوّة الحقّ ويقطع دابر الكافرين، ومن ثمّ فإنّه من الحقّ أن تكون الأنفال خالصةً لله وللرسول، حتى إذا ردّها عليهم كان ذلك منّا منه وفضلاً، يريد بذلك أن يُجرد نواياهم في دفع قوّة الباطل من كلّ مطمع^١. ويتفرّع على هذا العرض الوصايا الآتية:

أ- تذكير المؤمنين بأنّ الخير والنفع الذي عمّم إثر مواجهة الكافرين ودفع أذاهم إنّما تحقّق بتأييد الله تعالى لهم وإمداده بجنوده، والواجب أن يعترفوا بفضله ويكثرّوا من ذكره، فكثيراً ما تأخذ الإنسان نشوة الفرح بالنصر فتُنسيه المتقضيّ بها عليه.

١ ينظر: في ظلال القرآن: ٣/١٤٦٤.

ب- الإيمانُ بقدرة الله تعالى واليقينُ بدفاعه عن المؤمنين ونصره لهم لا يبرران التخاذل عن القيام بواجب الجهاد، لأنَّ الله تعالى أناط النَّصر بحصول أسبابه ومقوماته، والتي منها -بحسب ما جاء في السورة-: وحدة الصَّفِّ، والثَّبات حين لقاء العدوِّ، ولزومُ طاعة القائد، وإعداد العُدَّة الماديَّة.

ج- وجوب التزام طاعة الله تعالى في أمره ونهيه، والحدُّ من التَّهاون فيها بغلبة هوى أو طمعٍ بدنيا، فقد وعد الله تعالى من يتَّقيه فوزًا في الدُّنيا والآخرة، وتوعَّد من يخونُه بترك فرائضه وارتكاب معصيته بأن يُصيبَه بعذابٍ يشمله ويشملُ مَنْ أقرَّه على ظُلمه ولم يُثمِّم بواجب الدَّعوة إلى الخير.

د- وجوب طاعة الرِّسول صلى الله عليه وسلم -ومن يقوم مقامه من أولي الأمر- في دعائه إلى مجاهدة الكفَّار؛ لأنَّ فيها إحياء النفوس وحمايتها من التَّعدِّي عليها بالأذى والضَّرر، ووجوب طاعته في كلِّ ما يدعو إليه ممَّا فيه صلاحُ المؤمنين ومصلحتهم.

هـ- التأكيد على ما سبق تقريره من غاية الجهاد بحيث يَقفُ القتال بمجرد تحقُّق الغاية، ويسودُ السَّلام إذا اختار الأعداءُ المسالمة، فإنَّ أضمَّروا الخديعة ترك أمرهم إلى الله تعالى وهو يكفي المسلمين شرَّ الخادعين.

و- تكريس المبادئ الإيمانيَّة والأخلاقيَّة في ردِّ الاعتداء، باعتبارها البُنى التحتيَّة لعوامل النَّصر والعلامة الفارقة بين الفريقين، وهي: حُسْنُ التَّوَكُّل على الله تعالى، ومُجانبة التَّنصُّع والاستعلاء والمباهاة، وتحرير القصد من مواجهة الكافرين ليكون في مرضاة الله تعالى وخير المؤمنين.

ز- معاملة الكفَّار -المُصرِّين على كُفْرهم والمُجترئين على تكرار نقض العهود مرَّةً تلوَ مرَّةٍ غير مُبالين بعواقبه- على أساس التَّغْلِيظ والتَّشْدِيد، بأن يُفعل بهم في الحرب -إذا صادفهم أو ظفَّر بهم- فعلاً يُرهب مَنْ يحذو حذوهم، لينتَظروا بهم فيحذروا نقض العهد^١.

ح- إذا ظهرت بوادر العَدْرِ والخيانة من قوم معاهدين كان ذلك مُسوِّغاً لفسخ العهد معهم بشرط إعلامهم، لأنَّ الإسلام لا يُبيح لأهله الخيانة مُطلقاً^٢.

١ ينظر: تفسير الطبري: ٢٣٦/١١، المحرر الوجيز: ٥٤٢/٢، تفسير الرازي: ٤٩٧/١٥، تفسير النسفي: ٦٥٣/١.

٢ ينظر: تفسير الطبري: ٢٣٩/١١، تفسير ابن كثير: ٧٩/٤، تفسير المنار: ٥٨/١٠.

ط- ترغيب المؤمنين في الجهاد بكل ما أمكن من الأمور المرغبة باعتباره واقياً لهم من الهلاك بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم لهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين^١.

ي- حَسْبُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعِدُّوا مَا اسْتَطَاعُوا مِنَ الْقُوَى وَيَتَّقُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَيَثْبُتُوا فِي الْمَعْرَكَةِ وَيَصْبِرُوا عَلَيْهَا وَالْبَقِيَّةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

رابعاً: قوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ^(١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ^(١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ^(١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ^(١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ^(١٤٤) وَمَا كَانَ لِلنَّفْسِ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٩-١٤٥]

تناولت سورة آل عمران في جزء منها وقائع غزوة أحد والدروس المستفادة منها، وابتدأ الحديث عنها بذكر ما كان من شأن بعض المؤمنين الذين تأثرت نفوسهم بتراجع المنافقين يوم أحد وتشبيطهم، فحدثتهم أنفسهم بالنراجع أيضاً، ثم ذكّرهم الله تعالى بما سبق من تأييده لهم في بدر، ولم يكن معهم يومئذ منافقون، ووعدهم بإمداد الملائكة أيضاً في هذه الغزوة إن هم صبروا واتّقوا، لكن هذا الوعد لم يُنجز بسببهم؛ بسبب تقصيرهم وعدم ضبط الرّماة لأنفسهم، تلا ذلك أمر المؤمنين بطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتفصيل معنى الطّاعة المطلوبة، وأرشدتهم الآيات إلى الاعتبار بسُنن الله تعالى في النّصر والهزيمة، من أجل تقويّتهم فلا يضعفوا عن الجهاد ولا يستسلموا للهزيمة، بل يأخذوا الأهبة للمعركة القابلة، دون أن تأسّر هذه المعركة تفكيرهم إلّا بمقدار ما فيها من عظة وعبرة أثبتت آيات السّورة جملة منها:

أ- مداولة الأيام تُميّز المؤمنين من المنافقين، لأنّ تقلب الأحوال من شأنه أن يُجلبى مدى خلوص الإيمان، ومن ثمّ يتعلّق الجزاء بحسب ما ظهر من ثبات القلوب أو زعزعتها.

١ ينظر: تفسير أبي السعود: ٣٤/٤.

ب- إذا أدال المؤمنون على عدوهم كان المراد إهلاك الفئة الكافرة التي غلبت، وإذا أُدِيل على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوبهم وتخليصهم من آفات النفوس.

ج- الرسالة الحق لا ترتبط حياتها بحياة الرسول، لأن حياة الإنسان مهما طالت قصيرة، فلا بُد أن ينهض بأعبائها من آمن بها واعتقد بحقيقتها، وعندئذ يكون الجهاد خالصاً للدفاع عنها، وليس بقصد الدفاع عن المرسل بتبليغها.

د- والمجاهد الحق هو الذي لا يخضع لأحد ولا يذل إلا لمن بيده أمره ونصره وخالص عبادته، فلا يلين لأعدائه ولا يهن في حربيه وخصامه، بل يتقصى جميع قدرته ولو كلفه حياته.

هـ- إقدام الإنسان على دفع أذى المعتدين عليه لا يعجل موته، كما أن إحجامه وتخاذله لا يؤخر أجله مهما استتر في مضجعه، ومهما رقى بروجاً مشيدة تمنع وصول المعتدي إليه، وفي هذا رد على المنافقين الذين ما فتؤوا يبيئون الأراجيف بغرض تشبيط عزائم المؤمنين عن مدافعة العدو.

و- إن الله قد وفى بوعده في نصر المؤمنين أول المعركة، وكادوا يهزمون عدوهم لولا استعجال فريق منهم بطلب المغنم وعصيانهم لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم، واختلافهم مع إخوانهم الذين آثروا الثبات في مواقعهم -امثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم- فلما أخلوا بشروط النصر صرف الله تعالى نصره عنهم فكثرت فيهم القتل والجراحات، وحرموا غنيمة المشركين التي استعجلوا تحصيلها.

ز- من حُكِم الإدالة على المؤمنين أن يُكرِم الله من بينهم قوماً بالشهادة باعتبارها وسيلة إلى نيل رحمة الله تعالى ورضوانه، وهذه البشرية من الله تعالى لهم خير من متاع الدنيا الفاني، وقد وعد الله تعالى الشهداء في سبيله بأخص درجات القرب والكرامة، وأفضل أنواع الرزق، وأجل مراتب الفرح والسُرور^١.

ح- لا بُد فيمن يطمح إلى التأثير في الناس أن يتَّصف بالأخلاق العالية ويمتلك الوسائل الحكيمة لاستمالتهم إلى جانب الحق الذي يدعو إليه، فلا يكتفي بالبراهين العقلية التي تدعم موقفه، ولا الإمكانات المادية التي تُرهَب خصومه.

١ ينظر: تفسير الرازي: ٤٢٥/٩.

ط- ما على الرسول إلا البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، والله تعالى وحده هو المدبر لجميع الأمور ومالك أمر الكافرين؛ إما أن يهلكهم أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة غير ظافرين بمبتغاهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم في الآخرة إن أصرّوا على كفرهم^١.

خامساً: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَتَأْتُمْ أُولَاءَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ... ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقِيلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِك حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُمِيتُ وَيُحْيِي وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ [آل عمران: ١٥٦]

حددت هذه الآيات من آل عمران أسلوب التعامل مع المنافقين في ظل هزيمة المسلمين يوم أحد وهي تلخص بما يلي:

- النهي عن اتّخاذ المنافقين بطانة من دون المؤمنين، معللاً ذلك بما ظهر من بغضهم للمؤمنين في فلتات لسانهم، وشماتتهم بالمؤمنين إن مسهم سوء، وحسدهم لهم على ما يصيبهم من خير، فهم لا يألون جهداً في مَضَرَّة المؤمنين وإفسادهم.

- التّنديد بما تحصّل لهم من الظّن السيئ بالله تعالى عندما عاينوا هزيمة المؤمنين، إذ حسبوا أنّ الإسلام قد باد وأهله، ولازمهم الخوف والقلق على أنفسهم من الفتك بهم، وتناجوا بالسوء على حكمة النبي صلى الله عليه وسلم وتدبيره في الخروج إلى المشركين، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يُعلّمهم أنّ قضاءه لا يُردُّ وحكمه لا يُعقَّب، فلو كانوا قعدوا في المدينة كما يقولون

١ ينظر: تفسير البضاوي: ٣٧/٢، تفسير السعدي: ١٤٦.

لخرج الذين كُتِبَ عليهم انتهاء الأجل إلى مصارعهم التي قَدَّرَ الله تعالى قتلهم فيها وقُتِلوا هنالك^١، ثم أعقب هذا البيان تحذير المؤمنين أن يتشبَّهوا بالمنافقين في انحراف فهمهم لحقيقة القضاء والقدر، إذ إنَّ الله تعالى هو المؤثِّر في الحياة والممات، وقد يُحيي الغازي أو المسافر مع اقتحامهما لموارد الحتوف، ويُميت المقيم والقاعد مع حيازته لأسباب السَّلامة^٢، لكنَّ الله تعالى جعل اعتقاد المنافقين هذا حسرةً عليهم "لأنَّهم توهَّموا أنَّ مُصابهم نشأ عن تضييعهم الحزم... فلا يزالون متلهِّفين على ما فاتهم، أمَّا المؤمن فإنَّه يبدُل جُهده فإذا خاب سَلَم لحُكم القدر"^٣، والآية (١٥٦) مُشعرة "بوجوب حفظ المنطق ممَّا يُشاكل ألفاظ المشركين من الكلمات المنافية للعقيدة الإسلامية"^٤.

- فضحُ كذبهم وتصنُّعهم الاجتهاد في الرأْي عندما دُعوا إلى القتال في سبيل الله أو إلى الدِّفاع عن أراضيهم وأموالهم وإخوانهم فتعلَّوا بأنَّه لن يكون قتال، تعريضًا منهم بضَعف المؤمنين أمام قوَّة المشركين، وعودة المؤمنين إلى المدينة دون أن يظفروا بعدوِّهم، لكنَّ الله تعالى توعَّد المنافقين بأنَّه العليم بخفايا القلوب، يَعْلَم نفاقهم وسيكشفه للمؤمنين بِذِكْرِ الأمارات المنبئة عنه، والتي منها ادِّعاؤهم أنَّ تحصينهم لأنفسهم وتركهم للجهاد يؤخِّر أجَلهم، وهذا كذب وافتراء على الله تعالى؛ فإنَّ الحذر لا ينفع من القَدَر والمقتول يُقتل بأجله^٥.

سادسًا: قوله تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِفْئِهِمْ فَفَضَّلَ اللَّهُ فَوْضَلَهُمْ وَأَلْزَمَهُمْ كُنُوزَهُمْ فَذَرَاهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]

ذكر المفسِّرون^٦ في سبب نزول هذه الآيات خروج النبي صلى الله عليه وسلم مع صحبه الذين كانوا معه في أحد إلى حمراء الأسد ردًّا على ما بلَّغهم من معاودة المشركين لاستئصالهم^٧، فأثنى الله تعالى على المؤمنين تجلُّدَهم وتجاوزَهم لعنَّة الهزيمة في أحد واستجابَتهم لداعية الجهاد

١ ينظر: تفسير ابن كثير: ١٤٥/٢، تفسير أبي السعود: ١٠٢/٢.

٢ ينظر: تفسير البضاوي: ٤٥/٢، تفسير أبي السعود: ١٠٤/٢.

٣ التحرير والتنوير: ١٤٢/٤.

٤ تفسير القاسمي: ١٠١٥/٤.

٥ ينظر: تفسير القرطبي: ٤٠٥/٥.

٦ ينظر: تفسير الطبري: ٢٣٩/٦، تفسير الرازي: ٤٣١/٩، تفسير البضاوي: ٤٨-٤٩، تفسير أبي السعود: ١١٣/٢.

٧ قال ابن حجر: "أخرجه النسائي وابن مردويه، ورجاله رجال الصحيح إلا أنَّ المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس" (فتح الباري: ٢٢٨/٨).

مع النبي صلى الله عليه وسلم بالرغم من الجراح التي أثقلتهم، وبالرغم من التخذيل الذي سمعوه من بعض المغرضين ممن أوهمهم قوة المشركين وشدة بأسهم، ذلك أن المؤمنين قد اكتفوا بالله ناصرًا، فألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين وصرفهم عن حرب المؤمنين.

سابعًا: قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ١-٥]

خرج النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الرابعة للهجرة إلى بني النضير يستعينهم في دية، فبيتوا الغدر له، فلما أعلمه الله تعالى بأمرهم أمر أصحابه بالنهيؤ لحربهم والسير إليهم، وحاصرهم، فطلبوا الصلح لكنه أبى عليهم إلا الجلاء^١، ونزلت سورة الحشر تصف الواقعة وتبين أسبابها وتعقب عليها وتأمر الناس بأخذ العبرة منها؛ فقد اعتد اليهود بالأسباب المادية التي يمتلكونها من كثرة وقوة وحصون منيعة، وظنوا أنها كافية لتمنعهم من بأس الله تعالى وعقوبة النبي صلى الله عليه وسلم، كما أنهم تقووا بوعود المنافقين بمؤازرتهم، لكن الله تعالى أزال قوتهم من حيث لم يحتسبوا، بأن تثبط المنافقين عن مظاهرتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة عندما رأوا جدية استعداد النبي صلى الله عليه وسلم لقتالهم وسيره لحصارهم^٢، وزاد من رعبهم وإذلالهم ما قام به فريق من المؤمنين من تقطيع لبعض نخيلهم بقصد تخويفهم وتوسعة معسكر المؤمنين، فاستسلم اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم وقبلوا حكمه عليهم بالخروج من المدينة على أن يأخذوا متاعهم، فكانوا يخربون بيوتهم ويأخذون منها ما قدروا على حمله لئلا ينتفع المؤمنون بها، ولم يكن يتوقع المؤمنون حسم العقوبة بهذه السرعة لما يعلمونه من تقوى اليهود عليهم بالإمكانات المادية، لكن الله تعالى شاء أن ينزل باليهود عقوبته؛ جزاء اعتدائهم السافر على ميثاق النبي صلى الله عليه وسلم، ومكرهم به، ومولاتهم للأعداء المحاربين له، وأقر صنيع المؤمنين في نخيل اليهود بقطع بعضه وإبقاء بعضه، ليرتك المؤمنين حرية التصرف في وجوه المصالح بحسب اختلاف الأحوال مع الكافرين المحاربين^٣.

١ ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام: ١٩٠/٢، المحرر الوجيز: ٢٨٣/٥، البحر المحيط: ٢٤١/٨.

٢ ينظر: الكشف: ٧٤/٦.

٣ ينظر: التحرير والتنوير: ٧٦/٢٨.

ثامناً: قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَا الْأَذْبَرَتُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٤]

تدور فكرة هذا النص حول فضح خيانة المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين حين بَعَثُوا إلى يهود بني النضير يشدُّون أزرهم ويعِدُونهم بالنَّصر أثناء حصار النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لهم، فبيَّن الله تعالى في هذه الآيات أنَّ المنافقين كاذبون في موالاتهم لليهود ووَعْدِهِم لهم بالمناصرة، وأنَّ كُلاًّ من اليهود والمنافقين يخافون عاجل الشرِّ من المؤمنين، ولا يؤمنون بأجل العذاب من الله تعالى، بسبب جهلهم بالله وعدم معرفتهم له إذ لو عرفوه لشعروا بعظمته وقدرته، وعلموا أنَّه لا قيمة لأي قوة كونية أو بشرية ليخافها الإنسان أمام قوَّته تعالى^١، وطمأن الله تعالى المؤمنين بما كشفه لهم من شأن عدوِّهم ومدى جُبْنه وتخاذله، بأنَّهم متى ما اجتمعوا لقتال اليهود قذف الله تعالى الرُّعب في قلوب اليهود، واقتصر قتالهم على قتال الدِّفاع ثمَّ لا يثبتون عليه؛ لأنَّهم لا يضبطون نفوسهم وسلوكهم عن اتِّباع أهوائهم وشهواتهم، والاستجابة للتَّحاسد والتَّباعد فيما بينهم^٢.

تاسعاً: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ... وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيَّاعًا رَئِيسًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٩-٢٥]

١ ينظر: المحرر الوجيز: ٣٨٩/٥، تفسير القاسمي: ٥٧٤٧/١٦، من وحي القرآن: ١٢١/٢٢.

٢ ينظر: ظاهرة النفاق وخبايا المنافقين في التاريخ، عبد الرحمن حبنكة: ٧١٦/١-٧١٧.

أَضْمَرَت يهود بني النَّضِير -بعد جلائها عن المدينة- الانتقام من النبي صلى الله عليه وسلم فاستنھضت قريشًا وقبائل غطفان وبني أسد ومن أمكنهم من أهل نجد وتهامة إلى حرب النبي صلى الله عليه وسلم وقتال المسلمين، وأطمعهم في الغنائم، فتحزَّب الناس وساروا إلى المدينة فحاصروها، ثم حرَّضت بنو النَّضِير بني قريظة على نقض العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فأجابوهم، وكانت النِّيَّة أن تجتمع كلمة الأعداء لضرب المسلمين في مدينتهم ضربة واحدة تستأصلهم^١، ولمَّا سمع النبي صلى الله عليه وسلم بالخبر شاور أصحابه، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق، فرضي رأيُه، وعَمِلَ المسلمون في الخندق مجتهدين، ونكص المنافقون يتسلَّلون لَوَاذًا وأظهروا من نفاقهم كثيرًا ممَّا كانوا يُسرُّونه^٢. ونزلت آيات من سورة الأحزاب تصف حال المؤمنين وما أصابهم من الخوف، وتكشف زيف الأعداء الواهية التي علَّل بها المنافقون تخاذلهم.

وقد افتتحت السُّورَةُ الحديث عن الغزوة بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم في تلك الموقعة، إذ بَعَثَ الله على معسكر الأحزاب ريحًا شديدة باردة في ليلة شاتية أطفأت نيرانهم وأكفأت قدورهم، وقذف في قلوبهم الرُّعب، وجازى المؤمنين بالنَّصر المبين على جموع الأحزاب لعلمه بصدق التجائهم إليه، وبأخذهم الأسباب في مواجهة الأحزاب، والتي منها حَفَرُ الخندق وما يتطلَّبه من مشقة ومصابرة، والخروج من ديارهم إلى معسكرهم خارج المدينة، وبذلهم النفوس في نصر دينه^٣. وقوله تعالى ﴿وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ إيماءً إلى أَنَّ الله تعالى يقضي حوائجهم بقدرته من جهة لا تظهر لهم، لذا عليهم أن يعتمدوا عليه ولا يخافوا غيره^٤.

وقد أراد الله تعالى من إيقاع المؤمنين بهذه الشدة أن يمتحن صبرهم على الإيمان، فظهر بذلك المخلص من المنافق، وتكلَّم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم^٥.

وأثنى الله تعالى على موقف المؤمنين الذين استبشروا بتأييد الله تعالى عندما عاينوا البلاء، وأيقنوا تحقُّق وَعْدِهِ الذي ذكره لهم في سورة البقرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] فازدادوا إيمانًا بالله تعالى وتسليمًا لأوامره، ووفوا بعهدهم في مؤازرة النبي صلى

١ ينظر: المحرر الوجيز: ٣٧١/٤-٣٧٢.

٢ ينظر: تفسير القرطبي: ٧١/١٧-٧٢.

٣ ينظر: التحرير والتنوير: ٢١/٢٧٩.

٤ ينظر: تفسير الرازي: ١٦٠/٢٥.

٥ ينظر: تفسير البضاوي: ٢٢٦/٤، تفسير النسفي: ٢١/٣، تفسير ابن كثير: ٣٨٨/٦.

الله عليه وسلم ودعوته وثبتوا في القتال معه، وكانوا بين شهيد ومُنْتَظِرٍ للشهادة، لم تُبَدِّلِ المِحَنُ موقفهم ولم تُغَيِّرِ صدقهم.

وأبانت السورة عن موقف المنافقين في غزوة الأحزاب والذي تمثل بـ:

أولاً: إساءة الأدب مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والتشكيك بوَعْدِهِمَا، فقد ظنُّوا جهلاً وكفراً بأنَّ الله تعالى يخذل نبيّه صلى الله عليه وسلم وأنَّ قوَّةَ الأحزاب كفيلاً باستئصاله وأصحابه^١.

ثانياً: التعلُّل بالأعداء الواهية^٢: ذلك أنَّ المنافقين لمَّا رأوا كثرة الأعداء قطعوا بعلبتهم، فدَعَوْا النَّاسَ إلى الرجوع للمدينة زاعمين أنَّه لا جدوى من الثَّبات في مواجهتهم لأنَّ النتيجة حينئذٍ معروفةٌ، واستجاب فريقٌ من ضِعَافِ الإيمان إلى دعوتهم متعلِّلين بأنَّ الضَّرورة تُلجئهم إلى العودة للمدينة لأنَّ بُيوتهم غير حصينة^٣.

ثالثاً: نقضُ العهد مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد دلَّت الآية (١٥) أنَّهم سَبَقَ لهم مع النبي صلى الله عليه وسلم عهد -ولعله بعد أخذ- ألاَّ يَفِرُّوا من القتال ولا يتوانوا عن الجهاد، تصنعاً ومداواة للمؤمنين، لكنَّهم ما لبثوا أن عادوا إلى سيرتهم الأولى في أوَّلِ بلاءٍ لهم بعد العهد، بما يورِّدُ سوءَ نيتهم وفساد طويَّتهم^٤.

رابعاً: تثبيط النَّاسِ والتخلُّفُ عن المؤمنين والتَّواصي بالفرار^٥، وما يترأى للنَّاسِ من مظاهر قتالهم إنَّما يقع منهم خوفاً من العار وحميةً على الدِّيار^٦.

خامساً: اتِّصافهم بالبخل الشَّدِيد، وإمساكُ يدهم عن الإنفاق والمعاونة والقتال مع المؤمنين في سبيل الله؛ لأنَّهم لا يتوقَّعون لهم الظَّفَر، ومن ثَمَّ لا يَرَجُونَ في مساعدتهم بدلاً، ولا يأملون حصول غنيمة^٧.

١ الأحزاب: ١٠-١٢.

٢ الأحزاب: ١٣.

٣ ينظر: تفسير البضاوي: ٢٢٧/٤.

٤ الأحزاب: ١٥، ٢٣.

٥ الأحزاب: ١٨.

٦ ينظر: فتح القدير: ٣١١/٤.

٧ الأحزاب: ١٩.

سادساً: الجُبْن والحِرص الشَّدِيد على الحياة، فإذا مَسَّهم الشَّرْ جَزِعُوا واضطربوا، وخالَج نفوسهم الشُّكُّ بَرُجوعه عنهم، وآثروا الإبعاد في الفرار لضمان سلامة أنفسهم^١.

سابعاً: إيذاء المؤمنين ببذاءة لسانهم بعد زوال الشِّدَّة، وإظهار المنَّة عليهم بأنَّ النَّصر لم يكن ليقع لولا مشاركتهم المؤمنين في القتال ومساندتهم لهم^٢.

وقد وقف البيان القرآني عند كلِّ صفةٍ وحالٍ للمنافقين، يُبرِّز سيِّئاتها وعاقبة التَّلَبُّس بها، لِيَنعِظَ النَّاسُ منها وَيَحْذَرُوا من مكائد الموصوفين بها، فبدأ النَّصُّ القرآني بأسلوبٍ المُعرِض عن خطاب المنافقين، فكشف كذب أعذارهم، وأبان غرضهم الحقيقي من الاستئذان بأنَّهم يريدون الفرار من مواجهة العدوِّ والهروب من موقع المِرابطة، مُنْذِرًا إِيَّاهم بأنَّ من نقض عهد الله تعالى جعل نفسه تحت طائلة العقوبة الرَّبَّانِيَّة، ثُمَّ أعاد التَّأكيد على القضيَّة الإيمانيَّة التي أرسى دعائمها سابقاً في حديثه عن غزوة أحد، بأنَّ اتِّخاذ الوسائل الماديَّة والفرار من القتل للحماية من الموت ودفعه لا ينفع في شيء إذا كان أمراً مقضياً بقضاء الله تعالى، فضلاً عن أنَّ فرارهم في المواطن التي يجب فيها ثباتهم معصية تُعَرِّضهم لعقاب الله تعالى ونقمته وعندئذ لن يجدوا ولياً يتولَّاهم ولا نصيراً ينصرهم من دون الله تعالى، وأفهم النَّصُّ القرآني المؤمنين بأنَّ وجود المنافقين في صفوف المسلمين أثناء معارك القتال بمثابة قوى سلبية تُضاف إلى قوى الأعداء ولا تُحسب ضمن قوى المؤمنين. ثُمَّ ختم هذا الكشف عن أوصافهم وحقيقتهم بإقرار قانون الجزاء، فإنَّ أصروا على نفاقهم ولم يُصلِحوا من أحوالهم استحقُّوا أن يعذبهم الله تعالى بمشيئته المقترنة بكمال حكمته وعِلمه، وإن تابوا واستغفروا وأصلحوا وآمنوا إيماناً صادقاً فإنَّ الله تعالى يتوب عليهم ويقبل استغفارهم رحمةً منه^٣.

عاشراً: قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧]

بيَّنت هذه الآيات حكم الله تعالى في بني قريظة جزاء غدرهم بالمؤمنين في وقت عَصِيب كانوا معرَّضين فيه لخطر الاستئصال والإبادة عندما زحفت إليهم جموع الأحزاب^٤، فكان تعاون

١ الأحزاب: ٢٠.

٢ الأحزاب: ١٩.

٣ ينظر: ظاهرة النفاق وخبايا المنافقين في التاريخ: ١/٣٩٨-٤١٥.

٤ ينظر: التفسير الحديث: ٣٦٩/٧.

اليهود مع الأحزاب بمثابة فَتْحِ جبهة حربيّة من الداخل ضدّ النبي صلى الله عليه وسلم أوجبت عليهم أشدّ العقوبات إذ لم يَعتَبِرُوا بخيانة إخوانهم من بني النّضير وبني قينقاع، ولمّا اشتد عليهم حصار النبي صلى الله عليه وسلم لهم نَزَلَ بهم خوف شديد فأَسْلَمُوا أنفسهم للقتل من غير أن يكون في جهتهم حراك فضلاً عن المخالفة والاستعصاء، وأَسْرَت نساؤهم وذرايرهم^١.

حادي عشر: قوله تعالى ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]

جاءت هذه الآية في سورة الأحزاب بعد آيات التحذير من إيذاء الله ورسوله، وإيذاء المؤمنين والمؤمنات، إيماء إلى أن المتسلّطين بالأذى هم أهل النفاق ومن داناهم^٢.

وكان القرآن قبل ذلك يهدّدهم بوعيد الآخرة، ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقابلهم باللسان دون السيف، فكأنهم أمِنُوا وظنُّوا دوام الحلم عنهم، فأَنَزَلَ الله تعالى الآية يحرِّضُ النبي صلى الله عليه وسلم على قتالهم وإجلالهم إن لم يكفُّوا أذاهم، ولم تذكر الآية المعمول الذي ينتهون عنه ليعمَّ كلّ ما توحى به أنفسهم وتدعو إليه من الشر^٣.

ولم يُنقل أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد اختار أسلوب مواجهتهم بالسيف، ومن المحتمل إزاء ذلك أن يكون المنافقون قد تأثروا بالنذير ولزموا حدودهم، أو أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد عدّ هذه الآية وأمثالها ممّا يوكل إلى ولي الأمر، وهو الذي يقدّر ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين^٤.

ثاني عشر: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ۖ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ

١ ينظر: تفسير أبي السعود: ١٠٠/٧.

٢ ينظر: نظم الدرر: ٤١٣/١٥. ونقل القرطبي عن أهل التفسير أن الأوصاف الثلاثة في الآية لشيء واحد، والمراد بهم المنافقون. (ينظر: تفسير القرطبي: ٢٣٣/١٧)

٣ ينظر: تفسير الماتريدي: ٤١٥/٨، تفسير البضاوي: ٢٣٨/٤، تفسير السعدي: ٦٧١.

٤ التفسير الحديث: ٤٢٣/٧.

تُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾... فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿النساء: ٧١-٨٤﴾

قصدت هذه الآيات تحريض المؤمنين على القتال لمقاومة الأعداء ودفع شرهم عن عامة المؤمنين وخاصة المستضعفين منهم، وتكرر في المقطع ألفاظ التحريض والمبالغة في الحديث، مثل: (فانفروا، فليقاتل، وما لكم لا تقاتلون، فقاتلوا، فقاتل) لبعث همم المؤمنين إليه باعتباره أمراً مكروهاً لهم كما أقرت بذلك آيات من سورة البقرة، ويُشكّل هذا المقصد الفكرة المركزية لهذا المقطع التي تلتفت حولها مضامين آياته كما يأتي:

أ- الاستعداد لمواجهة الأعداء وإحكام الخطط الحربية تبعاً للمصلحة وبحسب قوة العدو وأوضاعه.

ب- الحذر من المنافقين المثبطين الذين يحثون غيرهم على القعود ويتخلفون عن الجهاد خوفاً على حياتهم وحرصاً على دنياهم، فيفرحون بنجاتهم إن أصاب المؤمنين هزيمة أو قتل، ويتحسرون على ما فاتهم من الغنائم إن تغلب المؤمنون وحققوا النصر^١.

ج- التثاء على المخلصين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم لإعلاء كلمة الله تعالى ورجاء ثوابه، فلهؤلاء العقبى بالفوز الحقيقي في الدنيا والآخرة سواء تغلبوا على أعدائهم أو نالوا شرف الشهادة في سبيله^٢.

د- من الدواعي الموجبة لفرض الجهاد استنقاذ المؤمنين الضعفاء من أيدي الظالمين الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن دينهم ويصدّوهم عن الهجرة، ولم يبق لهؤلاء المستضعفين من حيلة سوى الدّعاء بأن يمدّهم الله تعالى بمن يتولّى إخراجهم ويمنعهم من الظالمين^٣.

١ ينظر: تفسير الطبري: ٢١٩/٧، تفسير الرازي: ١٣٨/١٠.

٢ ينظر: تفسير الطبري: ٢٢٣/٧.

٣ ينظر: المحرر الوجيز: ٧٩/٢، تفسير القرطبي: ٤٥٩/٦.

هـ- كلُّ مَنْ قصد بجهاده رضا غير الله تعالى فهو في سبيل الطاغوت، -والطاغوت كلُّ ما اتُّبع من دون الله تعالى- ومَنْ قاتل في سبيل الطَّاغوت فهو في غاية الضَّعف، وفي الآية (٧٦) إيماءٌ إلى كمالِ قوَّةِ المؤمنين بإمداد الله تعالى ونُصرته في مقابل قوَّةِ الأعداءِ الشَّكليَّةِ التي لا يُؤبِه بها إذ لا وليَّ لها، وهذا من شأنه أن يُجَرِّعَ المؤمنين على مقارعة الأعداء^١.

و- مفاتيح الأشياء ومقادير الأمور بيد الله تعالى وحده، فلا يصيبُ أحدًا سيِّئةٌ إلا بتقدير الله تعالى، ولا ينال أحدٌ رخاءً ونعمةً إلا بمشيئته تعالى.

ز- مُهِمَّةُ الرِّسُولِ تبليغ الدَّعوة وإنذار النَّاسِ، وليس عليه أن يُهيمنَ عليهم أو يُلجئهم إلى الهداية، وواجب المدعوِّين طاعته فيما يُبلِّغه عن ربِّه، فإن أعرضوا يتولَّى الله تعالى حسابهم وعقابهم.

ح- الواجب على النبي -ومَنْ يقوم مقامه من أولي الأمر- أن يكون القدوة الصَّالحة في الإقدام على الجهاد، وأن يتولَّى مسؤوليَّةَ تحريض النَّاسِ على الجهاد بكلِّ الأساليب التي تدفعهم إلى الإقبال عليه، فإن أتى بهذين الأمرين خرج من عَهْدَةِ التَّكليف وليس عليه من كَوْنٍ غيره تاركًا للجهاد شيء^٢.

ط- على المسلم أن يبادرَ إلى الخيرات ويسارعَ إلى كلِّ واجب يتَّصل بمصلحة المسلمين العامَّةِ وأمنهم وسلامتهم، دون أن يعتذر بغيره أو يبالى بكثرة عدوِّه وصعوبة العمل الموكَّل إليه^٣.

ثالث عشر: قوله تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَلَّا تَرِيدُوا أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) أَلَا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفَقَّطْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿

[النساء: ٨٨-٩١]

١ ينظر: المحرر الوجيز: الموضع نفسه، تفسير الرازي: ١٠/١٤٢، تفسير أبي السعود: ٢/٢٠٢.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ١٠/١٥٨.

٣ التفسير الحديث: ٨/١٨٦.

هذه الآية الثانية التي تجسّد أسلوب القرآن الحازم والقويّ تجاه تناول المنافقين بالأذى والكيد للمؤمنين، والقرآن في الموضع الحادي عشر يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ويحثّه أن يسلك مع المنافقين ما يردّدهم ويؤدّبهم، بينما يتّجه بالخطاب في هذه الآيات إلى جماعة المؤمنين يحملهم على الحذر من المنافقين والحكم عليهم استدلالاً بأفعالهم، وتتطوي الآيات على جملة من الدروس والتوجيهات في التعامل مع المنافقين، منها:

- حال المنافقين في مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وترك موالاة المؤمنين والانحياز إلى الباطل واضحة بيّنة، ومن الخطأ -وحالهم كذلك- إدخالهم في عداد المؤمنين لمجرد نطقهم بالشهادة، دفاعاً عنهم وإلحاحاً في هدايتهم، إذ ليس يملك أحدٌ من الناس سوقهم إليها وإلزامهم بها، وليس للمؤمنين من سبيل إلى هدايتهم إلا بالدعوة والموعظة الحسنة؛ فالهداية بيد الله تعالى يكتبها لمن أَرادها، ومن أباهّا تغدو مقاطعته ديناً والإغلاظ عليه واجباً.

- إرشاد المؤمنين إلى جعل الهجرة معياراً للدلالة على صدق دخول المنافقين في الإسلام فمن هاجر في سبيل الله لا لغرض من الدنيا عدّ مؤمناً، له ما للمؤمنين وعليه ما عليهم، ويثبت له حقّ الولاية والنصرة ويُقبل منه، ولا يقتصر مفهوم الهجرة على الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد الإيمان، وإنّما يدخل فيها الانتقال من أعمال الكفار إلى أعمال المسلمين، فالمهاجر -كما قال صلى الله عليه وسلم- من هَجَرَ ما نهى الله عنه، فإن أعرضوا عن الهجرة وتولّوا عن الإيمان فإنّ على المؤمنين أن يحملوا عليهم ويجاهروهم بالقتال^١.

- ثمة فريق من المنافقين ينتسبون لأعداء محاربين، لكنّهم دخلوا في عداد المعاهدين جادّين في إلقاء السلم، والتزموا مهادنة النبي صلى الله عليه وسلم مُعلنين كراحتهم لقتال النبي صلى الله عليه وسلم وقتال قومهم، فهؤلاء حكمهم حكم المسالمين في وجوب ترك قتالهم وعدم التعرّض لهم بسوء، وفقاً للأصل القرآني المحكم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧]

- بالمقابل هناك طائفة أخرى من المنافقين مُخادعة مُبطلّة مبطنة، لا همّ لهم إلا حُظوظ أنفسهم، يصانعون المودة للمؤمنين إن كانوا معهم، ولِقومهم إن كانوا بينهم وهم غيرُ صادقين في كلا الموضعين، فهؤلاء حصّ القرآن الكريم على قتلهم إذا لم يرجعوا عن حالهم إلى حال المعتزلين

١ ينظر: المحرر الوجيز: ٨٩/٢، تفسير الرازي: ١٧٠/١٠-١٧١.

المُلقين للسِّلم؛ وإِنَّمَا اسْتَحَقُّوا الْقَتْلَ لظُهُورِ عداوتهم وَغَدْرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وإِضرارهم بالمسلمين^١.

رابع عشر: قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ فَإِمَّا مَأْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْصَرَكُمْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ بَعْضَ الَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ (٥) وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ (٦) يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصَلَ أَعْمَالُهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿[محمد: ١-١١]

اختُتِمَ المقطع السابق بذكر العلة من حثِّ المؤمنين على التضامن في موقف الجهاد، وأنه أَرْجَى لِأَنَّ يَكْفَى اللَّهُ عَنْهُمْ بَأْسَ الْأَعْدَاءِ، أمَّا هذا المقطع فقد أبان الغاية من التحريض على القتال بأنَّ يَصِلَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْغَلْبَةِ لَا يَكُونُ فِيهَا مَعَ الْمُشْرِكِينَ حَرْبٌ، بَأْنَ لَا تَبْقَى لَهُمْ شَوْكَةٌ^٢، وَإِذَا كَانَ الْمَقْطَعُ السَّابِقُ قَدْ اتَّبَعَ أَسْلُوبَ التَّرْغِيبِ وَالتَّحْيِيبِ بِالْقِتَالِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ النَّاسِ، فَإِنْ صَدَى الْأَلْفَاظُ الْقَوِيَّةُ وَاللَّهْجَةُ الْحَاسِمَةُ فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- تَجْعَلُ مَسْأَلَةَ الْقِتَالِ مَعَ الْكَافِرِينَ الْمَحَارِبِينَ ضَرْبَةً لِازْبِ جَزَاءِ ضَلَالِ أَعْمَالِهِمْ.

وَبِحَسَبِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الْأُولَى فَإِنَّ الْفِتْنَةَ الْمُسْتَهْدِفَةَ بِالْقِتَالِ هُمُ الْكَافِرُونَ الْمَحَارِبُونَ لِدِينِ الْحَقِّ، الْمُتَنَمُّونَ إِلَى حِزْبِ الشَّيْطَانِ -الذي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي الْمَقْطَعِ السَّابِقِ أَنَّ كَيْدَهُ ضَعِيفٌ- فَهَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ يَسْتَحَقُّونَ الْمَعَامَلَةَ الْقَاسِيَةَ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ حَتَّى تُكْسَرَ شَوْكَتُهُمْ وَيُقَهَّرُوا، حِينَهَا يُسَاقُ مَنْ تَبَقَّى مِنْهُمْ إِلَى الْأَسْرِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ الْإِمَامُ بَيْنَ الْمَنْ عَلَيْهِمْ بِإِطْلَاقِ سَرَاحِهِمْ إِنْ كَانَ يُرْجَى تَوْبَتُهُمْ وَصَلَاحَتُهُمْ، أَوْ يَفَادِي بِهِمْ لَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ الْمَالِيَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهَكَذَا يَسْتَمِرُّ فِي مَغَالِبَتِهِمْ حَتَّى يُلْقَى الْمَحَارِبُونَ رَايَةً حَرْبِهِمْ وَيَبْقَى الْفَرِيقَانِ فِي حَالَةِ الْمَسَالَمَةِ وَالْمَهَادَنَةِ. وَهَذَا التَّدْبِيرُ الْإِلَهِيُّ لَهُ حِكْمَةٌ وَغَايَةٌ، إِذْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَقْضِيَ عَلَى الْكَافِرِينَ قِضَاءً مُبَاشَرًا، لَكِنَّ حِكْمَتَهُ اقْتَضَتْ أَنْ

١ ينظر: المحرر الوجيز: ٩١/٢، تفسير البضاوي: ٨٩/٢.

٢ ينظر: تفسير أبي السعود: ٩٣/٨.

يبتلي الله عباده بعضهم ببعض فيعاجل على الكافرين جزءًا من عذابه بأيدي المؤمنين ليرتدع بعضهم عن الكفر^١، ويمتنح صدق المؤمنين، ثم وعد فريق المؤمنين إذا هم نصره بإيمانهم وجدهم أن يؤيدهم وينصرهم بالظفر والنمكين في الأرض وإرث ديار العدو^٢.

وقد سجّلت السورة في مقطع آخر موقف المنافقين من الآيات الدّاعية إلى الجهاد وبذل النفوس والأموال في سبيل الله، فكانوا إذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها الدّعوة إلى قتال الكافرين أصابهم الهلع والجزع، ويردّ القرآن على حالتهم تلك بالموعظة والدّعوة إلى تدبر آيات القرآن والوعيد بالعاقبة الوخيمة والعذاب الأليم، والإنذار بقضحهم أمام سائر المسلمين بإخراج ما في سرائرهم وضمايرهم من أضغان، مبينًا أن المطلوب من المسلم في موضوع آيات القتال أن يعلن الطّاعة ويقول بلسانه قولاً معروفاً دالاً على صدق إيمانه، ثم يلتفت إلى المنافقين الذين يُبررون قعودهم عن الجهاد بتقاديهم ما ينجم عنه من خرابٍ للعمران وإهلاكٍ للحرث وقطعٍ للأرحام، ويخاطبهم بأسلوب استفهام منطوٍ على التوبيخ والتقريع بأنّه كيف سيكون حالهم لو صارت إليهم ولاية الأمور؟ مخبرًا عنهم بأنهم لاشكّ سينساقون وراء أهوائهم ورغباتهم، ولن يبالوا أن يُفسدوا في الأرض ويُقطّعو الأرحام في سبيل تحقيق أغراضهم الشّخصيّة ومصالحهم الدّنيويّة. ثم إنّه ينعى عليهم -مُعرضًا عن مخاطبتهم- تعاميتهم عن تدبر آيات القرآن الكريم التي تُبرّر قتال الكافرين بالاستناد إلى مبادئ الحق والخير ومصالح الإنسانية جمعاء^٣.

وأخبرت السورة عن قوم من المنافقين كانوا من ضعاف الإيمان، فلمّا توجّهت إليهم الدّعوة إلى القتال رجعوا إلى الكفر بأن حرك الشّيطان في نفوسهم مصالحهم وأهواءهم تجاه أوليائهم السّابقين من أهل الكفر حينما وُجد المُثير وهو دعوتهم إلى قتالهم، وعقبت بتهديد جميع المنافقين أن أمورهم لن تبقى خافية ومستورة كما يظنون، وأنذرهم بأن الله تعالى سيكشف حالهم للنبي صلى الله عليه وسلم ويُظهر أحقادهم على المؤمنين، وأتبع التّهديد بتلميح للمؤمنين يُميّزون به المنافقين عن الصادقين وذلك بوسيلتين: الأولى: التّقرّس في العلامات التي تظهر على وجوههم، وفي أعمالهم وتصرفاتهم، والثانية: ما يظهر في فلتات لسانهم وأساليب خطابهم فهم غالبًا ما يعدّلون عن التصريح بمقاصدهم إلى التّعريض والتّورية^٤. ثم ذكر الله تعالى للمؤمنين الغاية من تنبيههم إلى علامات

١ ينظر: تفسير البضاوي: ١٢٠/٥.

٢ ينظر: المحرر الوجيز: ١١٢/٥، تفسير القاسمي: ٥٣٧٨/١٥.

٣ ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ: ٦٦٥/١.

٤ ينظر: تفسير البضاوي: ١٢٤/٥، تفسير المراغي: ٧٢/٢٦، ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ: ٦٩٢-٦٩٤.

المنافقين أن يكونوا منهم على حذر في المعاملة لئلا يغتروا بهم، لا من أجل إدانتهم بالكفر مالم يُعلنوه^١.

خامس عشر: قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرِ مِنَّهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ١٢ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ١٣ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ١٦ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ١٧ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩ ... وَلَا يَأْتِلْ أُولَٰؤُا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالسَّكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٢ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[النور: ١١-٢٣]

هذه الآيات من سورة النور نزلت في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مما رُميت به، وكان ذلك في غزوة بني المصطلق في السنة السادسة للهجرة^٢، وتُجسّد آيات هذا المقطع التطبيق العملي لما خُتم به المقطع السابق من التحذير من شر المنافقين وعدم الانسياق وراء إشاعاتهم، إذ تدلّ الآيات أنّ ابتداء الإفك من المنافقين، ثمّ تسامع المؤمنون بعد ذلك وتلقّى بعضهم من بعض، فكانت واقعة الإفك غفلة وزلّة من المؤمنين، وانتقاماً من قبل المنافقين أرادوا به أذى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين^٣، وقد انطوت الآيات على جملة من الدروس والعبر الموجهة إلى المؤمنين تعائبهم، وإلى المنافقين تعظّمهم وتهدّدهم:

أ- لئن كانت بعض الحوادث تبدو في حيّز النّظر الإنسانيّ أمراً مكروهاً يؤثّر في نفس الإنسان همّاً وكدرًا، فإنّ علم الله تعالى المحيط يرشد الإنسان إلى أن يحكم على الأمور بالنّظر في مآلاتها وعواقبها، فكثيراً ما يستترّ الخير وراء الشرّ الظاهر، ولعلّ من وجوه الخير في حادثة الإفك

١ ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ: ٦٩٤/١.

٢ ينظر: المحرر الوجيز: ١٦٨/٤.

٣ ينظر: تفسير الماتريدي: ٥٣٩/٧.

أن ينكشف للنَّاس أمر الكائدين للإسلام، ويمتاز المنافقون عن المُخلصين، ومنها أن يُبين الله تعالى للمؤمنين الحكم العادل والمنهج القويم في معاملة أهل الفسق ليكون رادعاً لهم ولغيرهم عن تكرار الإثم الذي اكتسبوه، ومنها إعلان براءة فضلاء المؤمنين وتركيز سيرتهم، فلولا إشاعة الإفك لكان من المُحتمل أن تبقى التُّهمة كامنة في صدور البعض. ومنها استحقاقهم المثوبة لصبرهم على ذلك الغم مما جعلهم مثلاً حسناً للمؤمنين عند وقوع الظلم بهم^١.

ب- عتاب المؤمنين على موقفهم السلبي إزاء الشائعة، إذ تركوا واجب الإنكار، وكان حريّاً بهم أن يقيسوا الأمر على نفوسهم، فإذا كان يبعد فيهم فأولى أن يُبعدوه عن أم المؤمنين عائشة وصفوان لما يعرفونه من فضلهما وشرف سيرتهما^٢.

ج- تكذيب القاذف بغير بيّنة وزجره بإقامة الحدّ عليه ثمانين جلدة كما جاء في أول السورة، لانتهاكه حرمة عرض المسلم، وتصدير الآية (١٣) بـ (لولا) إيماءً إلى أنّ إثبات الإفك في حقّ أم المؤمنين ومن رُميت به غير ممكن بل مستحيل لمقام موضوع الافتراء، لما تفيدته (لولا) من التّحضير مع الاستبعاد^٣.

د- ذمّ المشاركين في تناقل الإفك بثلاثة أوصاف أدّت بهم إلى ارتكاب الإثم: الأول: السّعي في نشر الشائعات بين النَّاس، الثّاني: ترك التّثبت، والتّكلّم في الخبر بغير علم ولا دليل، الثّالث: استصغار المعصية والاستهانة بها وهي عزيمة عند الله تعالى، لما فيها من تعدّي على حرّمات الآخرين^٤.

هـ- تهديد الذين يقصدون نشر الأمور المُستقبحة فيما بين النَّاس بعذابٍ أليم في الدُّنيا والآخرة، وقد استهان النَّاس بهذا الإنذار، وغصّت مواقع التّواصل الاجتماعيّ اليوم بمثل هذه الموضوعات، يقول ابن عاشور (١٣٩٣هـ): "ولشّيوخ أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو بالكذب مفسدة أخلاقيّة؛ فإنّ مما يزع النَّاس عن المفاصد تهيبهم وقوعها وتجهّمهم وكراهتهم سوء سمعها، وذلك ممّا يصرف تفكيرهم عن تذكّرها بلّة الإقدام عليها رويداً رويداً حتّى تُنسى وتنمحي صورها من النفوس، فإذا انتشر بين الأمّة الحديث بوقوع شيء من الفواحش تذكّرتها الخواطر وخفّ وقّع خبرها على الأسماع، فدبّ بذلك إلى النفوس النّهاون بوقوعها وخفّة وقعها على الأسماع، فلا

١ ينظر: تفسير الرازي: ٣٣٨/٢٣، في ظلال القرآن: ٢٥٠٠/٤، التحرير والتنوير: ١٧٢/١٨.

٢ ينظر: المحرر الوجيز: ١٧٠/٤.

٣ ينظر: زهرة التفاسير: ٥١٥٩/١٠.

٤ ينظر: الكشف: ٢٧٦/٤.

تَلَبُّثُ النُّفُوسِ الْخَبِيثَةِ أَنْ تُقَدِّمَ عَلَى اقْتِرَافِهَا، وَبِمَقْدَارِ تَكَرُّرِ وَقُوعِهَا وَتَكَرُّرِ الْحَدِيثِ عَنْهَا تَصِيرُ مَتَدَاوِلَةً، هَذَا إِلَى مَا فِي إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ مِنْ لِحَاقِ الْأَذَى وَالضَّرِّ بِالنَّاسِ ضَرًّا مُتَفَاوِتِ الْمَقْدَارِ عَلَى تَفَاوِتِ الْأَخْبَارِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَلِهَذَا دُيِّلَ هَذَا الْأَدَبُ الْجَلِيلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي يَعْلَمُ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاسِدِ فَيَعْظُمُكُمْ لِتَجْتَنِبُوا، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَتَحْسِبُونَ التَّحَدُّثَ بِذَلِكَ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ ضُرٌّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

و- تَرْغِيبُ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الْأَذَى بِمَجَاهِدَةِ نَفْسِهِ وَتَرْكِهَا بِإِرْشَادِهِ إِلَى التَّرَفُّقِ مَعَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ بِالْأَذَى إِنْ كَانَ مِنْ أَرْحَامِهِ، فَلَا يَقْطَعُ بِهِ وَصْلَتَهُ مَعَهُ، بَلْ يَرْجِعُ مَعَهُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِحْسَانِ إِنْ كَانَ ذَا فَضْلٍ وَسَعَةٍ، وَيَتَغَاضَى عَنْ إِسَاءَتِهِ وَيَتْرَكُ مَعَاقِبَتَهُ فَيَجْزِيهِ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ مَغْفِرَةً وَرَحْمَةً.

وهذه الآيات وإن كان قد نزل معظمها في حقِّ المؤمنين العصاة، لكنَّ الروايات بيَّنت أنَّ الذي ترأس حديث الإفك هو زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، فهو الذي تولى بثُّه أولاً بين جماعته، ولم يثبت أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام عليه الحدَّ، ولعلَّه كان يبيِّثُ مقالاته سرًّا بين المنافقين، ولم يُصرِّح بها أمام من يشهد عليه شهادة شرعيةً بأنَّه قاذفٌ، بخلاف الذين أُقيم عليهم الحدُّ، فقد أُدينوا بأقوالهم بمقتضى الشُّهود الذين شهدوا عليهم^١.

سادس عشر: قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ. وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ غَيْرُ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النِّقَوى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]

تذكر هذه الآيات ما كان من امتنان الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذ كفَّ أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر النبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية يلتمسون غرَّتهم ليصيبوا منهم، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فأتى بهم أسرى ثم منَّ عليهم ولم يقتلهم، وبيَّنت الآية الثانية بأنَّ الكفَّ من الله تعالى ليس من أجل صون دماء المشركين، فهم قد كفروا وصدُّوا وأخَصَّروا وكلُّ ذلك يقتضي قتالهم، فلا يقع لأحدٍ أنَّ الفريقين اتَّفَقوا واصطلحوا، وإنَّما تظهر

١ ظاهرة النفاق وخباثت المنافقين في التاريخ: ١٢/٢.

مصلحة الكفّ في الحفاظ على من تبقى في مكّة من المؤمنين والمؤمنات ليخرجوا منها، بحيث يدخل الجيش الإسلامي إلى مكّة لاحقاً على وجه لا يكون فيها إيذاؤهم^١.

سابع عشر: قوله تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١) فسيحوا في الأرض أربعة أشهر وأعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين^(٢) وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم^(٣) إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئاً ولم يظهروا عليكم أحداً فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين^(٤) فإذا انسحبت الشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله عفور رحيم^(٥) وإن أحد من المشركين استجارك فآجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون^(٦) ... ألا تفتنلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴿[التوبة: ١-١٣]

تعدّ سورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن، ممّا يعني أنّها تضمّنت معالجة حاسمة لمشكلة الاعتداءات المتكررة على المؤمنين من قبل أعدائهم المشركين، ويبدو من موضوع سياق الآيات أنّها نزلت في مشركين كانوا محاربين للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم قامت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهود مؤقتة أو مطلقة فكان منهم من نكث ومنهم من استقام^٢، فنزلت آيات سورة براءة تنذر الناكثين منهم بحرب مفتوحة تسبقها مهلة أمان محدّدة لكي تمنحهم فرصة أن يستدركوا خطأهم، ثم تستثني السورة قوماً من المشركين المعاهدين لم ينقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ولم يظاهروا عليه عدواً فأمرت بإتمام العهد لهم^٣، وتعود في الآية التالية لبيان حكم من نقض عهده بعد انتهاء المهلة^٤، فأمرت المسلمين أن يفعلوا بهؤلاء المشركين فعلاً يكفل إضعافهم وكسر شوكتهم، فإمّا أن يقتلوه أو يأبسروهم أو يحاصروهم إن تحصّنوا أو يترصدوا بهم فلا يجد المشركون لهم ملاذاً حينها إلا الاستسلام لحكم المؤمنين، قال ابن عطية (٥٤٢هـ): "قوله فاقتلوا

١ ينظر: تفسير الطبري: ٢٩١/٢١، تفسير الرازي: ٨١/٢٨-٨٢.

٢ ينظر: تفسير الطبري: ٣١١/١١، تفسير البيضاوي: ٧٠/٣.

٣ ينظر: تفسير الطبري: ٣٤٢/١١، تفسير الماتريدي: ٢٩٠/٥.

٤ ينظر: الكشاف: ١٣/٣، تفسير البيضاوي: ٧٢/٣، تفسير النسفي: ٦٦٤/١، تفسير أبي السعود: ٤٣/٤.

المشركين وخذوهم واحصروهم أفعال إنما تمتثل مع المحارب المرسل المناضل^١، ويظل الحال معهم هكذا ما داموا مستمرين في طغيانهم وعدوانهم وانتهاكهم لحدود الله تعالى، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة كان أماناً لهم من التعرض لهم بسوء^٢، وتُرشد الآية المسلمين إذا أخذوا المشركين ألا يبادروهم بالقتل بل يدخلوا معهم في حوار جديد حول التزامهم بالإسلام وتراجعهم عن الشرك فإذا أذعنوا وتراجعوا عمّا هم فيه فلا سبيل لهم عليهم^٣. أمّا أفراد المحاربين فإنّهم يُعطوا الأمان إذا طلبوه لسماع كلام الله تعالى، وإن أصرّوا على كفرهم يتصدّى الإمام لحفظهم ومنع الناس من تناولهم بشرّ، ثم يرُدّهم إلى دار الحرب إلى حيث يأمنون على أنفسهم^٤، وتأمّر الآية السابعة بالاستقامة على عهد من وقى به من المشركين وإن انقضت المدة^٥، وتستنكر أن يبقى عهد الله تعالى ورسوله مع من لا يستحقّه لمجاهرتهم بالنّعديّ، أو أنّها تستبعد أن يثبتّ على العهد من أضمر الغدر^٦، إذ لو تمكّن هؤلاء المشركون على المؤمنين لم يراعوا معهم حلفاً ولا قرابة ولا عهداً مهما وعدوا بخلاف ذلك، لأنّه لا مروءة لهم تمنعهم عن الخيانة والكذب^٧، فهم المعتدون المجاوزون الحدّ في الظلم والشرّ ونقض العهد^٨، ذوو الرئاسة والتّقّدّم في الكفر، ومن ثمّ كانوا أحقّاء بالمقاتلة، كيف لا وهم البادئون بالمعاداة والقتال، والبادئ أظلم^٩.

ثامن عشر: قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]

المقصد من هاتين الآيتين في سورة التوبة إرشاد المؤمنين وتعليمهم خطّة المواجهة وقواعد القتال مع المشركين، والمتمثلة بما يأتي:

- ١ المحرر الوجيز: ٨/٣.
- ٢ ينظر: المحرر الوجيز: ٨/٣.
- ٣ من وحي القرآن: ٢٦/١١.
- ٤ ينظر: أحكام القرآن، الجصاص: ٢٧٣/٤.
- ٥ ينظر: تفسير الماتريدي: ٣٠٤/٥.
- ٦ ينظر: المحرر الوجيز: ٩/٣، تفسير الرازي: ٥٣٢/١٥.
- ٧ ينظر: تفسير النسفي: ٦٦٦/١.
- ٨ البحر المحيط: ١٦/٥.
- ٩ ينظر: تفسير البضاوي: ٧٣/٣.

أولاً: اجتماع الكلمة ووحدة الصفِّ بأن يتعاونوا ويتناصروا على قتال الأعداء مؤتلفين غير مُفترقين، كما هو شأن المشركين في قتالهم المؤمنين^١.

ثانياً: البدء بالعدوِّ المجاور الأقرب داراً، وقد كانت الدَّعوة موجَّهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار، والحقُّ أنَّ ترجيح البدء بالأقربين معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والإمكان والثَّقة والسهولة، كما أنَّ الأقرب أحقُّ بالاستصلاح، فضلاً عن أنَّ مقابلة جميع الكفار في القتال دفعة واحدة متعذِّرة^٢.

ثالثاً: إظهار الشِّدة التي تُرهب العدوَّ، والتَّحلي بالجرأة والصَّبْر على القتال، ويُمكن فهم مدلولها من خلال قوله تعالى ﴿أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ونظَّم الآية الثانية يُرشد إلى تقليل الغلظة وإظهارها في موضعها المناسب، كأنَّ تكون في إقامة الحُجة وإدانة الخصم، أو في مقام القتال، أمَّا في البيع والشِّراء والمجالسة والمؤاكلة فلا^٣.

تاسع عشر: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]

أجملت هذه الآية منهج التَّعامل مع الكافرين سواء كانوا مُجاهرين أو منافقين، فأما المجاهرون فقد فصل القرآن كيفية معاملتهم في السُّورة نفسها، وفي كثير من السُّور سابقة النزول -تناول هذا المطلب دراسة نماذج منها-.

أما المنافقون فدلت مجموع الآيات التي تناولت سيرتهم بالذَّمِّ والتَّهديد والتَّحذير أنهم يُجاهدون بكافة الوسائل المشروعة التي تؤدِّبهم وترجزهم باستثناء الجهاد الحربي، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد استقصى معهم كافة أساليب الملاينة كالموعظة الحسنة والصفح عن الإساءة والإعراض عن الزَّلات والتَّساهل معهم والاستغفار لهم فما زادهم الإحسان إلا جرأة ولؤماً، فاستوجبوا المعاملة الغليظة.

ولم تكن سورة التَّوبة هي السُّورة الوحيدة التي تولَّت فضح المنافقين وكشف أسرارهم، فما انفكَّ القرآن المدني منذ بداياته يُخبر عنهم ويُندد بسوء أعمالهم وخبت طويَّتهم ويحذِّر المؤمنين من الانسياق وراء أكاذيبهم والتأثُّر بشبهاتهم، إلى أن كادت ظاهرة النِّفاق تتلاشى وتندثر قبل الفتح،

١ ينظر: تفسير الطبري: ٤٤٨/١١، تفسير الماتريدي: ٣٦٧/٥، تفسير الرازي: ٤٤/١٦.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ١٧٣/١٦، تفسير البيضاوي: ١٠٢/٣، تفسير المنار: ٨١/١١.

٣ ينظر: تفسير الرازي: ١٧٣/١٦-١٧٤.

ولكن بعد أن فُتحت مكة دخل أناسٌ في الإسلام لأسباب دنيويّة دون أن يستقرّ الإيمان في قلوبهم، وبقيت آثار الجاهليّة لها وزنها في تحريك طباعهم واتجاهاتهم وأفكارهم^١، فجاءت سورة التوبة تُقَوِّض أركان النِّفاق وتجتثُّ جذوره، واستغرقت المعالجة لهذه الظاهرة في السُّورة أكثر من نصفها، تؤكد ما قرّرتَه في سور سابقة وتضيف عليه ما يتناسب مع المستجدّات الطَّارئة.

وتصوّر سورة التوبة -وغيرها من السُّور المدنيّة- المنافقين وقد أَظْلَمَتْ قلوبُهم بَعْلَقهم منافذ هدايتها، فأطبق عليها الكفر ولم تُعُدْ تتأثّر بالزَّواجِر^٢، كما أظهر القرآن سعيهم وراء رغباتهم وتنافسهم على الدُّنيا ممّا أورث فيهم بُخلًا وجُبْنًا^٣، وكان ابتداءُ جبْنهم منذ أن ظهر أمر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة فلم يجترئوا على إعلان كفرهم خوفًا من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، كما لم يقبلوا الإقرار بالإسلام دينًا؛ حِرْصًا على مصالحهم، فأعلنوا إسلامهم ظاهرًا وأضمرُوا كفرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وعداوتهم للإسلام والمسلمين، لكنّ الوحي كان لهم بالمرصاد فتصدّى لكشف أسرارهم، وتنبيه المؤمنين على فساد أقوالهم وأفعالهم المُنبِئَة عمّا في دواخلهم^٤.

ومن أبرز مظاهر النفاق التي أخبر عنها القرآن^٥: تعلُّهم بالأعذار الكاذبة وتوثيقها بالإيمان الفاجرة لتسويغ فرارهم من مواطن الجِدِّ والجهاد^٦، وإشاعةُ الفتنة في صفوف الجيش الإسلامي متى وُجِدوا فيه^٧، وكراهِتُهم الخير للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومحَبَّتُهم السُّوء لهم^٨، وطعنُهم بالنبي صلى الله عليه وسلم من خلال مقولاتهم وتعبيراتهم النَّفْسِيَّة، وإِتِّهامُهم له تصديق كلِّ ما يُقال له، وإِتِّهامُهم أيضًا مجانبته العدل في توزيع الصَّدقات^٩، ومنها استهزاؤهم بتعاليم الإسلام فيما بينهم، واعتذارُهم عن ذلك بأنَّهم لم يكونوا جادِّين فيما ينطقون به من سوء^{١٠}، وسخريَّتُهم من فقراء المؤمنين لأنَّهم يتصدَّقون بالقليل الذي لا يملكون سواه^{١١}، ونقضُهم للعهود وبخلُهم بما آتاهم الله من

١ التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي: ١٩٢/٦.

٢ البقرة: ١٠، التوبة: ٤٥، ١٢٤-١٢٦.

٣ المائدة: ٥٢، التوبة: ٥٤، ٦٧، النور: ٥٠، الأحزاب: ١٢، محمد: ٢٠.

٤ التوبة: ٥٦-٥٧.

٥ ينظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي: ١٨٨/٦.

٦ الأحزاب: ١٣، التوبة: ٤٢، ٤٩.

٧ التوبة: ٤٦-٤٧، ٨١، ٨٦، ٩٤-٩٦.

٨ آل عمران: ١٢٠، التوبة: ٥٠.

٩ التوبة: ٥٨، ٦١.

١٠ التوبة: ٦٤-٦٥.

١١ التوبة: ٧٩.

فضله^١، وتعاطفهم فيما بينهم وتعاونهم على الإثم والعدوان، وأخيرًا اتّخاذهم مسجدًا لهم من أجل المضارّة وإيذاء المسلمين ومحاولة تفريق كلمتهم^٢.

وقد حَمَلَت آيات أخبارهم في طيّاتها ردًّا عليهم وإرشادًا للمؤمنين إلى كيفية معاملتهم في كل زمان ومكان وجدوا فيه، من ذلك:

١- إيقافهم عن اختلاق الأعذار وتلفيقها، وعدم قبولها منهم من غير تبين لأحوالهم لمعرفة مدى صدق ادّعاءاتهم أو كذبها.

٢- إغلاظ القول لهم إذا حاولوا العبث بدين الله تعالى وأحكامه أو تخذيل المؤمنين، وعدّ استهزائهم بالله ورسوله وآياته تصرفات تدين بالكفر.

٣- استبعاد المنافقين والمرجفين والمتخاذلين وضعاف الإيمان في المواقف الحاسمة، لنلّا يعكس وجودهم ضعفًا ووهنًا وتفرُّقًا.

٤- التَّمَنُّع بحصانة فكريّة ونفسية ضدّ تصنُّعهم ودسائسهم لاجتناب التأثر بها والاعتذار بما يبدو من حُسْنها.

٥- تخويفهم برقابة الله تعالى لهم، وما ربّيه من عقوبة على أفعالهم، فقد أُنذَرَ الله تعالى المنافقين والمنافقات عذابًا خالدًا في النَّار لا يسكن ولا يُفَنَّر ولا تُدْرِكُهم فيه رحمته تعالى.

٦- بيان الموقف المحمود في استقبال أقدار الله تعالى وما قسم لعباده مقابل ذمّ ردود أفعالهم المفاجئة والمُنْبِئَة عن سخطهم وتذمُّرهم.

٧- تعليم عامّة النَّاس ما شرعه الله لهم من أحكام، وهدايتهم إلى بعض أسرار حكمتها.

٨- مقايضة أحوالهم بأحوال سابقينهم للاعتبار بما آل إليه حالهم.

٩- إغراؤهم بالتَّوبَة وحثُّهم على إصلاح مُعْتَقِدِهِمْ ليفوزوا بالجنّة مع أهل الإيمان.

١ التوبة: ٧٥-٧٦.

٢ التوبة: ١٠٧.

المبحث الثاني

الأبعاد المتصلة بأسلوب المواجهة الحسيّة

يتبيّن من دراسة النصوص السابقة أنّ طريقة القرآن في دفع الأذى بالوسائط الحسيّة من خلال أوامره ونواهيه وردوده على الكافرين تتأى عن كونها مجرد عملية انتقاميّة تشفي غليل المؤذى وتردّ اعتباره، على العكس من ذلك فهي تستهدف بالدرجة الأساس إصلاح واقعة الأذى والارتقاء بأطراف الواقعة فكرًا وسلوكًا، ويُلاحظ في هذا السّياق أن باب التراجع وقبول التوبة مفتوح في معظم السياقات والحالات، بينما تغدو مقابلة العدوان بمثله مقيّدة ضمن شروط وقواعد تحدّها وتضبطها، حتى إنّّه -بحسب النصّ القرآني- يعدّ الإسراف في الانتصار على المعتدي ظلمًا لا يقلّ عن ظلم البادئ بالعدوان.

وفي ضوء ما تقدّم يمكن استحضار الأبعاد المحيطة بعملية المواجهة الحركيّة المباشرة من أجل فهم أسلوب القرآن في التعامل مع ظاهرة الأذى، وهي ثلاثة:

- ١- البعد العقدي أي التوجيه الرباني الذي يهتمّ بتعميق الصّلة بالله تعالى.
- ٢- البعد النّفسي وأساسه ضبط النّفس التي تتعرّض للأذى والارتقاء بها.
- ٣- البعد الاجتماعي وأساسه تقويم المتسبّب بالأذى وإصلاح حاله.

المطلب الأول

التوجيه الرباني لتعميق الصلة بالله تعالى

اتَّجَهَتْ عناية الوحي في العهد المكي إلى تقرير أصول العقيدة الصحيحة؛ بهدف تثبيت الإيمان في قلوب المسلمين، وإبطال أوهام الكافرين وتصحيح تصوراتهم عن الله تعالى ووحدانيته. كما اهتمَّ بتعزيز الجانب الأخلاقي، فأقرَّ كثيرًا من الأخلاق العربية السائدة آنذاك وأصلح منها ما داخله الخلل والانحراف.

ولمَّا كانت الدعوة الإسلامية مغايرة في مضمونها العقدي عمَّا هو مألوف عند الزعماء وأصحاب النفوذ والقوَّة فقد ووجهت بمعارضة شديدة تزايدت حدَّتها تدريجيًّا بازدياد عدد أتباعها.

وبما أنَّ معظم المؤمنين بها كانوا من الفئة المستضعفة الواقعة تحت حكم الزعماء المشركين، فقد نالهم كثير من الأذى والعذاب من قِبَلِ أهلهم ورؤساء قبائلهم، ولم يكن من الحكمة أن يجابه المؤمنون الأذى مهما كانوا يتمتَّعون به من قوة إيمانيَّة وجسديَّة؛ لأنَّهم حينئذ قلَّة، ولمَّا تتوفَّر لهم بيئة مواجهة عادلة، ولهذا فإنَّ غيرتهم على الدعوة ومدافعتهم عنها بالوسائل الحسيَّة من شأنه أن يهدِّد أمنها ويقلِّل من إمكان استمراريتها.

وبناء على هذه الحال فإن القرآن الكريم كان يتنزَّل حينها بما فيه تسليَّة للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وتثبيت لهم على الحق، وبما يجعل جهادهم الكفار خالصًا لله تعالى، وقد برز ذلك من خلال ما يأتي:

١- تكرار الأمر بالتقوى واتِّباع الوحي، ليرسخ في أذهانهم أنَّ الأذى إنَّما يندفع بالاستقامة قبل المقاومة.

٢- الالتجاء إلى الله تعالى وسؤاله النَّصر على الأعداء والاعتقاد الجازم بأنَّ الله تعالى بيده الخير، وهو وحده الذي يملك كشف الضُّرِّ عنهم.

وفي أواخر العهد المكي شرع المؤمنون بالهجرة وأخذوا يتهيَّؤون للاستقرار في موطنهم الجديد حيث يقيمون فيه شعائر دينهم بحريَّة ويُعدُّون العدة لإنشاء دولة إسلاميَّة محصَّنة، وكان ربَّما تسلَّل

إلى بعض نفوسهم الرغبة في القتال انتقاماً من الأعداء الذين أذاقوهم أشد أنواع الأذى، فنزلت آيات من سورة الحج تذكّرهم بأمرين لا ينبغي أن يغيبا عن أيّ مؤمن صاحب رسالة:

الأول: أن ما لاح لهم من بوادر الفرج إنّما هو بفضل الله تعالى، وعليهم أن يكونوا مرتبطين به دائماً.

الثاني: أن الغاية من الجهاد الحسبي الدفاع عن الدين وأهله وحماية الحقوق وإعمار الأرض ونشر الفضيلة ومنع الرذيلة.

ومع بداية العهد المدني والإذن بالقتال بل والأمر به كان عنصر التقوى أبرز ما ركزت عليه سورة البقرة وهي تشجّع للمؤمنين أحكام الجهاد، في إشارة إلى أن المقاومة مع أهميتها ووجوبها لا ينبغي أن تغفل الاستقامة أو تتناساها، بل إنّ المقاومة جزء من الاستقامة وتابع لها؛ لأنّ الاستقامة تعني أن التزم بديني وأحفظه من أيّ اعتداء؛ وعليه فإنّ الاستسلام لفتنة الكافرين تقريظ بالدين وتضييع له، وهذا مستوجب للعقوبة الشديدة من الله تعالى.

من العناصر المهمة أيضاً التي اعتنى بها القرآن الكريم في مجال البعد العقدي تعليق شعور المؤمن بالله تعالى، بأن يتشوّف لبلوغ معيته ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤، التوبة: ٣٦، التوبة: ١٢٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣، الأنفال: ٤٦] ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، وأن ينسب إليه الفضل في كلّ حركة ودفاع ﴿وَلِكَيْتَ اللَّهُ فَتْلَهُمْ﴾ ﴿وَلِكَيْتَ اللَّهُ رَحْمَى﴾ [الأنفال: ١٧] ﴿اللَّهُ مُهِينٌ كِيدَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨] ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصُرُوءٍ﴾ [الأنفال: ٦٢] ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأحزاب: ٢٥] ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤] وعليه فإنّه لا بدّ للمؤمن أن يستمدّ قوّته من تأييد الله تعالى له؛ لأن الله تعالى هو ﴿مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [محمد: ١١].

وإن كان لسائل أن يسأل ما دام الله تعالى هو الفاعل الحقيقي فلم على المؤمنين أن يقوموا بواجب الجهاد؟ والإجابة موجودة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْصَرَمْنَهُمْ وَلَكِنْ لِبَلَوِاْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] فكما أنّ الشرّ في نظر الناس ابتلاء لهم فكذا التّكليف برفعه جزء من الابتلاء الذي أراد الله تعالى أن يختبر به عباده ليميز الصادق من المنافق.

وفي السّياق نفسه يهتمّ القرآن الكريم بتصحيح نظرة الناس للمكروهات سواء كانت شرّاً واقعاً أو عملاً واجباً وينبّه إلى أنّ الخير مخبوء في المكروه، ويثني في بعض المواضع على مواقف

المؤمنين الصادقين الذين يتلقون البلاء بقلوب راضية، مستبشرين بوعده الله تعالى إياهم بالنصر غير متأثرين بأقوال المرجفين ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وهو يردُّ على المنافقين الذين يرون في القعود عن الجهاد وقاية لهم من الموت بأن الآجال مسمّاة، ولن يؤخّر الله نفسًا إذا جاء أجلها.

المطلب الثاني

الإعداد النفسي

سبق بيان أنّ البيئة المكية قبل الهجرة لم تكن مهیئة لقيام فريضة الجهاد الحسي فيها، ومن ثمّ توجّهت عناية القرآن الكريم إلى تربية النفوس المؤمنة على فضيلة الصبر بما تحمله من مقاومة داخلية للأذى وسكون ظاهري تجنّباً لعواقب سيئة، كما أنّ تدريب النفوس حينئذ على الصبر من شأنه أن يميّن المؤمنين من امتلاك زمامها لاحقاً إن سنحت لهم فرصة المقاصة من أعدائهم المشركين.

والى جانب الصبر تطلّ المدافعة القولية سلاحاً مسلطاً في وجه الظالمين في كل وقت، فالآيات المكيّة كانت حافلة بالتنديد بمقولاتهم، والحجج والبراهين على بطلان معتقداتهم، والنذر بالعقوبات العاجلة والأجلة على تطاول أسنتهم وسوء فعالهم.

وبناء عليه كانت مجاهدة الأذى في مكّة نفسيّة مرتبطة بقدرة المؤمن المبتلى على الثبات في وجه الباطل مهما زاد بطشه وسطوته.

وعلى الرغم من وجود بعض الآيات المشرّعة للمدافعة في العهد المكي تبيح المدافعة، فإنّها تُحمّل على حالة الاعتداءات الفردية، ومع هذا فيلاحظ أنّ هذه الآيات في أوائل العهد المكي تُرَجِّح جانب الإصلاح بالعفو، وتختار الصبر على المقاصة، وتُربِّغ في الإحسان، وتحدّر من سوء منقلب الظالمين؛ فإن لم يكن بُدّ من المقاصة فعلى المقتصر أن يتوخّى أمرين؛ الأوّل: ألاّ يسرف في أخذ حقّه، والثّاني: ألاّ يؤوّل استرداد حقّه إلى وقوع ضرر أكبر.

ثمّ في أواخر العهد المكي أخذت الآيات المبيحة للمدافعة بالوسائل الحسيّة تتّجه نحو الترغيب فيها مع التّنبية على أنّ المدافعة لا تكون بالتّشهي أو التّمني، ولا بدّ من الاجتهاد في بذل الأسباب التي أناط الله تعالى حصول النصر بها.

أمّا في العهد المدني فقد تقدّم الخطاب القرآني في مجاهدة النفوس خطوة، تجلّى ذلك من خلال:

- ١- الأمر بالثبات في وجه العدو والتحذير من الفرار وإنذار الفارين بالعقوبة الشديدة.
- ٢- الحثُّ على بذل المال والإنفاق في سبيل الله تعالى من أجل تحسين عملية المدافعة.
- ٣- التأكيد على غاية المدافعة أن تكون من أجل تأمين الحرية الدينية والانتصار من الظالم ونصرة المظلوم، وأن تتأى عن الأهواء النفسية والمصالح الشخصية وألا تقوم على أساس الثأر والحمية.
- ٤- صدق العزيمة واستقصاء الوسع في المدافعة ونبذ الاستسلام، والحذر من التراخي بعد الهزيمة، وتوطين النفس على أن الأيام دول؛ لذا على المؤمنين أن يجعلوا من الهزيمة خطوة على طريق النصر؛ بأن يبحث في أسبابها ويستدركوا مواطن الخلل فيها.
- ٥- تعويد النفوس على مقابلة السيئة بالحسنة في حالات الاعتداء على ما سوى الدين والنفس ومصلحة الأمة.
- ٦- تصحيح موازين القوة بين الفريق المؤمن والفريق الكافر؛ من خلال التعويل على صدق الأفراد المدافعين لا عددهم، والاعتداد بالقوة الإيمانية، وتقليل الاعتبار بالمظاهر المادية -مع أهميتها-.

المطلب الثالث

البعد الاجتماعي

تتدرج مجموع النصوص المبيحة لأسلوب الدفع بالوسائل الحسبيّة تحت قاعدة الضرورة تقدّر بقدرها، فالقرآن الكريم يعدّ حالة السّلم هي الأصل، والقتال حالة طارئة تقوم عندما يحفّ بالسّلم ما يهدّده.

ويتّضح من المطلب الأول أنّ الوحي في العهد المكيّ يُخيّر من وقع عليه الأذى بين أمرين؛ إما الإقدام على الردّ مع مراعاة المماثلة، أو الإحجام عن الردّ وسلوك طريق العفو أو الإحسان، بمعنى أرجع إليه القرآن الكريم أن يقدر العلاج المناسب لحالة الإيذاء بحسب الجاني المتسبّب بالأذى.

وفي مراعاة القرآن الكريم لحال الجاني فرصة له أن يستخرج بذرة الخير الكامنة فيه وينميها، وذلك عندما تستجيب نفسه لداعية الإحسان، فيتوب عن خطئه ويصلح ما أفسده، وقد يسيء الجاني إلى نفسه ويعمل على تدسية نوازع الخير فيها فتزداد جرأته على الأذى بسكوت المؤذى، فيستوجب حينها العقوبة الرادعة.

ومع بدايات العهد المدني حيث ابتدأت آيات الحضيّ على القتال تترى، لم يكن المغزى من الإذن بالقتال الإعلان عن حرب دموية مستمرة مع الأعداء تستنزف الطاقات والموارد، وإنّما كانت تستهدف أن يكون الصّفّ المؤمن مستعدّاً متأهبّاً لردّ أي عدوان طارئ، كما تستهدف الصّفّ الكافر لترهبه وتكسر شوكلته.

وإذا كان القرآن المكي قد تركّزت عنايته على التحذير من الظلم في المقاصّة ومجاوزة الحدّ في استرداد الحقّ، فإنّ القرآن المدني قد أسهب في بيان القيود الحافة بمنهج المواجهة:

- ١- في حال استهداف الجماعة المسلمة لابدّ لهذه الجماعة أن تقف يدًا واحدة لردّ العدوان تحت راية ولي الأمر، وأن تكون مدافعتها على أساس من التّنظيم والتّشاور والتّأزر.
- ٢- أن تستهدف المواجهة قتال الأعداء المحاربين، ولا مانع من إهدار دم المعتدين المتجاوزين الحدّ في الظلم والشرّ ونقض العهد بأن يُقتلوا حيث ظفر المؤمنون بهم.

٣- ترهيب ناكثي العهود وإنذارهم بعقوبات شديدة بحيث تكون رادعة لهم ولمن يريد أن يحذو حذوهم.

٤- معاملة المنافقين الناكثين للعهد معاملة مختلفة عن الناكثين من المشركين وأهل الكتاب، وتكون معاقبتهم في حدود الإنذار بعقوبة الله تعالى، أو الإنذار بالفضح والتشهير، وقد تقتضي بعض الحالات والمواقف إنذارهم بعقوبة حاسمة تأسيًا بمنهج القرآن الكريم، فقد أُنذِرهم بالقتال في موضعين.

٥- الاقتصار في التعامل مع المنافقين غالبًا على التنبيه إلى خفايا مكرهم.

٦- إرشاد المؤمنين إلى إظهار الغلظة في مجاهدة الكافرين في ساحة الحرب، وإقرار الخطط والأساليب الحربية المشروعة التي تكفل إرهاب العدو ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابَ حَتَّى إِذَا انْخَسَمُوا فَشَدُّوا أَلْوَابَهُمْ﴾ [محمد: ٤] ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] والتَّحْذِيرُ من اتِّبَاعِ الأساليب غير المشروعة كالاعتداء ابتداءً أو المجاوزة في المقاصَّة أو مقابلة الخيانة بخيانة، فالغاية النبيلة لا تبرر الوسيلة المُحَرَّمَة.

٧- قبول الميول السلمية من الأعداء المحاربين، والكفُّ عن قتالهم طالما كانوا ملتزمين بالعهد.

٨- رعاية الحرمات ما أمكن، وخاصة حرمة النفس الإنسانية، فلا مبرر للقيام بحرب إبادة يذهب على إثرها أفرادٌ وجماعات ليس لها على القتال طاقة ولم يظهر منها مواقف معادية، ومن باب أولى أن تكون هذه الفئات من الجماعة المسلمة الواقعة تحت حكم الكافرين.

٩- تبقى الدعوة إلى دين الله تعالى قائمة في كل موقف، وباب التوبة مفتوحًا في كل لحظة، وحالة المواجهة تتوقف بحصول الغاية المتمثلة في الإصلاح واستتباب الأمن.

الفصل السادس

دفع الأذى بأسلوب التجنب

التجنب أصله من الجنب وهو شق الإنسان وغيره، ثم استُعير للتعبير عن التَّحِيَّة والبُعد، مقابل الاستقبال بالوجه، كأنه جَعَلَ الشَّيْءَ في جنبه وانصرف عنه، ورجل ذو جَنْبَةٍ أي اعتزال، والتَّجَنَّبَ على وزن التَّفَعَّل، ومن معاني هذا الباب: المُطَاوَعَة والتَّكَلُّف والطَّلَب والتَّكَرُّر والدَّوَام، وكلُّها تتناسب في موضوع التَّعامل مع الأذى عندما توجد موانع مواجهته.

والموانع إمَّا أن تقع في جهة الأشخاص الذين تعلَّقت بهم ظاهرة الأذى، أو في جهة الطُّروف المحيطة بواقعة الأذى، فمن الأوَّل أن يكون المؤذي ضعيفًا أو مغلوبًا تحت حكم المؤذي، أو يكون المؤذي ممَّن تُغريه المواجهة لاستمرار أذاه والمبالغة فيه بينما قد يؤثر فيه التَّعاضِي فيحمله على الإحجام. ومن الثَّاني: أن يكون الطَّرَفَان مؤهَّلَيْن للمواجهة لكنَّ بيئة المواجهة وعُدَّتْهَا غيرُ متوقِّرة.

وقد يتبادر إلى الذَّهن أنَّ تجنُّب الأذى مع غير المؤمنين كان خصيصة من خصائص المرحلة المَكِّيَّة حين كان المؤمنون قَلَّةً تحت حكم سادات قريش وزعمائها، وما إن هاجروا حتَّى أصبحت المواجهة هي الطَّريقة الوحيدة للتَّعامل مع ظاهرة الأذى، بَيِّدَ أنَّ استقراء ألفاظ القرآن الكريم المتَّصلة بترك الأذى تنفي هذا الظَّنَّ، وتؤكد أنَّ تعميم علاج الأذى بالنَّظر إلى توفُّر مقومات المواجهة فقط لا يحقِّق الثَّمرة المرجوَّة من المدافعة، وأنَّه لا بدَّ من دراسة كلِّ حالة على حدة.

وسيتناول الفصل دراسة هذا الأسلوب من خلال التَّعرُّف إلى دلالات الألفاظ القرآنيَّة المتَّصلة

بتجنُّب الأذى

١ ينظر: مادة (جنب) العين: ٢٦٢/١، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده: ٤٦٠/٧، ٤٦٢، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة: مج ٢، ٥٦٨/١، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١٣٣/٢-١٣٤، المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٦٨/١٠.

المبحث الأول

دلالات الألفاظ المتصلة بتجنب الأذى في القرآن الكريم

أسفَرَ استقراء المفردات القرآنية المتَّصلة بتجنُّب الأذى عن إحصاء عشر مفردات مرتبطة بمفهوم التَّجنُّب، وهي -بحسب الترتيب الهجائي لمادَّتها-: التَّرك، الخروج، الدَّهاب، الإعراض، الاعتزال، الفراق، الهَجْر، الوَدْع، الوَذْر، التَّوَلَّى. حيث سيتمُّ في هذا المطلب التَّعرُّف إلى معناها اللُّغوي والاستعمالي بإجمال، ثمَّ دراسة الآيات التي يتبادر ارتباطها بالبحث لبيان مدى قوَّة الارتباط أو ضعفه، وما تضيفه إلى البحث من أبعاد جديدة.

المطلب الأول

التَّركُ

يُطْلَق التَّركُ على معنيين؛ الأول: مفارقة ما يكون الإنسان فيه^١، ومن مصاديقه في القرآن: الإرث الذي يَخْلُفه الإنسان لِمَنْ بعده^٢، والثاني: عدم التَّعرض للشيء عن اختيار من غير دخول فيه^٣، وقد وردت مادة التَّرك في القرآن سبعاً وثلاثين مرّة، ولكنها لم تأت في سياقات تجنُّب الأذى.

المطلب الثاني

الخروج

الخروج نقيض الدُّخول، وهو النِّفاذ عن الشيء، وَخَرَجَ مِنْ مَقَرِّهِ خُرُوجًا بَرَزَ، وَأَخْرَجَهُ إِخْرَاجًا وَمُخْرَجًا أَبْرَزَهُ، ويكون في الأعيان والمعاني^٤.

جاء الخُروج في الاستعمال القرآني المرتبط بموضوع البحث على أربعة معانٍ:

الأول: إخراج غير المؤمنين للمؤمنين إيذاءً، إمّا حقيقة أو على سبيل التهديد، ومنه إخراج المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكّة^٥؛ بمعنى أنّهم تسبّبوا بخروجهم عندما أساءوا معاملتهم للمؤمنين وساموهم أشدّ أنواع العذاب، وتأمروا على إطفاء نور الدّعوة الإسلامية بقتل النبي صلى الله عليه وسلم أو نفيه. ومنه أيضاً تهديد الأقوام السابقة لأنبيائهم بالنّفي إن لم يكفّوا عن دعوتهم^٦، ومنه تهديد المنافقين للمؤمنين بإخراجهم من المدينة^٧.

١ الغريبين في القرآن والحديث، الهروي: ٢٥٤/١.

٢ النساء: ٩، الدخان: ٢٥.

٣ ينظر: الغريبين: الموضع نفسه، تفسير الرازي: ٤٥٦/١٨. يراجع: يوسف: ٣٧، الكهف: ٩٩، الحشر: ٥.

٤ ينظر: مادة (خرج) العين: ٣٩٦/١، مقاييس اللغة: ١٧٥/٢، مفردات الراغب: ٢٧٨، معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ٣٢٣/١.

٥ البقرة: ٢١٧، آل عمران: ١٩٥، الأنفال: ٣٠، التوبة: ١٣، الإسراء: ٧٦، الحج: ٤٠، الممتحنة: ١، ٩.

٦ الأعراف: ٨٨، إبراهيم: ١٣، الشعراء: ١٦٧.

٧ المنافقون: ٨.

الثاني: خروج المؤمنين من بلدة غير المؤمنين للاحتماء من الأذى، وهو محل البحث هنا.

الثالث: الخروج لمداغة الأعداء ورَدِّ إيذائهم، ويُقصد به الجهاد، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ

رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٥] أي لقتال المشركين في بدر، لكنَّ معظم الآيات التي أطلقت اسم الخروج على الجهاد جاءت في سياقات الحديث عن المنافقين^١، وليس فيها وقوع الخروج منهم فعلاً، وإنَّما حكاية شأنهم مع الدعوة إلى الجهاد، كخلفهم الأيمان الكاذبة لتبرير تخاذلهم وجبنهم، والاستئذان للخروج إذا كان فيه تحقيق لمصالحهم الماديَّة، بينما جاء النَّصريح بلفظ الجهاد فيما يخصُّ المؤمنين^٢، وثمَّة آية تنصُّ على كراهة المنافقين للجهاد، لأنَّه درجةٌ أشقُّ عليهم من مجرد الخروج الشكلي للقتال^٣، وهذا المعنى للخروج يندرج في إطار دفع الأذى بالمواجهة.

الرَّابع: إخراج المؤمنين لغير المؤمنين من ديارهم عقوبة، ومنه تهديد النبي سليمان عليه السلام أهل سبأ بإخراجهم^٤، وإجلاء بني النضير عن ديارهم جزاء نقضهم للعهد^٥، وإباحة الله تعالى للمؤمنين أن يُخرجوا كفَّار مكة منها مقاصَّة -إذا تمكَّنوا- كما أخرجوهم^٦، وهو خروج مواجهة كسابقه.

أمَّا المعنى الثاني للخروج، وهو الخروج تجنُّباً للأذى فقد جاء منه في القرآن الكريم ما كان على وجه التفسير ومنه ما جاء على سبيل الاختيار، كما جاء في مقام الطَّلَب والدُّعاء لله تعالى في موضع، وفي مقام امتنان الله تعالى على عباده في موضع آخر. كما سيأتي تفصيله.

أولاً: قوله تعالى ﴿قَالَ فَاخْطُبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ مِنْ قَبْلِهِمْ لِيَرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ (٣٢) ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (٣٤) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: ٣٦)

أخبر تعالى أنه أخرج من كان في قرية لوط عليه السلام من المؤمنين منجياً لهم من العذاب^٧، ولعلَّ استعمال الإخراج في هذه الآية "إمعانٌ في عذاب قومه إذ تناذوا لإخراجه فأجابهم،

١ التوبة: ٤٢، ٤٦، ٤٧، ٨٣، النور: ٥٣.

٢ البقرة: ٢١٨، النساء: ٩٥، المائدة: ٥٤، الأنفال: ٧٢، التوبة: ٢٠، ٤٤، الحجرات: ١٥.

٣ التوبة: ٨١.

٤ النمل: ٣٧.

٥ الحشر: ٢.

٦ البقرة: ١٩١.

٧ ينظر: المحرر الوجيز: ١٧٩/٥.

ولم يعلموا أن إخراجهم مقدّم لإهلاكهم ونجاة له^١، فالنجاة من الأذى هنا تحققت بفضل الله تعالى وأمره لوطاً بأن يهاجر بأهله ليلاً.

ثانياً: قال تعالى ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّكَ أَلَمَلَأْتَ بِمُكْرٍ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ إِيَّيْكَ مِنَ النَّصِيبِ ۚ﴾ (٢٠) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢١) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٠-٢٢]

تفيد الآية أن رجلاً جاء مُسرِعاً ينصح موسى عليه السلام أن يهرب من المدينة إبقاءً على حياته؛ لأنّ ملأ فرعون يتشاورون في أمر قتله، فخرج من المدينة خائفاً على نفسه، يَحْتَزِرُ من ملاحقة القوم له، ثمّ التجأ إلى الله تعالى لعلّهم بأنّه لا ملجأ سواه سائلاً إياه أن يخلصه من القوم الكافرين ويدفعهم عنه^٢.

٣- هجرة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى المدينة وإن كانت طوعاً استجابة منهم لأمر الله تعالى وإعلاءً لكلمته ونصرةً لدينه، لكنّها كانت بسبب تضيق المشركين عليهم فخرجوا فارين بدينهم إلى حيث يأمنون عليه^٣، كما قال تعالى ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقال ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَتَغَوَّنَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] وفي سورة الممتحنة قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ [الممتحنة: ١] أي إن كنتم خرجتم من أوطانكم لأجل هذين فلا تتخذوا الأعداء أولياء ولا تلقوا إليهم بالمودة. وفي الآيات السابقة إيماء إلى أنّ الهجرة لا ينبغي أن تكون مجرد فرار وهروب من واقع الشدة، وإنّما غايتها أن تكون استعداداً لمقاومة الباطل بعدّة مكافئة، واسترداد ما سلب من حق.

٤- قوله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]

تصف الآية حال المستضعفين الذين عجزوا عن الهجرة، وما كان من لجوئهم إلى الله تعالى أن يتولّى أمر إخراجهم من البلدة المقيمين فيها ليندفع عنهم شرّ القوم الظالمين الذين يتسلطون

١ المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ١٥/٥١٥-٥١٦.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ٢٤/٥٨٧، فتح القدير: ٤/١٩١.

٣ ينظر: تفسير النسفي: ١/٣٢٣.

عليهم، إذ "ليس لديهم القوة والمنعة من الظلم إلا بالدعاء"^١.

المطلب الثالث

الذهاب

الذهاب يعني المضي والحركة المخصوصة التي تكون في جهة الإدبار عن نقطة، مقابل المجيء الذي يدل على الإقبال إلى جهة^٢.

ومن آياته التي تبدو لها صلة بالبحث:

أولاً: قوله تعالى ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْغَيِّمِ﴾^(١٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٨﴾
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١٩﴾ [الصافات: ٩٧-٩٩]

خُتِمت بهذه الآيات قصة إبراهيم عليه السلام مع أصنام قومه وما كان من فتنة القوم له نصرته لألهتهم، وأخبرت الآيات بأن موقفه عقب المحنة كان في عزمه على هجرة قومه ومفارقة الديار إلى حيث أمره الله تعالى، وذكر بعض المفسرين أن ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى ربه يعني توجهه إليه بالعبادة^٣، ومنهم من نقل تأويل الذهاب بأنه ماض إلى لقاء ربي بمعنى أنه تيقن موته^٤، وأجيب بأن هذه الآية مفسرة بآية العنكبوت: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]^٥، كما أن الذهاب بالمعنى اللغوي الذي يعني الانتقال من بلده - في العراق - إلى بلد آخر هو المناسب لما بعده في الآية: ﴿سَيِّدِينَ﴾^(١٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [الصافات: ٩٩-١٠٠]؛ لأن ترتيب الهداية والدعاء في الولد على مضيّه لا يصح مع ذهاب الفناء^٦. واستدل بعضهم من الآية أنه تجب الهجرة من

١ البحر المحيط: ٣/٣٠٨.

٢ ينظر: مادة (ذهب) مفردات الراغب: ٣٣٢، معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ٤٢٩/١، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٣/٣٦٤.

٣ ينظر: تفسير السمرقندي: ٣/١١٩.

٤ ينظر: تفسير الماوردي: ٥/٥٩، زاد المسير: ٧/٧٠.

٥ ينظر: الكشف: ٥/٢٢٠.

٦ ينظر: المحرر الوجيز: ٤/٤٨٠.

الموضع الذي تكثر فيه الأعداء، كما هاجر إبراهيم عليه السلام -وهو نبيّ مخصوص بالنصرة- عندما أحسّ بالعداوة الشديدة^١.

ثانيًا: قوله تعالى ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلِظًا فَنَظَرَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأنبياء: ٨٧-٨٨]

الذهاب في هذه الآية هو مفارقة يونس عليه السلام لقومه بعد أن برّم لطول ما ذكرهم فلم يستجيبوا وأقاموا على كفرهم، ظنًا منه أن الله تعالى سيوسع عليه ويوجهه إلى قوم آخرين أخفّ مقاومة للدعوة التي أرسل لتبليغها، فابتلي بضيق أشدّ في بطن الحوت، إذ كان عليه أن يستعلم ربّه عما يريد فعله، مُنتظرًا منه الإذن في مهاجرة قومه^٢، ولولا أنّه أدرك خطأ استعجاله وأناب إلى الله تعالى لما فرّج الله عنه هذا الضيق.

وقد أخبر الله تعالى نبيّه محمّدًا صلى الله عليه وسلم العبرة المستفادة من هذه القصة في سورة القلم: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُ نِعْمَتُ رَبِّهِ لَتُنذِرَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿[القلم: ٤٨-٤٩] فَمَنْ يَتَصَدَّى لِمُهْمَةٍ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ أَنْ يَحْتَمِلَ الْأَذَى وَالْمَشَقَّةَ فِي سَبِيلِ دَعْوَتِهِ، وَأَنْ يَمْضِيَ فِيهَا صَابِرًا مُثَابِرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُثْنِيَهُ إِعْرَاضُ النَّاسِ عَنْهَا فَيَحْمِلَهُ عَلَى الْعَجَلَةِ وَالضُّجْرِ، وَلْيَذْكُرْ أَنَّه أَدَاءٌ فِي يَدِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَرعى لَدَعْوَتِهِ وَأَحْفَظُ، فليؤدِّ واجِبَهُ فِي كُلِّ ظَرْفٍ وَفِي كُلِّ جَوٍّ وَالبَقِيَّةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْهُدَى هُدَى اللَّهِ تَعَالَى.

ممّا سبق يتبيّن أنّ الذهاب الذي يكون تجنّبًا للأذى قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا. فالمحمود منه ما كان بعد استقصاء وسائل الدّفع إلى أن يأتي أمر الله تعالى به، والمذموم ما كان مفارقةً للواقع المُستعصي على الاستجابة قبل است فراغ الوُسع في استمالته إلى جانب الحقّ.

١ ينظر: تفسير الرازي: ٣٤٤/٢٦.

٢ ينظر: الكشف: ١٦١/٤، التحرير والتنوير: ١٧/١٣١.

المطلب الرابع

الإعراض

العَرَضُ خلاف الطُّول، وأَعْرَضْتُ عن فلان وأَعْرَضَ بوجهه أَدْبَى عَرَضَهُ، والعارض صفحة الخَدِّ من الإنسان، ومنه الإعراض وهو لَفْتُ الوجه عن الشَّيْءِ وأخذُ جانبٍ غير الجانب الذي هو فيه^١.

أمَّا الإعراض في الاستعمال القرآني فمنه المذموم المنهِي عنه وهو ما جاء مظهرًا من مظاهر صدود الكافرين عن دين الحقِّ وإيذائهم لدُعائِهِ وأتباعِهِ، ومنه المحمود المأمور به بالنظر إلى دخوله في مفهوم تجنُّب الأذى، وسيكون محلُّ الدِّراسة هنا.

أولاً: الإعراض عن اللُّغو.

اللُّغو من الكلام هو ما لا يُعْنَدُّ به لعدم صُدوره عن رويَّة وتدبُّر^٢، وقد أَطْلَقَ القرآن الكريم على الممارِس له اسمَ الجاهل باعتبارِ الجاهل فردًا ذا طبيعة انفعاليَّة تُثار عند أقلِّ إثارة، وتدفعُهُ إلى كُلِّ أنواع الطَّيش، ومن ثَمَّ فَإِنَّ الموقف المثاليَّ الذي ينبغي أن يتبنَّاه المؤمن تجاه لغو الجاهلين أن يترك الانشغال بهم ويصونَ نفسه عن مجاراتهم^٣. وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين من المسلمين وأهل الكتاب الذين ينتهجون هذا الموقف قبال الأذى الصَّادر من الجاهلين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (١٣) ... وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣، ٧٢] ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيلَ﴾ [القصص: ٥٥]، كما أرشد نبيُّه صلى الله عليه وسلم أن يُرْفَعَ نفسه عن مجازاة سفاهتهم بمثلها ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وأمره أن يترك مجالسة العابثين بشعائر الدين وحرماته ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وأبان للمؤمنين في آية أخرى عن حكمة الإعراض

١ ينظر: مادة (عرض) العين: ١٣١/٣، المصباح المنير: ١٥٣، تاج العروس: ٣٨٥/١٨-٣٩١، معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ١٩٠/٢، وينظر: التحرير والتنوير: ١١٧/٢٧.

٢ ينظر: مادة (لغو) مقاييس اللغة: ٢٥٥/٥، معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ٥٥٠/٢.

٣ ينظر: المفهومات الأخلاقية الدينية في القرآن الكريم: ٩٤.

عن الجاهلين وطريقته، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، لأنَّ البقاء بينهم إقرارٌ ضمنيٌّ على الرِّضا بْمُنْكَرِهِمْ، والآية دالَّةٌ على أنَّ مَنْ رَضِيَ بِمُنْكَرٍ يَرَاهُ وَخَالَطَ أَهْلَهُ وَإِنْ لَمْ يُبَاشِرْ كَانَ فِي الْإِثْمِ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَاشِرِ، بدليل أنَّه تعالى ذكرَ لَفْظَ الْمِثْلِ هَاهُنَا، فأما إِذَا كَانَ سَاخِطًا لِقَوْلِهِمْ وَإِنَّمَا جَلَسَ عَلَى سَبِيلِ التَّقِيَّةِ وَالْخَوْفِ فَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ^١.

وبناءً على ما سبق رُدَّتْ دَعْوَى نَسْخِ هَذِهِ الْآيَاتِ "لأنَّ تَرْكَ الْمَسَافَهَةِ مَدْنُوبٌ وَإِنْ كَانَ الْقِتَالُ وَاجِبًا"^٢.

ثانيًا: الإعراض عن المشركين.

أمر الله تعالى النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يُعْرِضَ عَنِ الْمَشْرِكِينَ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

١ - قوله تعالى ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]

لَمَّا حَكَى الْقُرْآنُ عَنِ الْمَشْرِكِينَ قَدْحَهُمْ فِي تَصْرِيفِ الْآيَاتِ عُقِبَ بِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَثْبِتَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَلَا يَعْتَدَّ بِهِمْ وَبِأَبَاطِيلِهِمْ^٣، أَيِ إِنَّهُ أَرَادَ بِالْإِعْرَاضِ "الْهَجْرَانَ لَهُمْ دُونَ الْإِنْذَارِ وَتَرْكَ الْمَوْعِظَةِ"^٤.

٢ - قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٤] ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٤ -

[٩٥]

فَعِنْدَمَا أَمَرَ الْقُرْآنُ بِالْإِنْذَارِ بِقَوْلِهِ ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] أَكَّدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ يَجْهَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمَشْرِكِينَ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا يَقْوِي قَلْبَهُ وَيَنْزِعُ مَهَابَةً

١ تفسير الرازي: ٢٤٧/١١.

٢ تفسير الرازي: ٦٠٨/٢٤.

٣ ينظر: تفسير أبي السعود: ١٧١/٣.

٤ تفسير القاسمي: ٢٤٦٠/٦.

المشركين من قلبه وذلك بأن يمضي على ما يؤمر به من تبليغ الرسالة غير مُلتفت إليهم ولا مُبالٍ بهم أو مُتصدِّ لردِّ إساءتهم بمثلها فإنَّ الله تعالى يجازيهم على أذاهم^١.

٣- قوله تعالى ﴿وَقُولُوا مَن هَذَا الْفَسْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَسْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿[السجدة: ٢٨-٣٠]

بعد أن ساق الله تعالى للمشركين أدلة قدرته على البعث قابلوها بالتكذيب والاستهزاء، وسألوه أن يُحدِّد وقته مستعجلين وقوعه، فأوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم جوابَ مسألتهم بما عساه ينفَعهم، ثمَّ أَمَرَهُ بالألَّا يلتفت إلى استهزائهم بعدما بَلَغَ الحُجَّةَ التي أنزلت عليه، وأنَّ ينتظر ما الله تعالى صانع بهم فإنَّهم منتظرون هلاكهم^٢.

وثمة آية رابعة في الإعراض جاءت في سياق الحديث عن المشركين، لكنَّ الأمر بالإعراض فيها تعلّق سببه بغير الشِّرك وهي قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] كلا الإعراض والتَّوَلَّى هنا محمول على لازمه؛ فإنَّ المشركين لمَّا آثروا حظوظهم العاجلة كان ذلك حاملاً لهم على الابتعاد عن دعوة الهدى وعدم الاستماع إليها أو الامتنال لها، فأمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يترك مجادلتهم ويخفّف من الاهتمام بشأنهم حال تولّيهم، لأنَّه مَنْ لا يُصْغِي إلى قول لن يفهم معناه، ومن كان غارقاً في الدنيا لم تَزِدْهُ الدَّعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل^٣.

ووجّه بعض المفسِّرين معنى الأمر بالإعراض عن المشركين إلى الكفِّ عن قتالهم، وربَّب عليه نسخ الآيات بآيات القتال، وأجيب بأنَّ الأمر بترك المقابلة في الحال لا يفيد الأمر بتركها دائماً، كما أنَّ بعض السِّياقات ترجّح معنى عدم الالتفات إلى شُبّهاتهم أو التأمُّر بطعونهم في الدَّعوة.

ثالثاً: الإعراض عن اليهود

١ ينظر: تفسير الماتريدي: ٤٧٦/٦، تفسير أبي السعود: ٩٢/٥.

٢ ينظر: تفسير الطبري: ٦٤٥/١٨، تفسير البضاوي: ٢٢٣/٤، تفسير أبي السعود: ٨٨/٧.

٣ ينظر: تفسير الرازي: ٢٦٠/٢٨، تفسير البضاوي: ١٦٠/٥، التحرير والتنوير: ١١٧/٢٧.

٤ ينظر: المحرر الوجيز: ٣٣٢/٢، ٣٧٥/٣، ٣٦٦/٤، تفسير القرطبي: ٤١/٢٠، البحر المحيط: ٢٠١/٤، فتح القدير: ١٧١/٢.

٥ ينظر: تفسير الرازي: ١٠٨/١٣.

وَرَدَ الأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْيَهُودِ عَلَى سَبِيلِ التَّخْيِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]

ويدلُّ سياق الآية على واقعة جرت بين اليهود والنبي صلى الله عليه وسلم، إذ جاؤوا إليه محتكمين لطلب الأئسر والأهون عليهم ممَّا شُرِّعَ في التوراة، فخير الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بين أن يحكم بينهم لإقامة العدل، أو ألا يحكم معاملَةً لهم بنقيض قصدهم^١، ويُعمَّم حكم التخيير على المعاهدين في بلاد الإسلام إذا قصدوا الحاكم المسلم للاحتكام إليه، فيُخَيَّر الحاكم ويرجَّح في كلِّ وقت ما يرى فيه المصلحة^٢، وقيل "إذا كانت المحاكمة في النِّظام فيجب عليه الحكم، أمَّا نوازل الأمور التي لا تظالم فيها فهي التي يُخَيَّر فيها الحاكم"^٣، وتفيد الآية أيضًا "أنَّ كلَّ مُسْتَنَفَتٍ ومتحاكم إلى عالم يعلم من حاله أنَّه إن حَكَمَ عليه لم يرض، لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم، فإنَّ حَكَمَ بينهم وجب أن يحكم بالقِسْطِ حتَّى ولو كانوا ظلمة وأعداء"^٤.

رابعًا: الإعراض عن المنافقين.

جاء الأمر بالإعراض عن المنافقين في الحالات الآتية:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ﴾ [١١] فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۖ﴾ [١٢] أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦١-٦٣]

تُتَكَرَّرُ الآيَاتُ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ ثُمَّ يَرِيدُ التَّحَاكُمَ فِي فَضْلِ الخصومات إلى غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم قصدًا لئلا يُقْضَى بِالْحَقِّ عَلَيْهِ^٥، ثم تُبَيِّنُ للنبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم -ومن يقوم مقامه في الدَّعوة- منهج التَّعامل مع هذا الصَّنْفِ من الناس الذي يَتَّبِعُ هواه ويدور حيث مصلحته الدنيويَّة، بالألَّا تُقْبَلَ أَعْذاره مهما وثَّقها بالإيمان الكاذبة، وأن تُتْرَكَ معاقبته ولا

١ ينظر: الكشف: ٢/٢٤٠، التحرير والتنوير: ٦/٢٠٢.

٢ ينظر: تفسير المنار: ٦/٣٩٤.

٣ البحر المحيط: ٣/٥٠١-٥٠٢.

٤ تفسير السعدي: ٢٣٢.

٥ ينظر: تفسير ابن كثير: ٢/٣٤٦.

يُهْتَك ستره؛ فمن أظهر لعدوه أنه عالم بما في قلبه ربما يُجَرِّئه ذلك على ألا يبالي بإظهار العداوة فيزداد الشرُّ، ولكن إذا تركه على حاله بقي في خوف ووجل فيقل الشرُّ، بيد أن الإعراض عنه لا يعني قطيعته وهجره وتركه على خطئه، بل عليه أن يبادر إلى نصحه والتأثير فيه بما يردعه عن تكرار فعله، وأن يكون ذلك سرًّا لأنه أبلغ في حصول المقصود^١، "وقد كانت هذه سيرته صلى الله عليه وسلم في كتم عناد المنافقين والستر عليهم"^٢.

الثانية: قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]

هدد الله تعالى المنافقين في هذه الآية الذين يظهرون الطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه، ثم يعقدون العزم في الليل على مخالفة أمره، بأن الله تعالى عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، ومُثَبِّت عملهم في صحائفهم ليكون حجة عليهم يوم الجزاء، أو ينزله في القرآن لينكشف أمرهم، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم الاكتراث بهم وترك التعميل على ما يظهرونه من طاعة وموافقة، وأن يعتمد على الله تعالى في كل أموره فهو يتولى كفايته^٣.

وذكر غير واحد من المفسرين بأن الإعراض عن هذه الطائفة من المنافقين لا ينافي استمرار دعوتهم ووعظهم فهو لازم وواجب^٤، ونقل بعضهم الحكم بنسخ الآية بقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ آلَ النَّبِيِّ جَهْدٌ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]^٥، وأجيب بأن "الأمر بالإغضاء لا يفيد إلا المرة الواحدة، فورود الأمر بمجاهدتهم لا يعد ناسخاً"^٦.

الثالثة: قوله تعالى ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَهُمْ بِجَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦]

١ ينظر: المحرر الوجيز: ٧٣/٢، تفسير الرازي: ١٠/١٢٤.

٢ تفسير القاسمي: ٥/١٣٥٩.

٣ ينظر: المحرر الوجيز: ٨٣/٢، تفسير ابن كثير: ٣٦٤/٢، التحرير والتنوير: ٥/١٣٦.

٤ ينظر: المحرر الوجيز: الموضع نفسه، البحر المحیط: ٣/٣١٧.

٥ ينظر: تفسير القرطبي: ٦/٤٧٦.

٦ تفسير الرازي: ١٠/١٥١.

نزلت الآية في قوم من المنافقين استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في القعود عن غزوة تبوك قبل مسيره فأذن لهم، فكشف القرآن زيف أذارهم المؤكدة بالأيمن الكاذبة، وأخبر أنهم يرومون بها أن تتركوا معاتبتهم وذرهم، فأجيبهم إلى طلبهم إجابة مهانة ومقت لهم، بأن تجتنبوهم احترازاً عن خبث بواطنهم، وتتركوا تأنيبهم؛ لأن هؤلاء لا ينفعهم تأديب ولا يردعهم لوم ولا يصلح حالهم عتاب، فتكفيهم النار عقاباً وتوبيخاً^١.

مما سبق يتبين تطابق مفهوم الإعراض في الاستعمال القرآني مع دلالاته اللغوية من حيث إن موارد الإعراض أثبتت أنه ليس أكثر من التفات عن موضوع الأذى، وليس فيه مفارقة المؤذي.

١ ينظر: الكشف: ٨٢/٣، المحرر الوجيز: ٧٢/٣، تفسير الرازي: ١٢٤/١٦، تفسير البيضاوي: ٩٤/٣، تفسير ابن كثير: ٢٠١/٤، نظم الدرر: ٣/٩.

المطلب الخامس

الاعتزال

العزل أصلٌ يدلُّ على تنحية وإمالة، وعزل الإنسان الشيء إذا نحاه في جانب، وهو بمعزل عن أصحابه أي في ناحية عنهم^١، والاعتزال تجنُّب الشيء بالبدن أو بالقلب بمعنى أنه يشمل مفارقة الاعتقاد أو المكان أو كليهما، ومنه العزلة؛ وهي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع طلبًا للخير^٢.

ومن الآيات القرآنية المتضمنة للمادة ممَّا يتَّصل بمفهوم البحث:

١- قوله تعالى ﴿وَأَعَزَّلْكُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۖ فَلَمَّا آعَزَّهُمْ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]

قالها إبراهيم عليه السلام بعد أن وعظ أباه، وردَّ عليه أبوه بالتهديد وطلب الهجر، فأظهر إبراهيم عليه السلام امتثاله أمر أبيه، وأعلن ابتعاده عنه وعن قومه إلى ديار أخرى ليس فيها شرك ليقوم فيها بواجب العبادة والدُّعاء لله تعالى وحده. وتفسير الاعتزال بمفارقة الديار مستند إلى آيات أخرى تنصُّ على عزم إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]

٢- قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَعَزَّلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَىٰ إِلَىٰ الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]

كان أهل الكهف قد تركوا دين قومهم ومعبوداتهم، وتنحَّوا عنهم جانبًا إلى عبادة الله وحده، فأوصى بعضهم بعضًا أن يلتجئوا إلى الكهف فرارًا بدينهم من بطش القوم الذين يقيمون بينهم، لأنَّهم لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا بقائهم بينهم وهم على غير دينهم، فلم يبق لهم إلا أن يفارقوهم

١ مقاييس اللغة: مادة (عزل)، ٣٠٧/٤.

٢ ينظر: التعريفات: ١٥٥، معجم مقاليد العلوم، السيوطي: ٢١٦.

ويتوكلوا على الله وحده فإنه سيرحمهم ويبسط لهم الرزق ويسهل عليهم أمورهم وييسر لهم ما ينتفعون به^١.

وتشير الآية إلى التأسي بأهل الكهف في الاعتزال إذا اضطهد المرء في دينه وأريد على الشرك، وليس فيها ما يفيد استحباب العزلة مطلقاً؛ لأنَّ سياق الآية في الاضطهاد؛ فأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون، وإنما اعتزلوا الكفار فراراً من الفتن^٢.

مما سبق يتبين أنَّ دفع الأذى بالاعتزال إنما كان لأجل الخلاص من الفتن والتفرُّغ للعبادة ومن ثمَّ كان هجرةً من ديار الكفار إلى غيرها.

المطلب السادس

الفراق

الفرق ما يقابل الجمع، وفرقتُ بين الشيء فصلتُ بين أبعاضه، بيِّد أنَّ الفصل يكون في جملة واحدة، ولا يكون الفرق إلا بين اثنين فأكثر، فيقال فرقت بين الأمرين، والفرق والمفارقة تكون بالأبدان أكثر^٣، وقد ورد الفرق في القرآن الكريم في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] بعد أن عصى قوم موسى نبيَّهم وخالفوا أمره بدخول الأرض المقدَّسة، توجَّه موسى عليه السلام إلى ربِّه يشكو له تمرُّد قومه ويسأله أن يميِّزه وأخاه عنهم فلا يؤاخذهما بجرمهم، أو أنَّه دعا عليهم أن يحكم الله تعالى بهم ما يستحقُّون، ويخلصه وأخاه من صحبتهم^٤.

وبهذا لا تدل المفارقة في هذا السياق على رغبة المؤذي في الرحيل عن يؤذيه، وإنما يتضمن تبرُّؤه منهم أو طلبه نزول العذاب عليهم، فالآية على هذا لا تدل جزماً على طلب الابتعاد عمَّا يؤذي وإنما تدل على رغبة من تأذى في إظهار الممايزة بينه وبين المؤذي، واختلاف المجازاة بحسب موقف كلٍّ منهما.

١ ينظر: الكشف: ٥٦٩/٣، البحر المحيط: ١٠٣/٦، فتح القدير: ٣٢٤/٣، تفسير السعدي: ٤٧٢.

٢ ينظر: تفسير القاسمي: ٤٠٣٠/١١.

٣ ينظر: مادة (فرق) مفردات الراغب: ٦٣٢، المصباح المنير: ١٧٩، الفروق اللغوية: ٤٠٦.

٤ ينظر: الكشف: ٢٢٢/٢، فتح القدير: ٣٣/٢، التحرير والتنوير: ١٦٧/٦.

المطلب السابع

الهجر

الهجر في اللغة خلاف الوصل، وترك ما يلزمك تعهده، ومنه اشتقت هجرة المهاجرين؛ لأنهم تركوا عشائرتهم في سبيل الله، وهاجر بمعنى فارق أرضه وقومه وسكن بلدًا آخر، واشتهرت الهجرة في انتقال المؤمن من بلد الفتنة والخوف على دينه إلى حيث يأمن على دينه^١.

استعملت هذه المادة في القرآن دالة على تجنّب الأذى في سياقين؛ الأول: أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالهجر الجميل، والثاني: إعلاء شأن الهجرة في سبيل الله وتفريع بعض الأحكام عليها. وسبق أن ذكر ما كان من مفارقة إبراهيم عليه السلام بلده وقومه إلى حيث أمره الله تعالى، وأن القرآن عبّر تارة بفعل الاعتزال بالنظر إلى قصده بالمفارقة وهو مخالفة عبادة قومه والاشتغال بطاعة الله تعالى، وتارة بفعل الذهاب بالنظر إلى غاية هذا القصد وهي تحصيل مرضاة الله تعالى، وتارة بفعل الهجرة من حيث إنّه ترك قومه وأرضه. ومن ثمّ فليس من داع لتكرار التعليق على الآية.

١ - قوله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝١٠ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ٩-١٠]

اقتران الأمر بالهجر مع الأمر بالصبر على الأذى يدلّ على أنّ المراد من الآية إرشاده صلى الله عليه وسلم إلى ترك المشركين وقت إيدائهم؛ فلا يعبأ بهم ولا يكثرث ولا يتكلّف الرّدّ عليهم بمثل إساءتهم، وفي الوقت نفسه لا يقطع صلته بهم قطعًا تامًّا، بل يستمرّ في دعوتهم إلى ما فيه رشدهم وصلاحهم^٢، فالهجر الجميل هو الحسن في نوعه الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر وهو ترك المخالطة فلا يقرّنها بجفاء آخر، إذ شأن الهجر عادةً أن يعتلق به أذى آخر من سبّ أو ضرب أو غير ذلك^٣. ويأتي هذا التوجيه الإلهي المبكّر للنبي صلى الله عليه وسلم منسجمًا مع

١ ينظر: مادة (هجر) العين: ٢٩٢/٤، تهذيب اللغة: ٤٢/٦، المغرب في ترتيب المعرب: ٣٧٨/٢، معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ٧٤٩/٢.

٢ ينظر: تفسير الماتريدي: ٢٨١/١٠.

٣ التحرير والتنوير: ٢٦٨/٢٩-٢٦٩.

طبيعة المرحلة التأسيسية للدعوة، فالهجر هنا ينطلق من موقع قوة دون أن يقطع النبي صلى الله عليه وسلم العلاقة مع المشركين بحيث لا يترك لنفسه مجالاً للدعوة ولا لهم مجالاً للرجوع إلى الحق^١.

٢- هجرة المؤمنين إلى الحبشة

لم تقتصر محاربة المشركين للدعوة في مكة على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم فحسب، بل كانوا يعمدون إلى معاقبة المؤمنين وفتنهم عن دينهم للضغط على النبي صلى الله عليه وسلم؛ من أجل أن يتخلى عن دعوته، وكان ربما مات بعض المؤمنين تحت التعذيب، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء من غير أن يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه، أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة للتخلص من الأذى^٢، فهاجروا تاركين وراءهم ديارهم ومكاسبهم وأقاربهم من المشركين لأجل الله تعالى، ونزلت فيهم آيتا سورة النحل تنبيهاً لهم وترغيباً لغيرهم في طاعة الله تعالى^٣: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤِثَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿[النحل: ٤١-٤٢] وعد من الله تعالى لهم بأن يُبدلهم في الدنيا خيراً مما تركوه؛ ويوفّيهم في الآخرة أجر مهاجرتهم وصبرهم وتوكلهم، وفي موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] فمن تلفظ بكلمة الكفر تقيّة تحت الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان، ثم فارق وطنه لأجل المحافظة على الدين، فإن الله تعالى يغفر له مقالته، ويُعِمُّ عليه جزاء ما صنع بعد من الهجرة والجهاد والصبر^٤.

٣- الهجرة إلى المدينة وما ترتب عليها من أحكام

توالت الآيات بعد آيتي النحل في إعلاء شأن الهجرة فراراً بالدين وحفظاً للنفس من الهلكة، ومنح المهاجرين المستجيبين لأمر الله تعالى ورسوله أجراً حسناً، فمن خرج مهاجراً في سبيل الله

١ من وحي القرآن: ١٨٧/٢٣.

٢ ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام: ٣١٧/١-٣٢١.

٣ ينظر: تفسير الماتريدي: ٥٨٢/٦، تفسير الرازي: ٢٠٩/٢٠.

٤ ينظر: تفسير البضاوي: ٢٤٢/٣.

تَكْفُلُ اللَّهُ بَرزقه رزقًا واسعًا حسنًا، سواء عَلِمَ أَنَّهُ يموت على فراشه أو يُقْتَل شهيدًا، وكذا مَنْ هاجر ثم مات بقتلٍ أو بغير قتل فقد وجب أجره على الله تعالى^١.

ثم نزلت جملة من الآيات تقتزن فيها الهجرة بالإيمان والجهاد^٢؛ إيدانًا بأنَّ الهجرة المحموده التي تعطي المهاجرين مزيّة خاصّة في الأجر والفضل هي ما كان دافعها وغايتها إظهار الدّين وإقامة شعائره، ومضمونها الاستقواء على المعتدي والظالم، فهؤلاء جديرون بأن يكون لهم نصيب من الفيء^٣، وأن تُحسن معاملتهم ويُعفى عن هفواتهم^٤، كما قرّر القرآن لهم في أوائل العهد المدنيّ حقّ الولاية مع الأنصار في كلّ ما يترتّب على رابطة الدّم والنّسب والدّين من التزامات وعلاقات^٥، وما أعدّه الله لهم -ولأمثالهم من المهاجرين- في الآخرة خير وأعظم أجرًا، فقد أخبر بأنّه يكفّر عنهم سيئاتهم ويبشرهم برحمته ورضوانه، ويكرمهم بنعيم مقيم في جنّات الخلود^٦.

أمّا الذين رضوا بالذلّ والهوان ومكثوا في أيدي الظّالمين لا يستطيعون إقامة أمر دينهم فإنهم يفقدون حقّهم في الولاية على المؤمنين، فضلاً عن أنّهم معرّضون للمؤاخذة والتّوبيخ إن ماتوا على ذلك، ولا تُقبل منهم دعوى الضّعف والعجز عن إظهار الدين، إذ كانوا قادرين على الهجرة إلى بلد آخر، ولذا فإنّ مصيرهم في الآخرة إلى النّار بتقاعسهم عن المصير إلى دار الهجرة في الدّنيا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفْرَ كُفَرًا قَالُوا لِمَ لَمْ تَكُنْ أَتَى اللَّهُ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] قال المفسّرون^٧: في الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكّن الرّجل فيه من إقامة دينه.

١ الحج: ٥٨، النساء: ١٠٠.

٢ البقرة: ٢١٨، آل عمران: ١٩٥، الأنفال: ٧٢، التوبة: ٢٠.

٣ الحشر: ٨.

٤ النور: ٢٢.

٥ الأنفال: ٧٢.

٦ آل عمران: ١٩، التوبة: ٢٠، ١٠٠.

٧ ينظر: الكشف: ١٣٧/٢، تفسير القرطبي: ٦٤/٧، تفسير البضاوي: ٩٢/٢، تفسير النسفي: ٣٨٨/١، البحر المحيط:

٣٤٨/٣، تفسير أبي السعود: ٢٢٣/٢.

المطلب الثامن

الْوَدْعُ

أصل الكلمة يدلُّ على التَّرك والتَّخْلِيَة، ووَدْعَ الرَّجُلُ سَكَنًا، ووَدَعْتُهُ تَرْكُتُهُ، لكنَّ استعماله في الفعل الماضي والمصدر قليل، والْوَدْعُ بقاء الشيء ساكنًا بلا حركة ولا استعمال، ومنه الوداع وهو تخليف المسافر النَّاس في مقامهم، والموادعة المصالحة لأنَّها متاركة^١.

وليس له في القرآن استعمال بمعنى تجنُّب الأذى إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَذَنَهُمْ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨] فعدم طاعة النبي للكافرين والمنافقين يعرِّضه لانتقاداتهم وتطاولهم عليه بالأذى، ولهذا أُتبع النَّهي بما عساه يُسْكِنُ قلب النبي صلى الله عليه وسلم ويُخَفِّفُ أثر إيذائهم عليه، وذلك أن يصرفَ نظره عن إيذائهم ويرتفع عن مؤاخذتهم عليه ويعتمد على الله وحده فهو كافيه ضررهم وناصره عليهم^٢.

١ ينظر: مادة (ودع) العين: ٣٥٨/٤، مقاييس اللغة: ٩٦/٦، مفردات الراغب: ٨٦١، القاموس المحيط: ٧٦٩-٧٧٠، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: ٦٥٩/٢.
٢ سبق تفسير الآية في المبحث الأول ص: ٢٨.

المطلب التاسع

الْوَذْرُ

الْوَذْرَةُ من اللَّحْمِ القطعة الصَّغِيرَةُ لا عَظْمٌ فيها، أو ما قطع منه مجتمعا من غير طول، ويُؤخذ من الأصل المادي للمفردة معنى التَّرك مع ملاحظة عناصر النِّقْطُع والانفصال والتَّخْلِيَةِ، وقد أمانت العرب المصدر والفعل الماضي واسم الفاعل من (يذر)، واستعملوا عوضا عنه تَرْكُهُ وهو تارك، وإذا أرادوا المصدر قالوا: ذَرَهُ تَرْكًا، وهو قريب من مفهوم الوَذْع.

أمَّا الاستعمال القرآني للمفردة المتَّصل بتجنُّب الأذى فقد كثر اقترانه بمصطلحات اللُّعْب واللَّهْو، والتَّكْذِيب والافتراء والخوض في الباطل.

وباستقصاء مواضع ورود المصطلح بصيغة الأمر -باعتبار انفرادها بسياقات تجنُّب الأذى مع غير المؤمنين- يمكن ملاحظة عدد من المعاني الحاقَّة به والتي تُضفي عليه خصوصية عن سائر المصطلحات.

١- اشتراك السياقات جميعها في ورودها بمعنى الوعيد للمتروكين -وهم المشركون-، أي خَلِّ بيني وبينهم فإنِّي أَتَكَلَّفُ حسابَهُم وعقابَهُم، ثم إمَّا أن يُكتفى بالأمر بتركهم ويكون منطويًا على أسلوب التهديد^١، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٠]، أو أن تُتبع بذكر المَال والعاقبة السيئة لهم في الآخرة^٢، أو بذكر العقوبة الدنيوية وهي التَّمَتِيع والإملاء استدراجًا لهم^٣.

٢- تعلق الأمرِ بالتَّرك في جميع الموارد بخطيئة العبث بالدين لأجل الانهماك في الدنيا؛ فقد جاء مقترنًا بمصطلحات اللُّعْب واللَّهْو، والتَّكْذِيب والافتراء والخوض في الباطل والنسبة إلى الله ورسوله ما لا يليق بهما كالإلحاد في أسماء الله، والطعن بالنبي صلى الله عليه وسلم بقول الشعر.

٣- ذُكر في معنى (وَذَرَ المؤذنين) وجهان؛ الأوَّل: ترك أمر مؤاخذتهم إلى الله تعالى وإن كانوا مستحقِّين للمؤاخذة؛ لأنَّ الطَّعن في الدِّين من موجبات الجهاد، لكن العهد المكي لم يكن مهياً لنزول فرض الجهاد بعد. والثاني: ترك الالتفات إليهم وعدم الاهتمام بهم حال وقوعهم في الباطل

١ الأنعام: ٧٠، ٩١، ١١٢، ١٣٧، الحجر: ٣.

٢ الأعراف: ١٨٠، الزخرف: ٨٣، المعارج: ٤٢، المزمل: ١١، المدثر: ١١.

٣ المؤمنون: ٥٤، القلم: ٤٤،

تحقيراً لشأنهم، فهم يظنون أنَّ أباطيلهم تعوق الدعوة، لذا فإنَّ الموقف المثالي الذي يرشد الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم إليه ألاَّ يعبأ بهم ولا يصدّه سوء استجابتهم، بل يُعيد تذكيرهم، ويستمرُّ في دعوته رغم أنوفهم^١.

٤- جاء في بعض الآيات الأمرُ بتبليغ الحُجَّة لهم وتذكيرهم بالحق وإنذارهم بالعاقبة؛ لئلاَّ يُتوهَّم أنَّ الأمر بتركهم يقتضي ترك دعوتهم^٢.

مما سبق يظهر بأنَّ الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بترك المشركين الخائضين في الدِّين يفهم في ضوء قوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقد سبق بيان أن آيات ورود المصطلح بمعنى تجنُّب الأذى مكِّيَّة كلها، فكان الأمر به منسجماً مع طبيعة مسار الدَّعوة في هذه المرحلة من حيث التَّركيزُ على بناء الفرد المسلم وتدريبه على ضبط النَّفس واحتمال الأذى ومكابدة المشاقِّ من غير رَدٍّ ومقاَصَّة، وذلك استعداداً لعملية البناء المجتمعي المتمثِّلة في المرحلة المدنية، ثمَّ الانطلاق في آفاق الإصلاح العالمي وفقاً لعالمية الدَّعوة.

١ ينظر على سبيل المثال: تفسير الماتريدي: ١٦٩/٤-١٧٠، الكشف: ١٩١/٦، المحرر الوجيز: ٣٠٥/٢، ٣٨٩/٥، فتح

القدر: ١٤٧/٢، التحرير والتنوير: ١٨٩/٩.

٢ ينظر: تفسير الرازي: ٢٣/١٣.

المطلب العاشر

التَّوَلَّى

سبق أن ذُكر المعنى اللغوي لمادة (ولي)،^١ وأنها من الألفاظ المشتركة، فتكون إقبالاً وتكون انصرافاً، وتكون بمعنى الاتِّباع وبمعنى الانصراف. فهي إمَّا أن تدلَّ على واقعٍ في محلِّ قبال الشيء أو في جهة الإدبار منه، والمعنى الثاني هو الذي سيكون محل البحث هنا.

ويختلف التَّوَلَّى عن الإعراض بأنَّ التَّوَلَّى يلاحظ فيه عدم القرب وتنحية الجسم عن المتولَّى عنه وإيثار غيره^٢، وقد ذمَّ القرآن نوعين من هذا التَّوَلَّى: أحدهما ما كان على وجه الإعراض عن الهداية وترك الطاعة^٣، والثاني ما كان انهزاماً وهروباً وفراراً أمام العدو^٤.

ومن موارد التَّوَلَّى في القرآن التي يشتبه دخولها في معنى تجنُّب الأذى:

١- تَوَلَّى الأنبياء السابقين عن أقوامهم

ذَكَرَ الله تعالى في سورة الأعراف أنَّ صالحاً وشعيباً عليهما السلام قد فارقا قومهما بعد تبليغهم الرِّسالة ودلالتهم على ما به نجاتهم من عقاب الله تعالى وعذابه ولم يقبل القوم النصيحة، فأخبر الله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَنصَحُونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] وعن شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣] وظاهر الآية يدلُّ على أنَّ التَّوَلَّى كان بعد نزول العقاب عليهم لدلالة الفاء على التعقيب فيكون الخطابُ على سبيل الإشفاق والتَّحسُّر على ما جرى عليهم، وقيل بل خرجا من بينهم قبل موتهم حين يئسا من خيرهم وعلمًا أنَّ العذاب سينزل بهم؛ بدليل أنَّ الآية خطابٌ للقوم ولا يخاطبُ الأموات^٥.

ممَّا سبق يتبيَّن أنَّ التَّوَلَّى هنا ليس داخلاً في معنى تجنُّب الإيذاء.

١ ينظر ص

٢ ينظر: مفردات الراغب: ٨٨٦، التحرير والتنوير: ١٦٥/٢٩.

٣ البقرة: ١٣٧، آل عمران: ٢٠، النساء: ٨٠، المائدة: ٩٢، الأنفال: ٢٠، النحل: ٨٢، طه: ٤٨، النور: ٤٧، النجم: ٢٩.

٤ البقرة: ٢٤٦، آل عمران: ١٥٥، الأنفال: ١٥، الفتح: ١٦.

٥ ينظر: تفسير الماتريدي: ٥٠٧/٤، المحرر الوجيز: ٤٣١/٢، تفسير الرازي: ٣٠٩/١٤، البحر المحيط: ٣٣٥/٤.

٢- الأمر بالتَّوَلَّى عن المشركين.

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتولَّى عن المشركين في ثلاث مواضع:

الأول: قوله تعالى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعَدَّابْنَايَ سَتَعَجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ [الصافات: ١٧٤-١٧٩]

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أنَّ المرسلين منصورون وأنَّ جندَه غالبون، ثبت أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم منصور وغالب لا محالة؛ لأنَّه من المرسلين ومن خيرة جُند الله تعالى، ومن ثَمَّ جاءت هذه الآيات تنبيهاً له وتسليّة عمّا يلاقيه من إيذاء المشركين له ووعداً بنصره عليهم، وأُمرَ بعدم الاهتمام بما يقولونه وترك النكد من إعراضهم لأنَّ العاقبة الحسنى له، وسوف يُعَين ما يقضى فيهم من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة، كما أنَّهم سيشاهدون ما يقضى للنبي صلى الله عليه وسلم من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب في الآخرة، وإبهاؤ الموعود إيماءً إلى قُرب وقوعه^١.

ولا يُفهم من هذه الآية الإيعاز للنبي صلى الله عليه وسلم بالانصراف عن إنذارهم ودعوتهم؛ لأنَّ هذه المُهمّة لا يمكن أن ينقطع عنها، بل القصد منها تنفيس عنه وتطمينه بنصر الله تعالى^٢.

الثانية: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ [الذاريات: ٥٤-٥٥]

الآية كسابقتها مسوقة بغرض تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم عمّا ينسبونه إليه من السحر والجنون، تُطمئنه بأنَّه لا يضره افتراءاتهم، وتبعية عنادهم تقع عليهم، فعليه ألاَّ يبالى بافتراءاتهم، وأن يستمرَّ في التبليغ والدعوة إلى الله تعالى^٣.

الثالثة: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ [القمر: ٦]

جاء في مطلع السورة أنَّ المشركين إن يروا ﴿آيَةً يُعْرَضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، وأنَّهم كذَّبوا ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القمر: ٣] ولم تؤثر فيهم الإنذارات القرآنية لجزرهم عن عنادهم، ومن كان

١ ينظر: تفسير ابن كثير: ٤٥/٧، نظم الدرر: ٣١٥/١٦، التحرير والتنوير: ١٩٦/٢٣.

٢ ينظر: التفسير الحديث: ٢٣٩/٤.

٣ ينظر: تفسير الماتريدي: ٣٩٣/٩، تفسير الرازي: ١٩١/٢٨، التحرير والتنوير: ٢٣/٢٧.

هذا حاله فالأولى ألا يُلْتَقَتْ إلى إساءته تحقيراً لها، وألاً يُتْكَلَّفَ حَمْلُهُ على الهدى بالقوَّة ما دام قد أَغْلَقَ منافذ بصيرته بإرادته.

وقد جاء في بعض التفسير^١ أنَّ الأمر بالتَّوَلَّى محمولٌ على ترك مجادلتهم والإعراض عن دعوتهم وقصر الدَّعوة على مَنْ يرجو منه الإيمان.

واسْتَبْعَدَ بأنَّ جهادهم بالحُجَّة والجدال الحسن مأمورٌ به على الدَّوام، لأنَّه العامل الأكبر لإظهار الحق^٢.

٣- التَّوَلَّى عند لقاء العدوِّ

هناك حالة من حالات تجنُّب الأذى ذمَّها القرآن وتوعَّد فاعلها، لما يترتَّب على سلوكها من وقوع أذى أكبر وضررٍ أبلغ، إذ تُعَرِّضُ المؤمنين لخطر عظيم يُهدِّد أمنهم واستقرارهم؛ وهي حالة التَّوَلَّى عن العدوِّ في المعركة، وقد اقترنت غالباً بمصطلح الإدبار؛ من الدُّبُر وهو بمعنى الخلف أو الظُّهر أو آخر الشيء.

فنهى الله تعالى المؤمنين عن الفرار أمام العدوِّ قبل النَّصر أو القتل؛ لأنَّ الجهاد ثبات وجدل، وفرارٌ واحدٌ من الصَّفِّ قد يُخِلُّ الصَّفَّ كُلَّهُ، وقد يُضَيِّع ثمرة النَّصر ويقلِّبه إلى هزيمة وانكسار. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ ۖ الْاُدْبَارُ ۖ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦] أي لا تجعلوا ظهوركم ممَّا يليهم إلا لِقْصِدِ حَرْبٍ مشروع، وعدَلْ عن لفظ الظُّهور إلى الأدبار تقبيحاً للانهازام وتنغييراً عنه^٣، وعاتب فريقاً من المؤمنين ممَّن انهزموا في أحد، مبيناً أنَّ ما حصل منهم كان بسبب اكتسابهم بعض الذُّنوب، والتي منها مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، والميل إلى الغنيمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وأخبر القرآن عمَّا تطبَّع به اليهود والمنافقون من جُبْن وتخاذل وعجز عن حماية أنفسهم ومواليهم، فذمَّ المنافقين الذين تخلَّوا عن

١ ينظر: تفسير الطبري: ٥٥١/٢١-٥٥٣، تفسير الماتريدي: ٣٩٣/٩، الكشاف: ٦٥٥/٥، تفسير الرازي: ١٩١/٢٨، تفسير البياض: ١٥١/٥.

٢ ينظر: تفسير القاسمي: ٥٥٣٧/١٥.

٣ ينظر: تفسير الرازي: ٤٦٥/١٥، البحر المحيط: ٤٦٩/٤.

نصرة مواليتهم من يهود بني النضير حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجلالهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [الحشر: ١٢]، وعرف المؤمنين في موضع آخر مدى ضعف اليهود وقلة صبرهم على المقاومة ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

المبحث الثاني

الأعمال الرافدة لدفع الأذى بالتجنب

تجنب الأذى ليس عملية سلبية تقوم على معالجة الظاهرة بمجرد عنصر الترك، بل يُحيطها المنهج القرآني بعناصر أخرى تجعل من التجنب عدولاً عن الرّد المباشر إلى طريق آخر؛ إمّا لأنّه أبلغ أثراً أو أقلّ ضرراً، ويمكن ملاحظة هذه العناصر من خلال إمعان النظر في آيات المطلب السابق وآيات قرآنية أخرى مؤسّسة لها.

المطلب الأول

الدُّعاء لله تعالى

الدُّعاء نوع من العبادة والخضوع لله تعالى، فالإنسان يُقدّم على الدُّعاء لطلب ما يحتاجه أو دفع ما يضرّه من ربّه الموصوف بكمال العلم والقدرة والرّحمة، ويكون مع الدعاء معترفاً بعجز نفسه عن تحصيل مبتغاه، وهو في حالة الدعاء إمّا أن تكون الأسباب والعوامل الخارجة داخلة في إمكاناته فيدعو الله تعالى أن يُودّع فيها التأثير، أو لا تكون كذلك فيطلب تهيتها وتيسيرها له، وهذا الأخير لا يعني ترك العلل والوسائل الطّبيعيّة واللجوء بدلها إلى الدُّعاء، بل المقصود أن يبذل الإنسان غاية جهده للاستفادة من كلّ الوسائل الموجودة، ثم يستمدّ العون من ربه جلّ وعلا^١.

وممّا يلاحظ في السّياقات القرآنيّة للدُّعاء المرتبطة بتجنب الأذى:

١- أنّ الدُّعاء كان دأب الأنبياء السابقين وشأن المؤمنين للخلاص من شدّة أو استتصارٍ على المكذّبين من قومهم، وأنّ الله تعالى أجاب دعاءهم ونصرهم بقوة إيمانهم واستقامتهم وصلاحهم وصبرهم^٢، وقد سبقت كلمة الله تعالى لعباده المرسلين أنّهم المنصورون، وأنّ جُنْدَه هم الغالبون^٣.

١ ينظر: تفسير الرازي: ٢٨٠/١٤، المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٥٢٢/١٩.

٢ الأنبياء: ٧٣-٨٨، المؤمنون: ٢٦، ٣٩، العنكبوت: ٣٠.

٣ الصافات: ١٧١-١٧٣.

٢- أن أكثر الناس إذا امْتَحِنُوا وأصابهم الضُّرُّ أزعجتهم الحال إلى أن يروموا التَّخْلُصَ ممَّا نالهم، فيعلموا أنَّ غير الله تعالى لا ينجيهم، فتحملهم الضرورة على صدق الالتجاء إلى الله تعالى، فإذا كشف الله تعالى عنهم ما يدعون لأجله شغلنهم راحة الخلاص عن تلك الحالة^١. وهي طريقة مذمومة ذُكرت للتنبيه عليها، إذ شأن المؤمن أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحنة^٢.

٣- أن الدعاء وإن كان حالاً خاصة مع الله تعالى بعيدة عن مخالطة الناس، لكن الله تعالى لا يقبل دعاء مقترناً بالاعتداء، أو بقاله السوء على الناس إلا أن يكون مظلوماً ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^{٥٥} وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿[الأعراف: ٥٥-٥٦]﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿[النساء: ١٤٨]﴾.

٤- أن الله تعالى لم يقتصر في بيان فضل الدعاء على الأمر به ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، بل بيّن في آية أخرى أنه إذا لم يُسأل يغضب ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]^٣.

١ يونس: ١٢، النحل: ٥٣-٥٤، الإسراء: ٦٧، الروم: ٣٣، الزمر: ٨، ٤٩.

٢ لطائف الإشارات: ٨٣/٢، تفسير الرازي: ٢٢٠/١٧.

٣ تفسير الرازي: ٢٦٤/٥.

المطلب الثاني

ترك طاعة المؤذي.

الطَّاعَة هي العمل على ما يأمرُ به الغير أو يُشير به لأجل إجابة مرغوبة^١، فقد أَخَذَت الدَّعْوَة في بدايتها منحى فردياً قائماً على دعوة أشخاص تُرجى إجابتهم لما لهم من مركز اجتماعي مرموق؛ أملاً في تأثر النَّاس بموقفهم، ولذلك كثيراً ما عمل النبي صلى الله عليه وسلم على تكثيف جهوده مع أصحاب السُّلْطَة والزَّعَامَة في مَكَّة يستميلهم إلى الدَّعْوَة ويرغبهم فيها، وربما أثار ذلك أحياناً على اهتمامه بعامة النَّاس والضعفاء منهم، فأرشد الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة من القرآن إلى أن يكون همُّه تبليغ الدَّعْوَة فحسب، وأنه ليس موكلاً بإكراه النَّاس على الهدى، ومن ثَمَّ فلا ينبغي أن يُحزَنه كُفْرُهُمْ أو يَضِيق صدره بإعراضهم، لأنَّ الهداية شأنٌ إلهيٌّ متعلِّق بمدى اتِّجاه النَّاس إليها فسواء أُنذَرهم أو لم يُنذَرهم لن يؤمن منهم مَنْ أَغْلَقَ منافذ بصيرته.

وقد عَرَضَتْ أولى السُّور نزولاً موقفاً لأحد زعماء المشركين الذي هاله وقوف النبي صلى الله عليه وسلم للصَّلَاة بينهم في تجاوز علنيٍّ لشركهم وإعلان صريح بمخالفته دينهم، فانبرى مهذِّداً للنبي صلى الله عليه وسلم ينهاه عن إقامة شعائر دينه بين النَّاس لكيلا يفتنهم عن وثنيّتهم، فأمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يواظب على عبادته فعلاً وإبلاغاً غير مُكْتَرِثٍ بالكافر ولا مُلْتَقِثٍ إلى كلامه ونهيهِ ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، فلَمَّا عَلِمَ المشركون ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على دينه لجؤوا إلى مفاوضته مدَّعين استعدادهم لبعض التَّنَازلات في سبيل أن يتخلَّى عن رسالته وعَرَضُوا عليه مساومات ظاهرها التَّنَازل ومضمونها يصبُّ في صالحهم فقط^٢، لأنَّها تعني أن يتخلَّى النبي صلى الله عليه وسلم عن دينه الذي لا يعترف بإله غير الله تعالى، أمَّا هم فإن عبدوا الله تعالى مع الحفاظ على عبادة الأصنام لن يخسروا شيئاً، بل سيحافظوا على دينهم الذي لا يستغني عن الله تعالى وإنما يضع معه شركاء^٣، فحسنت آية القلم ﴿فَلَا تُطْعَمُ﴾

١ التحرير والتنوير: ٢٥١/٢١.

٢ منها أن يسكت عن آلهتهم فيكفوا غوائلهم، ومنها أن يعبد الله مدة وآلهتهم مدة، وهم يعبدون الله مدة وآلهتهم مدة، ومنها أيضاً أن يقرَّهم على بعض تقاليدهم فيجاروه في بعض ما يطلب.

٣ ينظر: في ظلال القرآن: ٣٦٥٨/٦.

الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ يُدْهِنُ فَيَذَرُوهُمْ ﴿٩﴾ [القلم: ٨-٩] مع سورة (الكافرون) ما ينبغي أن يكون عليه موقف النبي صلى الله عليه وسلم إزاء المساومات والعروض مهما أغرت ظاهراً بهدايتهم^١.

ولمّا كان بعض النَّاس يخفي تكذيبه من خلال أسلوب المداهنة، أَتْبَعَهُ بالنَّهي عن طاعة كلِّ مَنْ تَلَبَّسَ بالأخلاق الدَّميمة التي حَدَّدَتْها أوائل سورة القلم، فكأنَّه قال: لا تطع المشركين الذين كذبوا برسالتك ولا غيرهم من ذوي الجاه والمال ممَّنْ تَوَقَّرت فيهم بعض هذه الصفات أو كُلُّها؛ فلا تُسَلِّمْ بقول مَنْ يُكْثِرُ الحلف في الحقِّ والباطل، لِضَعْفِ رأيه وَضَعْفِ ثِقَةِ النَّاسِ به أيضاً، لأنَّه لا يَمْلِكُ على صحة كلامه دليلاً يُصَدِّقه غيرَ الأيمان الكاذبة التي تُحَقِّره في عيون النَّاسِ، ولا تسمع لمن يطعن في أعراض النَّاسِ، ويذكُرهم بما يكرهونه، وينالُ منهم بلسانه وبعينه وإشارته، وينقلُ ما يسمع بين النَّاسِ ممَّا يسوؤهم بقصد الإفساد بينهم، ولا تركنُ إلى المتجبر الذي يمنع الخير عن النَّاسِ، ويمنع النَّاسِ عن الخير، ثم يسطو عليهم ويسلبُ حقوقهم، وأَعْرِضْ عن غليظ الطِّباع لنيم الفعّال كيلا يصيبك رُشاشُ فُجْبَها، فمن تَلَبَّست فيه إحدى هذه الصفات حَقَّتْ عليه المهانة ولم يكن جديراً بالإصغاء إليه ولا مؤهلاً لأن يُطاع مهما بلغت زعامته وثروته؛ لمخالفتها الدِّين والمروءة.

ومن السِّياقات القرآنيّة التي تنهى عن طاعة غير المؤمنين قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَجَنَّهُمُ بِهِمْ جَهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] سُبِقَتْ هذه الآية ببيان مُهمّة النبي صلى الله عليه وسلم في الإنذار وإقامة الحجج وأنَّه ليس عليه إجبار المشركين على الإسلام خاصّة أنَّهم عطلُّوا أَسْماعهم وعقولهم فلم ينتفعوا بها، وانقادوا للهوى في كلِّ ما يدعوههم إليه، حتّى أشبهوا الأنعام بل فاقوها في الضَّلالة لأنهم رَزَقُوا أداة الفهم فَعَطَّلُوها^٢، ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قائلاً: بما أنَّ المشركين اختاروا طريق الضَّلال فلا تتكلَّف مداراتهم والتَّقرُّب إليهم لتتألف قلوبهم، ولا تداريهم لتستميلهم إلى دعوتك، وإذا كانوا يَجِدُّون ويَجْتَهِدون في توهين أمرِك بالإيذاء حيناً والمداهنة حيناً آخر، فقابلهم بالثَّبات على الدَّعوة وإظهار الحقِّ، والاجتهاد في مخالفة باطلهم دون أن يخالطكَ فتور^٣.

وتذكر بعض الآيات علّة عدم الاستماع لنصائح الكفّار فيما يخصُّ الدَّعوة ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْهُمْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْكُفُّوا﴾ (٢٤) وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)

١ ينظر: تفسير الطبري: ١٥٧/٢٣، ٧٠٢/٢٤، تفسير أبي السعود: ١٣/٩.

٢ ينظر: الكشف: ٣٥٣/٤، المحرر الوجيز: ٥٣١/٥، تفسير الرازي: ٤٦٣/٢٤.

٣ ينظر: الكشف: ٣٦٢/٤، تفسير القرطبي: ٤٥٠/١٥، تفسير البيضاوي: ١٢٨/٤، تفسير أبي السعود: ٢٢٥/٦.

إِنَّكَ هَؤُلَاءِ تُجْبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ﴿[الإنسان: ٢٤-٢٧] فهم أهل دنيا مولعون بها مستعدون لبذل ما يضمن استمرارهم في التمتع بملذاتها، وقد رأوا في الدعوة الإسلامية تهديدًا لثروتهم وتقويضًا لمراكزهم ومصالحهم، خاصة بعد أن سمعوا أوائل السور نزولاً^١ قد تضمنت حملة على أغنيائهم؛ تدم شدة حبهم للمال وحرصهم عليه، وتباهيهم واستبدادهم به، تتغيا بذلك الحد من جشع الإنسان للمال وتكالبه عليه، وترغب في مساعدة المحتاجين من خلال إطعام المساكين والنصدق على الفقراء.

ثم إنه لما يئس الكفار من إيقاف النبي صلى الله عليه وسلم عن دعوته أخذوا يلقون على المسلمين الشبه والشكوك في أحكام دينهم ويتعننون في طلب المعجزات الحسية^٢، وقد روي أن بعض المؤمنين تمنوا إجابة اقتراح المشركين، وظنوا أنها تقضي إلى إيمانهم، لكن القرآن أجابهم وبين لهم في غير موضع -كما سبق تفصيله في مبحث سابق- أن الله تعالى هو المختص بالقدرة على الإتيان بالمعجزات، وأن المعجزة الواحدة تكفي لتمييز الصادق من الكاذب، وأن المستكبر لن يتخلّى عن كبريائه مهما عاين من معجزات محسوسة أو سمع من آيات متلوّة^٣، لذا فإن الموقف الحق تجاه هذه الأباطيل ألا يلتفت المؤمن إلى كلمات الجهال، ولا يتشوش بتخرصاتهم المنبعثة من أهوائهم الفاسدة الناتجة عن تمسكهم بتقليد أسلافهم^٤ ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوا عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴿١١٦﴾﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْذِبِينَ ﴿[الأنعام: ١١٦-١١٧]

ولما انتقل المؤمنون إلى المدينة واجهوا فئات مجتمعية جديدة ليس لها صبغة الوضع في الموقف كما في مجتمع أهل مكة، منهم اليهود الذين انبروا يبنون شكوكهم في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن عارضت مصالحهم فحذر الله تعالى المؤمنين من الإصغاء لأقوالهم؛ لأن غايتهم أن يردوا المؤمنين إلى الكفر بعد الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٠٠]

١ منها على سبيل المثال سور الهمة والتكاثر والعاديات والفجر وغيرها.

٢ ينظر: تفسير الطبري: ٥٠٩/٩، التحرير والتنوير: ٢٣/٨.

٣ ينظر: تفسير الرازي: ١١٧/١٣.

٤ ينظر: تفسير الرازي: ١٢٦/١٣.

ومنهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون الذين كانوا يتظاهرون بصورة النَّاصح المخلص الذي يُحذِرُ النَّاسَ من مغبَّةِ عدم الامتثال لأمره كما أخبر الله عنهم في آل عمران ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، فجاءت مُقَدِّمة سورة الأحزاب محدِّرةً المؤمنين من الالتفات إليهم ومن الخُضوع لَصُغْطِهِم والتأثُّر باعتراضاتهم، وكان ذلك بمثابة تمهيد لما ورد بعد ذلك في السُّورة من حَمَلَةٍ على بعض التَّقَالِيدِ الجاهليَّةِ الرَّاسِخَةِ وأَمْرٍ بِالْغَايَةِ، وتعود السُّورة لتؤكد في موضع آخر أنَّ الفئات الضَّالَّةَ لن تكفَّ بلاءها حتَّى تطمئنَّ إلى إحكام سيطرتها، وأنَّ الملاذ المكين للمؤمن الحقِّ يتمثَّلُ في صدق الاعتماد على الله تعالى والثَّبات على الحقِّ وعدم المبالاة بأذيتهم، والصَّبْر على ما يناله منهم ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨]

إنَّ تَبَيَّنَ موقفَ عدم الطَّاعة ليس موقفًا هَيِّنًا، بل ينطلق من موقف قوَّة من حيثُ القدرَةُ على المقاومة والثَّبات على المبدأ، ولهذا أرشد القرآنُ المؤمنَ في كثير من الآيات إلى ما يزيده قوَّة حقيقيَّة، وذلك بأنَّ يأوِيَّ إلى مَنْ قوَّته وقدرته غير متناهية للصُّمود أمام جُنْدِ الباطل على كثرتهم، فيتقرَّب إلى الله تعالى بكثرة السُّجود والذِّكر والتَّسبيح، ويتَّبَع ما أنزله الله تعالى من الوحي، ويَصْدُق في التَّوَكُّل عليه والثِّقَّة بنصره.

١ ينظر: في ظلال القرآن: ٢٨٢٢/٥، التفسير الحديث: ٣٤٨/٧.

المطلب الثالث

طلب النصرة

استُخلص هذا العنصر من مجموعة آيات قرآنية تُشير إلى أنَّ الإنسان الذي ينتمي إلى جهة معيّنة، تترتّب بينه وبينهم حقوق وواجبات منها حقُّ النصرة، لكنَّ القرآن لم يُصرِّح في آية بأنّه على الإنسان أن يتّجه في طلب النصرة من غيره لاعتبارين:

الأول: أنَّ القرآن يَنشُدُ بالإنسان المؤمن أن يكون هو الجهة القويّة التي تنصُرُ وتنتصِرُ.

الثاني: أنَّ القرآن يُبرِزُ الحقائق على وجهها؛ فالاستنصار بالناس ليس على حقيقته، لأنَّ الله تعالى هو الفاعل المؤثّر، أمّا ما يبدو من مناصرة النَّاس للمستضعف فهو من جملة الأسباب التي يبيّرها الله تعالى لِمَن سألها.

ومن الآيات التي أشارت إلى مشروعية طلب النصرة من المؤمنين وإن لم تكن مسوقة - أصالة - لذكر قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]

تدلُّ الآية أصالة أنَّ الواجب على المؤمنين الأقوياء أن يُجيبوا المستضعفين من إخوانهم في الدِّين إذا سألوهم النصرة مالم يُخلَّ ذلك بعهد لهم، وتدلُّ تبعاً أنّه لا حرج على المستضعفين أن يطلبوا النصرة والمؤازرة من إخوانهم الأقوياء.

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤] هذه الآية واردة للثناء على المهاجرين والأنصار، والشهادة لهم بفوزهم، مع الوعد الكريم، والأنصار هم الذين استجابوا لطلب النبي صلى الله عليه وسلم النصرة عندما كان في مكّة بحسب مضمون بيعة العقبة الثانية، لكنَّ الله تعالى عندما يُذكرُ المهاجرين بما كان عليه حالهم قبل الهجرة تغدو نصرتهم لهم وتأبيدهم منّة خالصة منه

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَأَوْدَكُمْ وَيَضْرِبَكُمْ بِصُرْبِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأففال: ٢٦] فهو الذي أذن لهم بالهجرة إلى المدينة وآواهم إليها وقيض لهم أهلها.

ومن ذلك أيضًا إخبار الله تعالى عمَّن بقي بمكة من المستضعفين -بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة- ممَّن لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً بأنهم كانوا يسألونه تعالى أن يهيئ لهم مَن يتولَّى أمر إخراجهم، وينصرهم على ظالمي البلدة، فكان استنصارهم من جملة العوامل التي هيَّج الله تعالى بها المؤمنين في المدينة لقتال أعدائهم ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، وسبق بيان نهي القرآن عن استنصار مَن أضمر العداوة للمسلمين، والتَّقَوِّي به على العدوِّ المعتدي لأنَّ المناصرة علامة انتماء ولا يجوز لحزب الحق أن ينتمي إلى حزب الباطل.

ومن وجوه الاستنصار المشروعة التظالم عند القاضي العادل بقصد إقامة الحق، وقد جعله القرآن علامة على الإيمان الصادق في مقابل مَن يتحاكم إلى الباطل ليقضي له ولو على غير الحق. كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] فشانُّ المٌبطل أن يأبى العدل؛ لأنَّ العدل لا يُلائم حبه الاعتداء على حقوق النَّاس، أمَّا من كان على حقٍّ فإنَّه لا يأبى من القضاء العادل، ولهذا كان المنافقون يقبلون بحكم النبي صلى الله عليه وسلم حين يكون الحقُّ إلى جانبهم لأنَّهم يثقون بعذله، وهذا من مظاهر تحكُّم هواهم ومرض قلوبهم كما أخبر تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٦١﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].

المطلب الرابع

إحسان المعاملة

تعد مادة (ح س ن) مفتاح المبادئ الأخلاقية في القرآن الكريم، ويلاحظ تكرار حضورها في الآيات التي تدعو إلى مكارم الأخلاق في القول والفعل، فقد أرشد الله تعالى إلى القول الحسن والأحسن، وإلى المعاملة بالإحسان وإتباع الأحسن، ودَرءِ السَّيِّئَةِ بالحسنة.

والْحَسَنُ خلاف القبيح والسَّيِّئِ^١، وهو حالة حسنة أو معنوية جميلة تدعو إلى قبول الشيء ورغبة النفس فيه، ويكون في الأقوال والأفعال والدَّوَاتِ والمعاني^٢، والإحسان أن يأتي بالفعل الحسن، والأصل أن مَنْ أقام حدًّا فقد أَحْسَنَ وإن أنزل بالمحدود ضررًا، ثم استعمل في النفع والخير خاصّة، ومن المفهومات القريبة له في المعنى: الإنعام والإجمال والنفع والإفضال^٣، وقد اقترن في القرآن بلفظ العدل الذي يعني أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له، فيكون الإحسان -بناء عليه- أن يعطي أكثر ممَّا عليه ويأخذ أقلَّ ممَّا له، أمَّا العكس فهو إساءة وبغي^٤، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ويلاحظ من تأمل الآيات الأخلاقية في القرآن وجود مستويين للمعاملة بالإحسان -باعتباره قريبًا للعدل- مع غير المسلمين:

المستوى الأول: السُّكُوت عن الإساءة وعدم رَدِّهَا بِمِثْلِهَا، ويُعبَّر عنها بمصطلحات العفو والصَّفح والمغفرة، وبينهما فروق، فالعفو عن المسيء ترك عقوبته، والصَّفح ترك لومه فهو أبلغ من العفو، والمَغْفرة مَحْوُ الإساءة وسترها.

ومن الآيات القرآنية المرغبة بهذا الأسلوب في التعامل مع المشركين قوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَنِيَّةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^٥... وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ

١ ينظر: مقاييس اللغة: مادة(حسن)، ٥٧/٢.

٢ معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة: ٣٦٠/١.

٣ الفروق اللغوية: ٢٣-٢٤.

٤ ينظر: الكليات: ٦٤٠.

﴿الْأُمُور﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣]. ومنها أيضًا قوله تعالى يخاطب النبي ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] أي لا عتب فيه ولا تعرض^١، وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الرَّحْف: ٨٩] جاءت هذه الآية بعد شكوى النبي صلى الله عليه وسلم لربه قومه فأمره الله تعالى أن يتركهم وشركهم، أي لا يؤنبهم فيه؛ وسوف يأتيه وعد الله تعالى بالنصر.

ومما جاء في شأن التعامل بهذا الأسلوب مع أهل الكتاب قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩-١١٠] فتمني أهل الكتاب ردة المسلمين عن دينهم حسدا لهم لا ينجع معها إلا التشاغل عنهم والاستقامة على الطاعة.

وقوله: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] ذهب بعض المفسرين إلى أن العفو والصفح في الآية يعود إلى القلة المستتناة وهي إما مؤمنة أو مسالمة^٢، نظير قوله تعالى مرشدا النبي صلى الله عليه وسلم إلى كيفية معاملة المؤمنين ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقيل بل يعود إلى اليهود عامة في حالة الإساءات الشخصية الصادرة منهم، ومن ثم فلا وجه لنسخها بآية التوبة ﴿قُلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] حيث إنه يمكن التوفيق بينهما بأن الثانية محمولة على من يشككون خطرا على أمن المؤمنين ودينهم^٣.

المستوى الثاني: رد السيئة بالحسنة وبالتالي هي أحسن، وهذه مرتبة فوق السابقة بكثير فهي ليست مجرد ترك، وإنما تتضمن بذلا وإقداً على فعل الخير، ومن الآيات الممثلة لهذا المستوى من الإحسان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤] ولا تقصد الآية تفاوت الحسنة عن السيئة -بدلالة تكرار لا- فهذا

١ المحرر الوجيز: ٣/٣٧٢.

٢ ينظر: الكشف: ٢/٢١٧، تفسير الرازي: ١١/٣٢٥، تفسير البضاوي: ٢/١١٩.

٣ ينظر: تفسير المنار: ٦/٢٨٦.

معلوم، بل المراد أنَّ الحسنة والسَّيِّئة متفاوتتان في أنفسهما، فإذا اعترضتك حسنتان فخذِ الحسنة التي هي أحسن من أختها فادفع بها السَّيِّئة التي تردُّ عليك من بعض أعدائك^١، ثمَّ أشار إلى علَّة الأمر وثمرته بأنَّ الإحسان يقطع روافد الإساءة ويزيل الأحقاد ويحيل الأعداء أصدقاء مسالمين للمُحْسِن. ولأجل مشقَّة ذلك على النفوس قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٥] أي من كان له نصيب وافر من البرِّ وكمال النفس^٢، وعدَّ القرآن من بلغ هذا المستوى من الإحسان في زُمرة أولي الألباب ووعدهم بعُقبى الدار ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الْأَبَّيْ (١٩) ... وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٢].

وثمة شاهد آخر على هذه المرتبة من الإحسان وهو قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] جاءت الآية في سياق الحديث عن المشركين لتفيد بأنَّ المقابلة بالإحسان مندوبة مع جميع النَّاس حتَّى المشركين منهم، وإذا كان القرآن قد أرشد إلى التَّعامل بالعفو والصَّفح والمَغْفرة مع الزَّوج والولد إن بدت منهما عداوة، لكنَّ الوالدين في الرُّؤية القرآنيَّة يحظيان بمنزلة خاصَّة مهما كانت عقيدتهما أو بدت عداوتهما، فالوالدان المشركان إن جاهداهما ولَّداهما ليرجع عن دينه فلا ينبغي أن ينفكَّ إحسانه وشكره لهما على فضلهما، إنَّما يقتصر على عدم طاعتهما في الدِّين فحسب، أمَّا في أمور الدُّنيا فعليه الصُّحبة بالمعروف كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وجدير بالذِّكر ما نبَّه إليه المفسِّرون من أنَّ سلوك هذا المنهج مطلوبٌ حين لا يؤدي إلى المساس بالدِّين أو الإضرار بالمروءة، فإنَّ بعض المسيئين يحملهم التَّعاضِي على التَّمادي في الإساءة، ومن كان هذا شأنه فدواؤه مجاهدته والإغلاط عليه^٣.

كما أنَّ مرتبة العفو تظهر فضيلتها عندما يكون المؤذي قادرًا على ردِّ الإساءة بمثلها، أمَّا إن كان عاجزًا -سواء في نفسه أو لعدم امتلاكه قوَّة رادعة- فلا يسمى تركه للأذى حينئذ عفوًا.

١ الكشاف: ٣٨٣/٥.

٢ ينظر: تفسير البضاوي: ٧٢/٥.

٣ ينظر: تفسير البضاوي: ٩٥/٤، روح المعاني: ٦٢/١٨.

الخاتمة

أولاً: النسق الكلي لموضوع البحث

في ضوء ما تقدم يمكن صياغة التصور الكلي لموضوع البحث وفق مستويين:

المستوى الأول: الجانب النظري ويعني منهج القرآن في بناء العقلية الإسلامية الصحيحة إزاء تعاملها مع الأذى ودفعه.

المستوى الثاني: الجانب العملي ويعني منهج القرآن في تقويم السلوك الإنساني لدى تعرض المسلم للإيذاء من قبل غير المؤمنين.

وفيما يخص المستوى الأول، فإن القرآن الكريم يؤسس منهجه على أربعة محاور:

الأول: تقرير أن الأذى ظاهرة مستمرة ومطردة، فلا يكاد يسلم إنسان من أذى يصيبه من قبل الآخرين القريبين منه أو البعيدين نتيجة الاحتكاك بهم والتفاعل معهم، بسبب اختلاف المصالح والتنازع على المنافع فكيف إذا كان الاختلاف على أساس الدين والاعتقاد؟!

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يبلو المؤمنين بالكافرين -مع أنه قادر على إهلاك الكافرين بطرفة عين- ليختبر جهاد المؤمنين وصبرهم، وينقي إيمانهم من الشوائب والادعاءات لينالوا الثواب أو العقاب عن استحقاق، فضلاً عن أن التدخل الإلهي المباشر في ساحة الصراع بين الحق والباطل من شأنه أن يلغي الإرادة الإنسانية في اختيار طريق الإيمان أو الكفر بالنسبة لفريق الباطل؛ كما أنه يعوّد المؤمنين على التراخي والتعاس والانشغال بمتع الدنيا على حساب إصلاح دينهم وآخرتهم، من أجل هذا يدل الله الغلبة للكافرين أحياناً إما بسبب تقصير المؤمنين في الإعداد أو وقوعهم في الأخطاء والخطايا، ومع هذا فإن المداولة في جميع حالاتها خير للمؤمنين إذا فهم المؤمنون مغزاها واستطاعوا توظيفها فيما يرضي الله تعالى.

ومن هذا المنطلق أيضاً-الذي يرسخ في المؤمن عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر والرضا بالابتلاء والصبر عليه- يرشد القرآن المؤمنين إلى الطريقة اللائقة في التعامل الشعوري مع الظاهرة، فذم اليأس والضجر والتشكي، وحذر من الكفر بالله تعالى والتشكيك بوعده، وأثنى على المؤمنين الصادقين الذين يتلقون البلاء بقلوب صابرة ونفوس مطمئنة بوعده الله تعالى ونصره.

الثاني: الأمر بمدافعة الإيذاء سنة إلهية أيضاً

قد يُتوهم من الفقرة السابقة أنَّ الإيذاء بما أنَّه حاصلٌ وفق سنن الله تعالى وبمقتضى حكمته، فلا حاجة إلى اتِّخاذ الأسباب لدفعه؛ لأنَّه أمرٌ مقدَّر لا مفرَّ منه، ولا سبيل للتعامل معه إلا بالاستسلام له وانتظار الفرج من الله تعالى.

وهذا الوهم ناشئ عن عدم الوعي بفقهِ السنن الإلهية الاجتماعية، وما يستلزمه العمل بمقتضاها؛ إذ إنَّ الآيات القرآنية المقررة لسنة الابتلاء قد تضمَّنت إعلاناً صريحاً بوجوب المجاهدة في دفعه، فضلاً عن أنَّ سنة العمل بالأسباب جزء من السنن الإلهية الاجتماعية التي حفلت آيات القرآن الكريم بالدعوة إليها وضرورة الأخذ بها، "بل إنَّ السنن الأخرى تقوم كلها على سنَّته تعالى في الأسباب بصورة مباشرة أو غير مباشرة، حتَّى لتبدو للمتأمل فيها كأنَّها من مفردات سنة الله تعالى في الأسباب وليست سنناً مستقلة، وكلُّ السنن تبقى مع ذلك قائمة على سنة الله تعالى في الأسباب ومعمدة عليها".^١

ولمَّا كان المقصد من قضاء الله تعالى للمؤمنين بتسلُّط الكافرين عليهم أن يمحصَّ الأولين ويمحق الآخرين فإنَّه لا يمكن للتمحيص أن يتحقَّق من دون جهاد، كما أنَّ دفاع الله تعالى عن المؤمنين ونصره لهم مقدَّر في علمه تعالى مقروناً بسببه وهو صدق إيمانهم وصبرهم وإعدادهم العُدَّة.

وهكذا فإنَّه على الإنسان أن يتدبَّر فيما يتعرَّض له من سوء، ويبحث عن جوانب التقصير عنده فيعمل على تقويمها وإصلاحها والعمل وفق سنن الله تعالى في النهوض لينال وعد الله له بالنصر كما قال تعالى ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقد مرَّ في طيَّات البحث مدى اقتران الأمر بالأخذ بالأسباب في كلِّ موقف يدعو إلى التمسُّك بالإيمان والصبر، مثل: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿وَأَعِدُّوا﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] و﴿ادْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧] ﴿وَقَاتِلُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]

^١ السنن الإلهية الكونية والاجتماعية، رشيد كهوس: ١٩١.

الثالث: الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى

إنَّ الرُّكُونَ إلى الأسباب الواجب اتِّخاذها لا يقلُّ نكرًا عن التواكل والخمول والاستسلام للراحة، فالواجب على المسلم أن يأخذ بالأسباب ويؤدِّي واجبه في السَّعي والكدح من غير أن يعتقد أنَّ الأسباب هي المنشئة للمسببات، بل يردُّ الأمر كُلَّهُ إلى الله تعالى خالق الأسباب، وثمَّة شواهد كثيرة -ورد ذكر بعضها في البحث- تؤكد معيَّة الله تعالى للمجاهدين الصادقين ونصره لهم ﴿يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠] ﴿فَتَاوَنَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِهِمْ﴾ [الأنفال: ٢٦] ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥] ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢].

وقد أرشد القرآن الكريم إلى الاستتصار بالله تعالى وطلب العون منه والتوكل عليه وحده، وحذَّر الإنسان من الاغترار بعمله ومن نكران نعمة الله تعالى عليه في كشف ما ساءه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ ٥٣ ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ٥٤ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥٥] ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزُّمَر: ٨] ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنَّْا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٩] ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

الرابع: دفع الأذى وإزالته من مقاصد القرآن الكبرى

من المعلوم أنّ من مقاصد القرآن الكبرى الدّعوة إلى توحيد الله تعالى، وتركية النفس، كما أنّ من مقاصده تكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات، ومن مظاهر تكريمه تسخير الكون له، ورزقه من الطيبات، وصيانة حقوقه من التعرّض للأذى والتي منها حق اختيار العقيدة والدّود عنها، وحقّ الدّفاع عن النفس والعرض، فقد تواترت آيات القرآن الكريم المشرّعة لكلّ ما فيه حفظ الإنسان -دينه ونفسه وماله- من الاعتداء.

ومن الأدلّة التي مرّت في البحث تؤكّد هذا المقصد: عدم تشريع القتال في العهد المكي، مشروعية المقاصّة في حالات الاعتداءات الفردية، وجوب مجاهدة الكفار بالحجّة في كلّ وقت، وجوب إعداد العدة والتأهّب لملاقاة العدو من أجل كسر شوكته، قبول الميول السّلميّة من غير المؤمنين وإجابتهم إليها، قتال الأعداء المحاربين، وجوب الهجرة من الموضع الذي لا يتمكّن الإنسان فيه من إقامة دينه، مشروعية نصر المستضعفين من الدولة الإسلامية القوية لرفع الظلم عنهم.

أما المستوى الثاني من تصوّر البحث والذي يعنى بإبراز منهج القرآن العملي في دفع إيذاء غير المؤمنين، فإنّ القرآن الكريم يؤسس منهجه على محورين:

المحور الأول: اختلاف الدفع باختلاف الموارد

تتسم القوانين الإلهية المنظّمة لحياة الناس بالمرونة والنسبيّة، ومردّد ذلك أنّ الإنسان نفسه دائم التقلب غير منضبط السلوك يستجيب لمسؤولياته بحسب المثيرات حوله وتبعاً لقوّته وضعفه، ولهذا لم تقدّم النصوص القرآنيّة علاجاً واحداً مطّرداً لكلّ حالات الإيذاء، وإنّما أعطت المتعرّض للأذى مفاتيح التعامل مع شتى صنوف الأذى وأفسحت له المجال لتقدير كلّ حالة على حدة.

ففي حالات الإيذاء الفردية يُنظر إلى حال كلّ من فاعل الأذى والمفعول به؛ فإن كان المؤذي ممّن يغريه العفو والسكوت بالإساءة والتماذي في العدوان، وكان المؤذى مالكا لأسباب القوة فإنّ الدّفع الأحسن يكمن في استعمال القوّة لردّع المؤذي.

أمّا إن كان المؤذي ممّن يحفّزه العفو والتغاضي على النّدم والتوبة، أو كان المؤذى غير مُستعدّ للردّ إمّا لمشكلة في نفسه أو في محيطه فإنّ السكوت في هذه الحالة هو الدّفع بالأحسن؛ لما قد تقضي إليه المواجهة من حدوث ما لا يحمد عقباه.

أمّا في حالات الاعتداءات الجماعية فإنّ النصوص القرآنية تتحرّك باتجاه إيجاب القتال والحضّ عليه ودمّ الاستسلام، وتترك لأولي الأمر تقدير فرض حالة السّلم أو الحرب بشرط أن يبقى المؤمنون في موقع القوّة دائماً.

ومما يلاحظ أيضاً من خلال سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع إيذاء الكافرين أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان صابراً في كلّ مراحل دعوته على ما يصيبه من أذى طالما كانت حدود الأذى في إطار الإيلام النّفسي، حتى إذا داهم الخطر حياة الأفراد في الدّولة الإسلامية وهدد أمنهم هبّ النبي صلى الله عليه وسلم لمدافعتة.

بدأ أذى المشركين غير مضرّ فلما أضّرّ بالمؤمنين أمروا بالهجرة، ثمّ كان في أوائل العهد المدني إيذاء أهل الكتاب في حدود الأذى القولي، فلما تطاولوا إلى نقض العهد وتدبير المكائد للنيل من النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه نزلت آيات القرآن تأمر بتأديبهم سواء بالقتل أو الإجماع.

ولمّا لم يصل أذى المنافقين إلى حدّ الضرر -خوفاً على أنفسهم أن يفتضح أمرهم- لم يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم إلا على سبيل التهديد والإنذار.

المحور الثاني: الدّفع المشروع ما كان منزّهًا عن الظلم والاعتداء.

إنّ القرآن الكريم في دعوته للدّفاع عن الدّين والنّفوس يضع الحدود في عمليّة المقاصّة؛ لكيلا يقع الإفراط في معاقبة المؤذي، وتخرج المجازاة عن مقصدها، وقد مرّ في البحث الإشارة إلى ما كان عليه حال الجاهلية من أخذ الشّريف بالشّريف، وإعلان الحرب على قبيلة بأسرها من أجل الانتصار للمقتول إن كان المقتول من أصحاب الرّعاية وغير ذلك من صور الانتقام التي حرّمها القرآن الكريم؛ فحدّرت الآيات القرآنيّة المشرّعة للمقاصّة -المكيّة والمدنيّة- من كافة أشكال الاعتداء، والتي منها: ابتداء القتال من غير سبب، والمبادرة إلى الإيذاء بمجرد توقّع الاعتداء، ومقابلة الخيانة بخيانة، وأوصت بقبول ظواهر الناس الذين أظهروا الإسلام أو المسالمة، وميّزت في المعاملة بين الأعداء المحاربين والأعداء المسالمين، فحدّرت من موالاة المحاربين، وحثّت على برّ المسالمين، وأوجبت في كليهما المعاملة بالقسط.

المحور الثالث: الدفع بالتجنّب لا يعني الانعزال ولا المساومة على المبادئ ولا التراخي في تبليغ الدّعوة.

إنّ سلوك منهج التجنّب في التعامل مع الأذى لا يقتضي الخروج من الديار دائماً، فقد يكون تقادي موقف الأذى أو تجاهله والانشغال بالدعوة كافياً لتحقيقه.

ولكن ربّما يحاط المسلم بجوّ خائق لا يسمح له بإقامة شعائر دينه بوجه من الوجوه، فعندئذ يشرع له الهجرة بشرط أن يكون قد أعذّر في تبليغ الحُجّة؛ وأن تكون هجرته من أجل تهيئة أسباب التمكين والاستعداد للمواجهة لاحقاً.

وقد لوحظ سابقاً كيف واجه القرآن مDAHات المشركين في العهد المكي بالرّفص القاطع، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يردّ عليهم بالحجّة بقوة غير آبه بانفعالاتهم ولا مبالٍ بسخطهم على الرّغم مما كانوا يتمتّعون به من قوّة ووجاهة، وفي ذلك هداية لأصحاب الدّعوة الإسلاميّة وحملّة الرّسالة المحمّديّة ألا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم، ولا يعيقهم عن تبليغها سطوة ظالم.

ثانيًا: النتائج

من أبرز النتائج التي توصل إليها البحث:

- ١- ينطوي مصطلح الدَّفْع على معنيي الإبعاد والنتحية.
- ٢- تتَّسع دلالة الأذى في اللُّغة لتشمل كلَّ ما يسوء قليلاً كان أو كثيراً، خفيفاً أو شديداً.
- ٣- اتَّضح من خلال البحث تطابق استعمال العرب للدَّفْع والأذى مع الدَّلالة اللغوية للمفردتين.
- ٤- لم تخرج الاستعمالات القرآنيَّة عن معاني الدَّفْع اللغوية، كما أنَّها أكَّدت على اتِّساع مفهوم الأذى بحيث يشمل مراتب متفاوتة من الإيلام النَّفسي والجسدي، تبدأ بالمكروه اليسير وتصل إلى الضَّرر الكبير.
- ٥- دلَّت بعض المفردات القرآنيَّة المرادفة للدَّفْع أنَّ الدَّفْع يكون في بعض حالاته إيذاء كما تدلُّ عليه مفردات (الصدِّ والمنع والدَّع) ويكون معالجة للأذى كما تدلُّ عليه مفردات (الكفِّ والرَّد).
- ٦- انبثقت ظاهرة الأذى من اللَّحظة التي أَعْلَمَ الله تعالى فيها ملائكته بإقامة خليفة في الأرض مستعدِّ بطبعه لنوازع الخير والشرِّ، وبدأت وقائعها الفعلية مُذْ أضمر إبليس العداوة لآدم عليه السلام وذريته، وما تزال في توسُّع وازدياد إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومنَّ عليها.
- ٧- ترتبط ظاهرة الأذى بجملة من السُّنن الاجتماعية منها سنَّة التدافع القائمة على أساس الاختلاف البشري، وسنَّة التداول بمعنى الانتقال المستمرِّ من حالة لأخرى، وسنَّة الابتلاء باعتبارها الكاشفة عن غاية الإدالة.
- ٨- أكَّد القرآن الكريم على جملة من التدابير الوقائية لدفع إيذاء غير المؤمنين، هي: الإعداد العقدي، وأخذ الحذر، ومسالمة الآخرين، وعدم موالاة الأعداء غير المؤمنين، وإعداد الوسائل المادية.
- ٩- مقوِّمات العُدَّة النفسيَّة حيال ظاهرة الأذى هي: الإيمان بالقضاء والقدر، والصَّبْر، والتوكُّل على الله تعالى، والتزامُ شرائعه.

١٠- المقصود بالصَّبر بحسب السياقات القرآنية أن يمتلك الإنسان قدرة نفسية كافية على المقاومة والمثابرة وسط كل الصَّعوبات دفاعاً عن مبادئه. وهو بهذا المعنى ينافي كل معاني العجز والاستسلام والضعف والاستكانة.

١١- أساس الإعداد العقدي إزاء التعامل مع ظاهرة الأذى يقوم على مبدأ وجوب الأخذ بالأسباب وعدم الاعتماد عليها، أي إنَّه عمل الجوارح وتسليم القلب.

١٢- أخذ الحذر لا يعني بدار المعادة أو افتراض سوء الظن ابتداءً، وإنما هو الاحتراس والتزام الحيطة ممن يُتوقَّع منه إيقاع الأذى.

١٣- الحكمة من النهي عن موالاة الأعداء لما يترتب على موالاتهم من إضرار بالمسلمين وإضعاف لموقفهم، وتشمل الموالاة: مظاهرتهم ضد المؤمنين بالنفس والمال، وإخبارهم بأسرار المؤمنين وإيقافهم على عوراتهم، وتولييتهم أمر المسلمين وتسليطهم عليهم، ومحبتهم ومحبة دينهم.

١٤- لا تدخل التقية ضمن الموالاة فهي رخصة أبيحت في ظروف محددة بشرط ألا يرجع فيها ضرر إلى الغير.

١٥- ذكر القرآن عددًا من الوسائل المادية المطلوبة في دفع إيذاء غير المؤمنين هي: إنفاق المال في سبيل الله، وإعداد القوة وتجهيز آلة الحرب، وتكثير عدد المسلمين، والمرابطة على الثغور.

١٦- اتخاذ المسلم للتدابير الوقائية لا تعني حماية نفسه من وقوع الأذى عليها، ولكنها تندرج تحت سنة الأخذ بالأسباب لتفادي وقوعه ما أمكن.

١٧- يوجب المنهج القرآني على الإنسان المسلم التصدي للأذى حال وقوعه، ومواجهته بحسب مقدور الإنسان بالقول أو الفعل بحيث يُوقفه أو يحدُّ منه، فإن لم تتوفَّر القدرة فلا أقلَّ من أن يَسَلِّم الإنسان على دينه ونفسه بمجانبة مصدر الأذى؛ ساعياً في أسباب دفعه ومنتظراً فرج الله بإزالته.

١٨- تبين بالاستقراء أن أساليب القرآن في مدافعة الأذى تندرج تحت أسلوبين رئيسين؛ الأول: أسلوب المواجهة بالأساليب القولية أو الوسائط الحسية، والثاني أسلوب التجنب.

١٩- تشمل الأساليب القولية لدفع الأذى: إقامة الحجج على المؤذي ودفع شبهاته، والوعظ والتذكير بسوء العاقبة للمؤذي في الدنيا والآخرة.

٢٠- طريقة القرآن في دفع الأذى بالوسائل الحسيّة تستهدف بالدرجة الأساس إصلاح واقعة الأذى والارتقاء بأطراف الواقعة فكرًا وسلوكًا.

٢١- لم تكن البيئة المكية قبل الهجرة مهيةً لقيام فريضة الجهاد الحسي فيها، ومن ثمّ توجّهت عناية القرآن الكريم إلى تربية النفوس المؤمنة على فضيلة الصبر بما تحمله من مقاومة داخلية للأذى وسكون ظاهري تجنّبًا لعواقب سيئة.

٢٢- تبقى المدافعة القولية سلاحًا مسلطًا في وجه الظالمين في كلّ وقت، والآيات المكيّة حافلة بالتنديد بمقولات المشركين، والحجج والبراهين على بطلان معتقداتهم، والنذر بالعقوبات العاجلة والآجلة على تناول ألسنتهم وسوء فعالهم.

٢٣- تُحمّل الآيات المشرّعة للمدافعة في العهد المكي على حالة الاعتداءات الفردية، مع ترجيح القرآن لكفّة الصبر والإصلاح بالعمو والدفع بالإحسان.

٢٤- ارتبطت الآيات المبيحة للمدافعة بالوسائل الحسية والمرغبة فيها في العهد المدني بجملة من التشريعات والقيود الضامنة لسلامتها من الإفراط أو التفريط.

٢٥- التأكيد على استمرارية الدعوة إلى دين الله تعالى في كلّ موقف، وفتح باب التوبة في كلّ لحظة، وأن تتوقف حالة المواجهة بحصول الغاية المتمثّلة في الإصلاح واستتباب الأمن.

٢٦- تبين من خلال النصوص القرآنية أن أسلوب التعامل مع الأذى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من خلال أسلوب التجنب لم ينحصر تطبيقه في العهد المكي فحسب، وإنما كان - في العهدين المكي والمدني - حلًّا يرجع تقديره لكل حالة بحسبها.

٢٧- قد يكون تجنب الأذى محمودًا بعد استقصاء وسائل الدّفع المباشرة، وقد يكون مذمومًا وهو ما كان مفارقةً للواقع المُستعصي على الاستجابة قبل استفراغ الوُسع في استمالته إلى جانب الحقّ.

٢٨- لا يقتصر تجنب الأذى على مفارقة المؤذي وقطع الصلة به فحسب، وإنما يتجه إلى معنى آخر هو ترك المؤذي حال إيدائه مع استمرار دعوته في سائر الأوقات.

٢٩- تجب الهجرة من الموضع الذي لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه.

٣٠- ثمة أعمال رافدة لأسلوب الدفع بالتجنب تحيله من عمل سلبي إلى عمل إيجابي، هي: الدعاء لله تعالى، ترك طاعة المؤذي، طلب النصرة، إحسان المعاملة.

٣١- يؤكد البحث من خلال الاستقراء على تكامل المنهج القرآني في التعامل مع ظاهرة الأذى، ومراعاته لمصلحة كافة الجوانب المحيطة بالظاهرة سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

ثالثاً: التوصيات

بما أن البحث قد تناول بالدراسة جانباً من ظاهرة الأذى فإنَّ أبرز ما توصي به الباحثة هو القيام بدراسات علمية متخصصة تحيط بمجموعها بدراسة الظاهرة من كافة أبعادها لاستنباط المنهج القرآني المتكامل في التعامل معها.

وممّا توصي به الباحثة أن يُعطى التفسير الموضوعي حقّه من التدريس والاهتمام في المؤسسات التعليمية باعتباره تخصّصاً علمياً له أصوله ومناهجه.

والحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: فهرس الكتب

١. أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
٢. أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٣. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، د.ط، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٤. أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، دار إقرأ، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٥. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
٦. إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: أيمن عبد الرزاق الشوا، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
٧. أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
٨. إسفار الفصيح، أبو سهل محمد بن علي بن محمد الهروي النحوي، تحقيق أحمد بن سعيد قشاش، رسالة علمية قدمت إلى كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ.
٩. الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
١٠. إصلاح المنطق، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ابن السكيت، تحقيق: أحمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٤٩م.
١١. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٠م.

١٢. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.
١٣. الإنسان مسير أم مخير، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق،
ودار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
١٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بـ(تفسير البضاوي)، ناصر الدين أبو
الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البضاوي، إعداد: محمد عبد الرحمن
المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م
١٥. بحر العلوم (تفسير السمرقندي)، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم
السمرقندي، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود وزكريا النوتي، دار الكتب العلمية،
بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م
١٦. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل
عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
١٧. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: علي شيري،
دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
١٨. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي،
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية-عيسى البابي الحلبي، ط١،
١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
١٩. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب
الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٤١٦هـ-
١٩٩٦م
٢٠. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي،
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، د.ت.
٢١. بنو إسرائيل في القرآن والسنة، محمد سيد طنطاوي، دار الشروق، القاهرة،
ط٢، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٢٢. تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي،
تحقيق: الدكتور عبد الصبور شاهين، سلسلة التراث العربي، إصدار المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م
٢٣. التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، محمد عز الدين توفيق، دار السلام،

القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢٤. تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي)، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ.

٢٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤

٢٦. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، طهران، ط١، ١٣٨٥هـ.

٢٧. التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي، ضبط وتصحيح: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م

٢٨. التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢٩. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م
٣٠. التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٥م.

٣١. التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دار الغرب الإسلامي، دمشق.

٣٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

٣٣. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٣٤. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م.

٣٥. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المنار، القاهرة، ط٢، ١٣٦٦هـ-١٩٤٧م.

٣٦. التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، زيد العيص، دار مودة، القاهرة، ط٢.

٣٧. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

٣٨. تفسير مقاتل بن سليمان، دراسة وتحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء

- التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م
٣٩. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة والانباء والنشر.
٤٠. التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف بن المناوي، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م
٤١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٤٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، الجيزة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م
٤٣. الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، اعتنى به: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، قصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ
٤٤. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد الأحمدى أبو النور، دار السلام، ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م
٤٥. الجامع الكبير، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٤٦. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م
٤٧. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق: د. رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٧م
٤٨. الجواهر المضوية في طبقات الحنفية، عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، ١٣٣٢هـ.
٤٩. الحدود الأنيفة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٥٠. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٥١. خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.
٥٢. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د.ط، د.ت.
٥٣. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، د.ط، د.ت.
٥٤. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد، الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
٥٥. دستور الأخلاق في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة، ط١٠، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
٥٦. الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
٥٧. ذم الهوى، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
٥٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
٥٩. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٦٠. زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت.
٦١. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض،
٦٢. سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٦٣. سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم-صور مقتبسة من القرآن، محمد عزة دروزة،

- منشورات المكتبة العصرية، صيدا، د.ط، د.ت.
٦٤. السيرة النبوية في القرآن الكريم، عبد الصبور مرزوق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، د.ت.
٦٥. السيرة النبوية، جمال الدين أبو محمود عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
٦٦. شرح حديث لبيك اللهم لبيك، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، تحقيق: الوليد بن عبد الرحمن آل فريان، دار عالم الفوائد، مكة، ط١، ١٤١٧هـ.
٦٧. شرح ديوان الحماسة، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، تحقيق: عريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٦٨. شرح ديوان الحماسة، يحيى بن علي بن محمد الشيباني التبريزي، دار القلم، بيروت.
٦٩. شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، أبو العباس ثعلب، تحقيق: د. حنا نصر الحتي، سلسلة شعراؤنا، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
٧٠. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٣، د.ت.
٧١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.
٧٢. صحيح مسلم في كتابه المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، اعتنى به: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٧٣. الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البغدادي المعروف بابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٧٤. طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٧٥. طريق الهجرتين وباب السعادتين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، إشراف بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة ط١، ١٤٢٩هـ.

٧٦. ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٧٧. العين مرتبًا على حروف المعجم، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

٧٨. الغربيين في القرآن والحديث، أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي، تحقيق: أحمد فريد المزدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٧٩. فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩

٨٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دمشق، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

٨١. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م

٨٢. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

٨٣. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

٨٤. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (الكشاف)، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م

٨٥. الكشف والبيان المعروف (تفسير الثعلبي)، أبو إسحاق أحمد المعروف بالثعلبي، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م

٨٦. الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى

الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢،
١٤١٩هـ-١٩٩٨م

٨٧. لا وجوه ولا نظائر في كتب الوجوه والنظائر، عبد الجبار فتحي زيدان، الجيل
العربي، الموصل، ط١.

٨٨. لباب الآداب، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي
النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م

٨٩. لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، تحقيق: عبد
الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

٩٠. لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، د.ت.

٩١. مباحث في التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً، عبد السلام حمدان اللوح،
عبد الكريم حمدي الدهشان، غزة-فلسطين، ط٢، ٢٠٠٦م.

٩٢. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد
محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

٩٣. مجموع الفتاوى، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني، المحقق:
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة
المنورة، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٩٤. محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد
فؤاد عبد الباقي، مطبعة البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٣٧٩هـ-١٩٥٧م.

٩٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن
عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،
١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

٩٦. المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي،
دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

٩٧. مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، أبو البركات عبد الله بن أحمد
بن محمود النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي ومحيي الدين مستو، دار الكلم الطيب،
بيروت، د.ط، د.ت.

٩٨. المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية، سلسلة المفهومات القرآنية، الدكتور عبد الرحمن حلي، دار الملتقى، حلب
٩٩. المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.
١٠٠. معارج التفكير ودقائق التدبر، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
١٠١. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد النمر، وجمعة ضميرية وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ.
١٠٢. معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة، ط١، ١٤٠٩هـ.
١٠٣. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، مؤصل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها، محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
١٠٤. معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم، عبد الصبور مرزوق، دار الشروق، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
١٠٥. معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، انتشارات ناصر خسرو، ط٢، ١٣٤٣هـ.
١٠٦. معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط١، ١٤١٢هـ.
١٠٧. معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
١٠٨. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٣٦٤هـ.
١٠٩. المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، إعداد: بسام رشدي الزين، إشراف: محمد عدنان سالم، دار الفكر، دمشق، ١٤١٦هـ، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
١١٠. المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته، تأليف وتحقيق: قسم القرآن بمجمع

- البحوث الإسلامية، بإشراف محمد واعظ زاده الخراساني، ط ٢، ١٤٢٧ هـ.
١١١. معجم مقاليد العلوم، أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد إبراهيم عبادة، ط ١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
١١٢. المغرب في ترتيب المغرب، أبو الفتح ناصر الدين المطرزي، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط ١، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
١١٣. مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠ هـ.
١١٤. المفردات في غريب القرآن (مفردات الراغب)، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
١١٥. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار الساقى، ط ٤، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
١١٦. المفهومات الأخلاقية-الدينية في القرآن، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: عيسى علي العاكوب، دار الملتقى، حلب، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
١١٧. مقال في الإنسان دراسة قرآنية، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، د.ت.
١١٨. مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
١١٩. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت.
١٢٠. من أسرار التعبير القرآني: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٢ هـ - ٢٠١٢ م.
١٢١. من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ط ٢، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
١٢٢. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
١٢٣. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد ابن

- الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، د.ط، د.م.
١٢٤. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد الأندلسي، تحقيق الدكتور نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، د.ت.
١٢٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.ت.
١٢٦. النكت والعيون (تفسير الماوردي)، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، مراجعة السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، د.ط، د.ت.
١٢٧. الهداية إلى بلوغ النهاية، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، أصله مجموعة رسائل جامعية بإشراف الدكتور الشاهد البوشيخي، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
١٢٨. الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن قائد الريمي، إشراف بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، د.ط، د.ت.
١٢٩. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
١٣٠. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

ثانيًا: فهرس الرسائل والبحوث العلمية

١. إن وإذا ولما في سياقات الابتلاء بالخير والشر في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٧، عدد ٣٣، ١٤٢٦هـ.
٢. التبيان لمعاني مفردة السوء في القرآن، فهد بن متعب آل متعب الدوسري، بحث علمي منشور في مجلة تبيان للدراسات القرآنية، العدد السادس عشر، ١٤٣٥هـ.
٣. سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم، خالد بن موسى الحسني الزهراني، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، بإشراف سليمان الصادق البيرة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٤. سنة التدافع من منظور إسلامي، معاذ بن محمد عبد الله أبو الفتح البيانوني، بحث منشور في مجلة الإسلام في آسيا، المجلد الثامن، العدد الأول، ٢٠١١م.
٥. السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، محمد السيبي، مجلة رسالة القرآن، المغرب، العدد الأول، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
٦. السنن الإلهية الكونية والاجتماعية لطائف وبصائر، رشيد كهوس، بحث منشور في مجلة تدبر، العدد الأول، السنة الأولى، ١٤٣٨هـ-٢٠١٦م.
٧. السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، عمر حيدوسي، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية تخصص كتاب وسنة، بإشراف عبد الحميد بو كعباش، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
٨. سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، حسن بن صالح الحميد، رسالة دكتوراه بإشراف ناصر العمر، دار الهدى النبوي، مصر، ودار الفضيلة، السعودية، ط٢، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
٩. الشيطان خطواته وغاياته دراسة قرآنية موضوعية، وائل عمر علي بشير، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التفسير وعلوم القرآن استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بغزة، إشراف عبد السلام حمدان اللوح، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٠. قاعدة التصحيح القرآني لمفاهيم المصطلحات العربية العشوائية، جلول دكدك، جريدة المحجة المغربية، العدد ٢٣٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١١. المجتمع العربي قبل الإسلام دراسة قرآنية، عبد الرحمن حللي، مجلة التسامح، سلطنة عمان، العدد التاسع، ٢٠٠٥م.
١٢. المطاعن الموجهة إلى النبي صلى الله عليه وسلم والرد عليها في القرآن الكريم، أسماء عطا الله، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن في كلية الشريعة، جامعة دمشق، بإشراف محمد يوسف الشربجي، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.
١٣. مفهوم البر والمنظومة الأخلاقية القرآنية، عبد الرحمن حللي، مجلة الأخلاق الإسلامية، بريل، العدد الأول، ٢٠١٧م.
١٤. منهج القرآن الكريم في إقامة الدليل والحجة، مجاهد محمود أحمد ناصر،

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، بإشراف: محسن سميح الخالدي، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٥. الولي والولاية في القرآن الكريم، هارون أوغموش، مجلة كلية الإلهيات، جامعة نجم الدين أربكان، العدد ٤٠، ٢٠١٥م، ص ٣٧-٦٢.

ثالثاً: فهرس مواقع الانترنت

١. سنة التدافع، محمود يوسف سلامة، موقع يقظة فكر:

<http://feker.net/ar/2012/05/22/11336/>

فهرس الأحاديث النبوية

رقم الصفحة	طرف الحديث
٥٢	انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا
٥٠ ، ٢٩	قال الله عزَّ وجلَّ: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُوبُ الدَّهْرَ
٥٠	واعلم أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ
٨٦	وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ
٣٠	يا مَعْشَرَ مَنْ قَدْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ

فهرس الأعلام

اسم العَلم	رقم الصفحة
أحمد بن فارس بن زكريا القزويني=ابن فارس	١١، ١٣، ٧٣
أمية بن أبي الصلت	٧٢
أيوب بن موسى الحسيني=الكفوي	٧٣
بشر بن أبي خازم الأسدي	٤٥
جساس بن مرة البكري	١٦
الحسين بن محمد بن المفضل=الراغب الأصفهاني	١٣، ٤٣، ٤٩، ٥٤، ٨٤، ٨٥
الخليل بن أحمد الفراهيدي	١٣
زهير بن أبي سلمى	١٦
عامر بن الطفيل العامري	١٤
عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي	٢٢، ٢٠٥
عبد الله بن عباس	٨٥
عفيرة بنت عباد الجديسية	١٤
علي بن محمد بن حبيب الماوردي	٨٤، ٨٥
العوراء بنت حرب	١٧٧
قريط بن أنيف العنبري	١٥
قيس بن الخطيم الأوسي	١٥
محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية	٧٨
محمد بن جرير بن يزيد الطبري	٣٦، ١٧٩
محمد الطاهر بن عاشور	٤٦، ١٠٨، ١١٠، ١٧٧، ١٨١، ٢٠٣
محمد بن عبد الله دراز	١٦٦
محمد بن عمر بن الحسين، الفخر الرازي	٣٣، ٣٥، ٩٦، ١١١

١٠٦	محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي
٣٧	محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي=أبو حيان
١٧٧	النضر بن الحارث

فهرس الأشعار

الصفحة	البحر	القافية	المطلع
١٥	الطويل	تقارب	أربت بدفع الحرب
١٤	الطويل	موكب	وإني وإن كنت
١٥	الطويل	الجنادع	ولا أدع ابن العم
١٤	الطويل	الجزل	فموتوا كراما
٧١		الأغلال	أيما شاطن
١٦	مجزوء الرمل	شمالي	وأرى للجار
١٥	الوافر	الجاهلينا	ألا لا يجهلن
١٦	البسيط	شيبانا	لو كنت من مازن
١٦	الوافر	لساني	وذبي عن مآثر
٤٤	الوافر	نداها	له كفان

فهرس المحتويات

شكر وتقدير	٢
مَقْدَمَة	٣
الفصل الأول: دراسة المصطلحات الواردة في البحث وما يتصل بها	١٠
المبحث الأول: دلالة مادتي "أذى" و"دفع"	١١
المطلب الأول: الدلالة المعجمية للمفردتين	١١
أولاً: تعريف الدَّفع	١١
ثانياً: تعريف الأذى	١٣
المطلب الثاني: الدلالة الاستعمالية	١٤
أولاً: استعمال المفردتين في العصر الجاهلي	١٤
ثانياً: استعمال المفردتين في القرآن الكريم	١٧
المبحث الثاني: دلالة المفردات ذات الصلة بمعنى الدفع والأذى	٣٩
المطلب الأول: المفردات ذات الصلة بمعنى الدفع	٣٩
أولاً: الدَّرْع	٣٩
ثانياً: الدَّسَر	٤٠
ثالثاً: الدَّعْ	٤١
رابعاً: الدَّبُّ	٤١
خامساً: الرَّدُّ	٤٢
سادساً: الزَّيْنُ	٤٣
سابعاً: الصَّدُّ	٤٣
ثامناً: الصَّرْف	٤٤
تاسعاً: الكَفُّ	٤٤
عاشراً: المنع	٤٥
حادي عشر: الوقاية	٤٦
المطلب الثاني: المفردات ذات الصلة بمعنى الأذى	٤٧

٤٧	أولاً: البغي
٤٨	ثانيًا: السُّوء
٤٩	ثالثًا: الشرّ
٤٩	رابعًا: الضّرر
٥٢	خامسًا: الظلم
٥٣	سادسًا - العدوان
٥٥	سابعًا - الفساد
٥٧	الفصل الثاني: نشوء ظاهرة الأذى في ضوء دلالة الآيات القرآنية
٥٩	المبحث الأول: سنن الله الاجتماعية
٦٠	المطلب الأول: سنة التدافع
٦٣	المطلب الثاني: سنة التّداول
٦٥	المطلب الثالث: سنة الابتلاء
٧٠	المبحث الثاني: دور الشيطان في إيقاع الأذى
٧١	المطلب الأول: التعريف بالشيطان
٧١	أولاً: الجذر والاشتقاق اللغوي
٧٢	ثانيًا: المعنى الشرعي
٧٢	ثالثًا: العلاقة بين إبليس والشيطان
٧٦	المطلب الثاني: علاقة الشيطان بالإنسان
٧٨	المطلب الثالث: خطوات الشيطان في التّسبّب بالأذى
٨١	المبحث الثالث: هوى النفس
٨٢	المطلب الأول: تعريف الهوى
٨٢	أولاً: المعنى اللغوي للهوى
٨٣	ثانيًا: المعنى الشرعي لمركب (هوى النفس)
٨٥	المطلب الثاني: صور الهوى المباحة والمحرمة في ضوء القرآن الكريم
٨٨	المطلب الثالث: أثر اتباع الهوى في حصول الأذى
٨٨	أولاً: غياب حاكمية الله من النفوس

٨٨	 ثانياً: عدم الإذعان للحق
٨٩	 ثالثاً: التكذيب
٨٩	 رابعاً: الإيذاء الحسي
٩٠	 خامساً: الظلم
٩٢	 الفصل الثالث: التدابير الوقائية لدفع إيذاء غير المؤمنين
٩٣	 المبحث الأول: الإعداد العقدي وأثره على النفس
٩٣	 أولاً: ترسيخ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر
٩٥	 ثانياً: الصبر والتقوى
٩٧	 ثالثاً: التوكل
١٠٠	 المبحث الثاني: أخذ الحذر
١٠٢	 المبحث الثالث: السلم مع الآخرين
١٠٧	 المبحث الرابع: عدم موالاة الأعداء غير المؤمنين
١١٤	 المبحث الخامس: إعداد الوسائل المادية
١١٧	 الفصل الرابع: دفع الأذى بالأساليب النظرية
١١٨	 تمهيد: لمحة عن بيئة النزول دينياً واجتماعياً
١١٨	 أولاً: البيئة الدينيّة والاجتماعيّة لمكة والمدينة
١٢١	 ثانياً: موقف غير المسلمين من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم
١٢٣	 المبحث الأول: إقامة الحجج ودفع الشُّبه
١٢٤	 المطلب الأول: دفاع القرآن عن عقيدة التوحيد والبعث
١٢٩	 المطلب الثاني: إقامة الحجّة على نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم
١٤٧	 المبحث الثاني: النُّذر القرآنية بسوء العاقبة
١٥٤	 المطلب الأول: التذكير بئُذر وقعت للأمم الخالية
١٦٣	 المطلب الثاني: درجات النُّذر القرآنية في الدنيا
١٦٥	 المطلب الثالث: الإنذار بسوء عاقبة الأذى في الحياة الدُّنيا
١٧١	 المطلب الرابع: الإنذار بسوء عاقبة الأذى في الدار الآخرة

١٧٤	الفصل الخامس: دفع الأذى بالأساليب العملية
١٧٥ ..	المبحث الأول: دراسة النصوص القرآنية المُشَرِّعة لمواجهة أذى غير المؤمنين
٢٠٩	المبحث الثاني: الأبعاد المتصلة بأسلوب المواجهة الحسيّة
٢١٧	الفصل السادس: دفع الأذى بأسلوب التجنب
٢١٨	المبحث الأول: دلالات الألفاظ المتصلة بتجنب الأذى في القرآن الكريم
٢١٩	المطلب الأول: التَّرك
٢١٩	المطلب الثاني: الخروج
٢٢٢	المطلب الثالث: الذَّهاب
٢٢٤	المطلب الرابع: الإعراض
٢٣٠	المطلب الخامس: الاعتزال
٢٣١	المطلب السادس: الفراق
٢٣٢	المطلب السابع: الهجر
٢٣٥	المطلب الثامن: الوَدْعُ
٢٣٦	المطلب التاسع: الوَدْرُ
٢٣٨	المطلب العاشر: التَّوَلَّى
٢٤٢	المبحث الثاني: الأعمال الرافدة لدفع الأذى بالتجنب
٢٤٢	المطلب الأول: الدُّعاء لله تعالى
٢٤٤	المطلب الثاني: ترك طاعة المؤذي
٢٤٨	المطلب الثالث: طلب النُّصرة
٢٥٠	المطلب الرابع: إحسان المعاملة
٢٥٣	الخاتمة
٢٥٣	أولاً: الملخص
٢٥٩	ثانياً: النتائج
٢٦٢	ثالثاً: التوصيات
٢٦٣	فهرس المصادر والمراجع

٢٧٦	 فهرس الأحاديث النبوية
٢٧٨	 فهرس الأعلام
٢٧٩	 فهرس المحتويات